د. فهد العرابي الحارثي

وجـــوه.. وأمـكنة

(بوح المكان.. وشاية الملامح)

ح فهد العرابي الحارثي، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحارثي، فهد العرابي
وجوه.. وأمكنة (بوح المكان.. وشاية الملامح)./ فهد العرابي الحارثي،- الرياض ١٤٣٥هـ
(٤٥٢) ص ١٤ X ٢١سم
ردمك: ٨-١-٩٠٤٢٥-٦٠٣-٩٧٨

1- القصص القصيرة العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ١٤٣٥/٢٩١٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٩١٠
ردمك: ٨-١-٩٠٤٢٥-٦٠٣-٩٧٨

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

alorabi111@gmail.com

الطبعة الأولى

مارس 2014م

تصميم وإخراج

مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام

ص.ب 88111 الرياض 11662 المملكة العربية السعودية

هاتف: 4624229 فاكس: 4610324

www.asbar.com asbarcentreforstudies

@Asbar_Center info@asbar.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اسبحوا في فضاءات الأمكنة
انعموا باستنطاق الملامح

لا يستطيع من كانت مهنته الكتابة النجاة من سلطتها عندما تحتشد في الفضاء من حوله، وهو لا يقدر على الفكاك من سطوتها عندما تمعن في التشبث بتلابيبه. فإن بدا للناس أن الكاتب هو الذي يركض وراء الكتابة فإن الحقيقة من الداخل غير ذلك، فما يحدث في واقع الأمر هو استجابة قسرية، أو شبه قسرية، لإغراءات الكتابة وغواياتها، وهذا ما لا يراه الكثيرون، وهو بالفعل البعد الأقوى في أبعاد سطوة الكتابة، وهو في الموقف ذاته المستوى الأعلى في مستويات سلطتها.

الكتابة هي التي تختار زمنها، فهي تداهم الكاتب في أي وقت، وفي أي مكان، والكاتب لا يستطيع أن يقاومها، أو يلغيها، أو يتمرد عليها، مهما تظاهر بغير ذلك، إنه يستطيع فقط أن يؤجلها، وهي في هذه الحالة ستظل "تهرشه" وتلح عليه إلى أن يخرجها من داخله، أو بتعبير آخر يتخلص منها.

الكتابة قد تخرج من الكاتب زاهية، مكتملة النمو، أو تكون خداجاً، هزيلة، مصابة بالأنيميا وفقر الدم. والكتابة إما تكون ولادة طبيعية سهلة و ميسرة، وإما أنها ولادة "قيصرية" صعبة ومعقدة، إذْ يحتاج الكاتب بعدها إلى نقاهة طويلة من الكلام!

والمشاهدات والشهادات في هذا الكتاب كتبت في أوقات مختلفة، ومتباعدة أحياناً، فقد كنت دائماً المطيع المنصاع لسلطة الكتابة، الراضخ لسطوتها. إنني قد أؤجلها، ولكني لا أستطيع التمرد عليها، أو الخروج على طاعتها. وهي قد تظهر أحيانا على شيء من النضارة

والصحة، ولكنها في أحايين أخرى يعتريها بعض الهزال أو السقم، فأعافها، وأحاول التبرؤ منها، ولكن مناص أو فكاك، فالكتابة تكون أحياناً كاللعنة تلاحقك إلى أن تقضي عليك، أو أنها تمعن في مطاردتك، فلا تخلي سبيلك حتى تموت موتة ربك!

وما ستقرأون هنا هو في الواقع مشاهدات، أو قراءات عابرة، في ملامح مدن، وقسمات أمكنة، نزورها، أو نقيم فيها. وهو كذلك تأوُّل لوجوه أناس يعترضون مسيرتنا في الحياة، نقابلهم صدفة أو عنوة، ويبقى منهم شيء فينا، وبالتأكيد يبقى فيهم شيء منّا. وقد نظن للوهلة الأولى أننا سنمضي، وستتلاشى بالتالي تلك الملامح للمدن التي زرناها أو أقمنا فيها، أو ربما ستختفي بدورها تلك السحنات والقسمات في الوجوه التي اعترضتنا أو نحن اعترضناها، لكن سطوة الكتابة تأبى في لحظة ما إلاّ أن تعيد كل شيء إلى مكانه، ولكن هذه المرة بطريقتها، فهي تعيد تركيب الأشياء (الملامح والوجوه) وفق تصورها هي، وليس بالضرورة "طبق

الأصل" كما هي في الواقع. إنها تفعل ذلك دون أن تفرط في البنية الأصيلة أو العضوية لـ"الشخصية" ذاتها، فالعروس هي العروس، ولكن الملبّسة أو المزيّنة هي التي تختار الألوان، والأكسسوارات، وأدوات الزينة المختلفة، التي تضعها عليها، فهي قد تبدو جميلة ومقبولة لدى البعض، وقد تبدو على خلاف ذلك عند آخرين، وهي قد تظهر متفقة أو متطابقة مع الصورة "الأصلية وقد لا تكون كذلك. الكتابة تقوم بالفعل نفسه، فتكسو الوجوه والملامح بشيء قليل أو كثير من هيبتها، أو جبروتها النافذ، فيبدو الكاتب هنا وكأنه يعيد الخلق من جديد، أي أنه يعيد صياغة الواقع بشروطه هو، ومن هنا يتحدد مدى قربه أو بعده من الخلق القديم. والفرق بين الكاتب وغيره (أيّ شخص آخر) هو أن كليهما عاينا المشاهد نفسها (الملامح والجوه) فالكاتب يملؤها بالحيوية والحركة، ومن ثم يودعها شيئاً منه، أي من ذاته ووجدانه، بينما الشخص الآخر، غير الكاتب، يتركها جامدة كما هي، فلا حراك، ولا استفزاز، ولا إغراء. كما

أن الكاتب يشحن الملامح والوجوه بالايحاءات، ليتأولها الناس، فيعيدون بناءها بدورهم، كل بطريقته، ويتحقق لهم ذلك بفضل ما أودعته الكتابة فيها سلفاً من زخم، فيصبح المشهد الواحد هكذا مشاهد عدّة لا حصر لها، ويصير العالم الفريد عوالم كثيرة لا حدّ لها.

التجربة التي قمت بها في هذا الكتاب ليست جديدة، فكثيرون كتبوا مشاهداتهم وشهاداتهم ونشروها للناس، ولا أطمح إلى أكثر من أن أصطف إلى جوارهم بتجربتي المتواضعة.

كثير من الناس رأوا مارأيت، وشاهدوا ما شاهدت، ولكن تبقى لكل منا قصته، أو روايته، أو طريقته في السرد، بعضكم سيجد فيما كتبت جديداً، وهذا هدف متقدم سأسعد به، وبعضكم لن يجد فيه أي جديد، فأكون، في أقل المستويات، قد دفعته إلى أن ينهض، فيعيش هو تجربته الخاصة من جديد.

لا بد أن تتضمن الكتابة جزءاً قليلاً أو كثيراً من

الكاتب، ولذا فأنا لا أنكر أنني موجود فيما ستقرأون هنا، بل إنني سعيد بذلك الوجود، وحريص على أن يغمرني بظلاله. ففي كل موضوع من موضوعات الكتاب ستجدون قطعة مني، ستكون حلوة مَرَّة، وَمَرَّة مالحة. مرة ستبعث على الأمل، وأخرى ستدفع إلى اليأس، مرة سأجدني أرى الأمور كما هي، ومرة سأراها كما أتمناها. مرة سأكون صلفاً مباشراً، ومرة سأصبح ناعماً حالماً، مرة سأقول الحقيقة كاملة، ومرة سأقول نصفها، لا بل إنني لن أقول في بعض الأحيان سوى ربع الحقيقة! أو أقل من ذلك بقليل!

أودعت هذه الصفحات بعض ما رأيت وشاهدت. ولقد شاهدت بطريقتي، ورويت بطريقتي . كتبت عن أماكن، وعن وجوه، أحسست أنها كلها حافلة بكلام، وأفكار، وصور، وأحاسيس، ولابد أن أشرك الناس وأصدقائي معي في النظر إليها، والاستماع لها. كتبت عن باريس ولندن والرياض وبروكسل وأمستردام وإدنبره

وغيرهـا، وكتبـت عـن الحـي اللاتينـي وشـبابه المتوثـب المتنـوع، وعـن حـي سـوهو وعجـائزه الرشـيقات المقبلات على الحياة. كتبت عن مرتادي ليدسبلين وحشّاشيه في أمستردام، وكتبت عن ساحة موبير والكلوشار والفاغابون مـن مشـردي بـاريس وأوربـا. كتبـت عـن أجمـل الوجـوه (بريجيت باردو مثلاً) وعـن أقبحها (سيرج غـانزبور مثلاً أيضـاً) كتبـت عـن وجـوه وأمكنـة أخـرى سـتجدونها فـي صـفحات هـذا الكتـاب. لـم يكـن الهـدف أن "أنقـل" إلـى علمكم مالا تعلمون، ولكني أردت فقط أن "أنقلكم" أنتم معي إلى ما يمكن أن يجدد فينا الحلم والنجوى، أو يبعث على التفكير، أو يحرض على مزيد من التساؤل. أردت أن أدفعكم معي إلى استنطاق الأمكنة، وإلى إعادة اكتشاف الوجوه، فتكملون ما اعترضني من نقص، وتشدّون ما انتابني من عجز، فالأمكنة تظل فضاءات حافلة بالروايات والأقاصيص والأعاجيب، والوجوه تبقى كتباً مفتوحة تحتمـل زخمـاً لا منتهياً من القراءات، وليس لها بدٌ من

أن يكشف عن أسرارها كل أحد، أي كلٌ بحسب حدسه، وبصيرته، وقدرته على اختراق الحجب، وكل بمقتضى ما يستقبل من الوجوه والأمكنة ذاتها من إلهام.

اسبحوا يا أصدقائي في فضاءات الأمكنة! وانعموا يا أحبتي باستنطاق الملامح، واستلهموا ما ستفضي لكم به من أسرار.

المؤلف

د. فهد العرابي الحارثي

الحي اللاتيني.. يفكّر

أقف على أعتاب جامعة السوربون بباريس، بين فتحتي الباب الكبير، في البناية القديمة الكبيرة، أحني رأسي وأنا أفرك بشدة رقبتي المتعبة، أنهكها ربما عَدُّ مصابيح السقوف الشاهقة.

تصافح عيني، ككل مرة، التجاويف العميقة في أعتاب البناية التي هدت صلابة أحجارها الأقدام الحارة للأجيال الطويلة البعيدة التي عبرت من هنا.. الأجيال التي اختلفت إلى هذا المبنى الثابت في جذور الأرض والتاريخ.

إنني أنسى أن رقبتي ما تفتأ تؤلمني وهي تحتاج إلى فرك شديد، فأمعن في الوقوف، وفي الانحناء، حتى أنني

كثيراً ما خشيت أن يقول المارة هنا: لقد غيروا في معالم السوربون بنحت تمثال جديد أسمر على أحد أبوابها..

أجل!.. فأنا أقرأ في هذه التجاويف، في أعتاب هذه البناية القديمة الكبيرة، عنف الشباب، وضراوة السنين، ثم انظر إلى قدمي الناحلتين العاريتين متسائلاً: هل من الضروري أن تمعنا في مشاركة الأقدام الأخرى التي تصر على تطبيق حقيقة "التعرية" في الأجسام الصخرية الصلبة؟! فتطفح بقايا السؤال على أشداقي في ابتسامة متعجبة أهز لها رأسي وأنا أنتزع خطواتي الثقيلة البطيئة إلى الساحة المقابلة للبناية، واسمها هي الأخرى ساحة السوربون، وربما سُميّت هي الأخرى باسم الجامعة، وليس باسم عائلة "دو لاسوربون" التي تبرعت بالمبنى هدية للعلم وللمستقبل. فأجد الساحة تغص، بحكم الجوار الجغرافي للجامعة، بأقدام الشبان الذين جاءوا من كل بقاع الأرض إلى هنا ليسهموا في تعميق تجاويف هذه الأعتاب الصلبة التي، قبل سنين طويلة، كتبت بها عائلة "دو لاسوربون" أجمل وأعذب تحية للتاريخ.

وتشاء الأكتاف الشابة، في عنف الزحام الذي تكتظ

بـه السـاحة، أن تجرنـي فـي أتجـاه واحـد.. إلـى الأمـام.. ولكني أصر، ككل يوم، على أن أستدير خلفي نحو البوابة الكبيرة الشاهقة لأحني عنقي مرة واحدة على الأقل، تحية للتـــاريخ وللرجـــال!.. ثـــم أســـير أو يســـيرني تيـــار العابـرين!..

فـي نهايـة السـاحة أجـدني، إذا اسـتدرت إلـى اليسـار، أقف أمام "لوكسبمورغ" وهي الحدائق التي لا تتعب على الـرغم مـن المملـل الـذي يعتريهـا.. حـدائق الأطفـال، والمتقاعـدين، وقـراء جريـدة "لومونـد".. حـدائق النـاس الـذين يهربـون مـن النـاس.. ويهربـون مـن أنفسـهم إلـى أنفسهم!.. نحن على نهاية الشارع الكبير "سان ميشيل" حيث تتضخم أمامي أشجار لوكسبمورغ ومقاعدها الخشبية القديمـة.. فـأكون بـين خيـارين: إمـا الإقـدام علـى احـتلال نصـف متـر مربـع داخـل لوكسـمبورج أنفـض عليـه غبـار الضـــجيج، والضـــحكات العاليـــة، فـــي دهـــاليز الســـوربون وسلالمها، أو النزول (على اليمين!) إلى قلب الحي اللاتيني عنـد أقـدام شـارع "سـان ميشـيل".. بالاتجـاه نحـو نهـر السين الشهير.. حيث يربض على أحد أطرافه هناك في اطمئنان أحد الشواهد الجيدة للحضارة الكاثوليكية.. أعني

كنيسة "نتردام" الشهيرة أيضاً.. وهي من أكبر مفاخر باريس (تتذكرون الفيلم السينمائي الشهير أحدب نتردام).

ولا يعرف إلاّ الفرنسيون أن نهر السين هو على غير صورته الحالمة، فهو مجمع للأوساخ والقاذورات، وهو المصب للمجاري الصحية للأحثاء المجاورة له. لا بأس فالناس يحبون الماء الرقراق، والبحار، والأنهار، ولاسيما إذا كانت تخترق الأجساد الجميلة الفارهة كجسد باريس!

الباريسيون، وخاصة أهل الحي اللاتيني، يعتبرون أن نهر السين هو الفاصل بين الشاطيء الأيسر الذي "يفكر" وهو حيهم، والشاطيء الأيمن الذي "يصرف" وهي أحياء باريس الأخرى الغارقة في الترف والاستهلاك وبورجوازية التفكير والسلوك، في إشارة إلى "صراع الطبقات" أو اختلاف الانتماء المفاهيمي بين اللهاث من أجل تحسين الحياة، واللهاث من أجل تعميق الفوارق الطبقية، ودعم الانتهازية، وترسيخ قيم مجتمعات "الندرة".

كثيراً مارغبت في ولوج لوكسمبورج.. ولكن "شخير!" عواجيز باريس نياماً وهم يجلسون على

الكراسي الخشبية، أو سعالهم وعطاسهم وهم يقرأون الـ"لوموند"، أو وهم يسرحون في عوالم إحدى روايات فلوبير أو إميل زولا أو بالزاك، كثيراً ما تجعلني أطلب تغيير المكان إلى أمكنة لا أسمع فيه نحيب الحناجر القديمة..

منذ أن إستدير يميناً.. أتمنى لو يعود طه حسين، أو توفيق الحكيم، أو إحسان عباس، إلى هذا الحي ليجدوا أن أكثر ما كتبوا عنه لايزال باقياً على تعاقب السنين والأيام.. فقط الصورة أصابها بعض التغيير.. فهي الآن أصبحت صورة مكبرة.. أكثر ضخامة!..

أعد خطواتي على الرصيف.. حبة!.. حبة!.. واحدة.. واحدة.. وأنا أقلب جمجمتي العارية بين الجماجم الكثيرة المزدحمة هنا بالفن.. وبالشعر.. وبالسياسة.. وربما بالضياع أحياناً..! ومع كل خطوة جديدة أحني رأسي إلى مواقع أقدامي وأقول: هنا! على هذا الرصيف كان يضع خطواته كل يوم "صعيدي!" من مصر، يده في يد فرنسية تقوده لأنه أعمى، وهنا! يضع اليوم خطواته بدون قائد ولا دليل "بدوي!" من صحراء الشعر والعشق والرجال، وهو في حاجة إلى من يقوده

على الرغم من أنه مبصر.. فهو "غشيم" وتائه، ولا يعرف إلى أين سينتهي به المشوار. تدور به الأرض، بل إنه يحسها تهتز، وكل ما في داخله يهتز. هنا على هذه الأرصفة.. كان "صعيدي" مصر دائماً مبهوراً.. ومأخوذا.. من حرارة الناس.. ومن كبرياء الحي اللاتيني.. ومن تواضعه.. فماذا كان سيقول لو كان يبصر ويرى ما يراه الآن هذا "البدوي".. أخو العرب!.. القادم من صحراء العرب!..

على أرصفة الحي اللاتيني كنت أضع خطواتي.. حبة!.. حبة!.. خطوة.. خطوة.. وأنا أنظر إلى الناس في كل مكان. إن أول ما ألاحظ هو أنني لا أرى بينهم شيخاً أو امرأة مسنة، أو هكذا تخيلتُ وهُيّئ لي!.. كل الذين يتواجدون هنا في عيونهم لهب.. وفي قلوبهم أيضاً لهب!.. فالحي اللاتيني هو حي الفتوة.. والشباب.. الشيخ والمرأة المسنة لا مكان لهما هنا.. أو وجودهم هنا وجود عابر، غير مستقر. وقبل أن أصل إلى "قلب" اللاتيني يقطعني شارع "سان جرمان" الكبير حيث يقع على أحد أرصفته مقهى "لي دوماغو" ومقهى "لو فلور" اللذان كانا يوماً ما مقصداً لجون بول سارتر المشاكس

العاصي! ولسيمون دو بوفوار العشيقة والملهمة لرائد الوجودية.. كثيرٌ من الناس كانوا يعتقدون أن هذين المقهيين لا يزالان "وجوديين!".. وأن سارتر ومريديه يقصدونه إلى الآن.. ولكن الحقيقة غير ذلك.. إذ أن سارتر قد غير مقهاه قاصداً، كل يوم بعد الثالثة ظهراً، أحد مقاهي "مونبرناس" حيث يتواجد عدد غير قليل من عواجيز باريس، ومتقاعدي الثقافة، ويائسي النضال الثوري، والمحبطين من تعثر الحريات في أرجاء المعمورة... وهناك يجلس بينهم جون بول سارتر كأي واحد منهم.. فهو لم يعد يثير الانتباه!.. لقد شاخ!.. ثم إنه قد برد حبه لسيمون دوبوفوار..

أتقدم !.. فأقطع "سان جرمان" ويستحثني الزحام فأندفع فيه.. أتلفت يميناً وشمالاً.. وأرفع رأسي وأرخيه.. كأنني أبحث عن شيء كان قد فقده هنا منذ سنين "صعيدي!" مصر!.. وبـ"شيله وحطّه!" أجدني في "أزقة" ضيقة جداً.. في حي صغير مستدير.. "مبروم!".. أزقة ضيقة متشابكة مثل أزقة "أجياد".. أو "سوق الليل" قديماً في مكة المكرمة شرّفها الله.. بل إن هذه الأزقة أكثر ضيقاً أحياناً.. بعضها لا يزيد عرضه

عن متر ونصف تقريباً!.. أجدني بين جدران سوداء ليست شاهقة!.. فوق رأسي نوافذ ذات أدراف "قلابي!".. ولو كان عليها "كبريتات" لقلت إنني في أحد أحيائنا القديمة في إحدى مدن الحجاز.. الأرض التي نمشي عليها لها لون.. لون أسود بالأسفلت وببقايا أقدام الناس.. وهي لاتخلو من بقع كبيرة بيضاء، هي كتابات بالطباشير تحمل كل ما يمكن أن يقوله شباب الحي اللاتيني: أشعار.. أغاني.. نداءات.. بيانات.. شتائم.. وفضلات قلوب مسفوحة ومهرقة في كل مكان.. على الأرصفة وعلى الأسفلت.. وعلى الجدران.. مشاعر وأفكار لم يجد أصحابها، أحياناً، من المال ما يمكنهم من تبليغها الناس على الورق، فيكتبونها عند أقدامهم، ليحنوا رؤوسهم إليها، برغبة وبلا رغبة!!.

هذه الأزقة في الحي اللاتيني بعيدة عن الألوان، وعن الأضواء الفاقعة، وعن الكرافتات والبدلات الأنيقة. الأضواء هنا خافتة تنبعث فقط من الثقوب والكوى الصغيرة في تلك الجدران السوداء التي تحيط بنا محاولة، من وجهة نظرها، أن تسهم في تكثيف حميمية

الفضاء أو المكان!.. وتحت إيقاع هذه الأنوار الخافتة يتبدد الصمت في همس يشبه خطو البجعات الهاربة للتو نحو الماء!

*****

أسحب خطاي الثقيلة في أزقة الحي اللاتيني المكتظة بالعيون وبالهموم..

تنسل من الثقوب الصغيرة في الجدران أعناق لهب صغيرة تنطلق من أصابع الشموع التي تسيل دموعها بسخاء فوق طاولات المطاعم الضيقة "المحفوفة!" المتواضعة التي تتوارى خلف جدرانها السوداء! إنها تبدو دائماً هكذا مهما حاول أصحابها أن يخفوا هذا السواد ببعض الطلاء من الألوان الأخرى.. لا شيء يخفي حقائق الحي اللاتيني، أو يزيّفها، أو يظهرها على غير وقاعها، فحتى الأضواء، أو الطلاءات، أو الأشعار إنما تستلهم عبقرية المكان، وهي وحدها التي تملي ما تريد قوله، أو فضحه، أو إفشاءه.

مطاعم فرنسية وصينية وفيتنامية وأفريقية.. وعربية أيضاً.. لا تستطيع أن تعرف جنسية المطعم هنا حتى

تقترب منه، لتشمّه، أو لتقرأ قائمة الطعام الموجودة غالباً على طرف باب الدخول، تحت ضوء هادئ، ضوء كأنه يقول لك: هس! اقرأ بصوت منخفض!!

أما إن كنت من غير المقبلين على قراءة قوائم الطعام أو كانت حاسة الشم عندك ضعيفة فعليك أن تقترب أذنك من الباب الصغير المغلق لتسمع نوعية الموسيقى الموجودة في الداخل، وبها قد تتعرف على جنسية المطعم.. فإن كانت ثقافتك الموسيقية ليست بذات بال، فإنه لم يعد أمامك سوى طريق واحدة هي: السؤال. وبأي لغة تتكلم تستطيع أن تجد من يفهمك ويجيبك في الحي اللاتيني.. بما في ذلك العربية لوجود عرب كثيرين هنا.. هذا الحي الباريسي لا يعرف جنسية بعينها.. هو كل الجنسيات.. التي تكتظ هنا وتحتشد من كافة بقاع الأرض.

استمر..!

أسحب خطاي الثقيلة، في هذه الأزقة الضيقة، بين جماعات تعرفني ولا تعرفني.. بين جماعات آكل من عيونها الغربة والمسافات الطويلة!.. وتأكل هي من

سحنتي إطلالة الشمس، ودهشة الرياح المعفرة بالرمال!.

أسير وأنا لا أشعر بالحاجة إلى ولوج أحد المقاهي لسماع مقطوعات موسيقية، ربما لأن أركان أزقة الحي اللاتيني لا تخلو من "موسيقى"هي الأخرى.. فهناك دائماً شباب ينتصب أمام العابرين.. يشنق قيثاره في رقبته.. ويغني.. كثيرون هم الشباب الذين لا يجدون من المال ما يمكنهم من الدخول أو المكوث "المريح" في مكان لسماع الموسيقى، فيلتفون حول موسيقى الرصيف.. بل إنهم يشاركون أحياناً في العزف وفي الغناء..

في الحي اللاتيني هناك أيضاً ساحات تكون مخصصة للمغنين الطلقاء، فناني الرصيف، مثل ساحة "موفتار" في قمة "الجبل" في ظهر " البانيتون" المعروفة بأنها مقبرة الخالدين.. ففي ساحة "موفتار" عازفون ومغنون من كل مكان، والمطاعم الصغيرة تحتشد في الشوارع المفضية إليها من كل اتجاه. وفي ساحة موفتار اشتهر المغني الفرنسي جورج موستاكي، إذ كان يسكن هناك.. وهناك أيضاً كانت تعلمه الشهيرة "إديت بياف" أصول

الغناء، ويرافقهما في هذه الخلوات الفنية عملاق آخر هو "شارل أزنافور" أهم من غنّى للصبابة والحب.

يمشي أكثر الناس هنا وعيونهم تترامى بين أقدامهم.. أما أنا فأمشي وعيني مشنوقة على كل باب!.. ومحفورة في كل زاوية! ربما لأنني أشعر بالغربة في كل شيء! وعن كل شيء!.. يقف الناس هنا فلا يتعبون من الوقوف.. أما أنا فإن وقفت فإن رقبتي ستؤلمني من عد جهاتي الست: فوق!.. تحت!.. يمين!.. شمال!.. أمام!.. خلف!..

هذا الشباب المغني الراقص ليس هو وحده الذي يبدد صمت وهدوء أزقة الحي اللاتيني وساحة موفتار في أغلب الأحيان!.. فقد أتقدم خطوات لأجد وسيلة أخرى تشق الصمت والهدوء!: شاب.. يتكلم!.. بصوت مرتفع.. وحوله عدد من العابرين.. هذا الشاب يلقي كلاماً.. يقول رأياً.. في الحرب الفيتنامية مثلاً.. في الضمان الاجتماعي.. في اختطاف نورويغا.. في منظمات الألوية الحمراء أو في أي شيء آخر.. فينتهي "خطابه" إما بالتصفيق أو بإدارة الظهور نحوه ليعد هو الجيوب الخلفية لبنطلونات الجمهور!..

هنا أيضاً شاب يلقي قصيدة.. شاعر!.. يريد أن يبلغ الناس شعره بنفسه!. وغالباً ما يلقي البيت الأخير على وقع الهبات! والعطايا! من المنصتين.. يستاهل! فناشئة الشعر هم أفقر أهل الأرض.

أما الآن فشاب يلقي كلاماً فارغاً!. ليس له أول ولا آخر!.. قد يسب الناس!.. والحكومة!.. والقوى الرجعية في العالم.. والبورجوازية العفنة.. وجون ماري لوبن زعيم اليمين الفرنسي.

هنا كذلك من يقدم للناس ألعاباً بهلوانية: يبتلع أمواس الحلاقة!. يدخل السجائر إلى فمه فيأكلها وهي تشتعل! يدسّ منديلاً في جيبه فيخرجه "مظلة" وارفة، أو شمسية بلغتنا الدارجة!.ثم يدخل بيضة إلى كوب الماء ليخرجها "فروجاً" مكتمل النمو، ونحن نكون في الغالب قد شاهدنا مثل هذه الألعاب، ولكننا نريد أن نراها مرات أخرى، فللوهم متعته المتكررة، وهو يشغلنا في الغالب عما نحن فيه من عذاب، ولدينا الاستعداد لأن نصدق أكاذيب الحواة، والسحرة والدجالين، فهي أقل خطراً من أكاذيب ودجل القابضين على مقاليد الأمور في

السياسة أو الاقتصاد، إننا نستيطع أن نقسم بأغلظ الأيمان على صحة ما نقول!

*****

قذفتني بعلبة سجائر فارغة..

- هيه!.. هيه!.. لو سمحت؟!

لم ألتفت سريعاً.. بل انثنيت إلى علبة السجائر الفارغة!.. "جيتان".. كان عليها فتاة ملونة بفستان طويل!.. نعم! رسمة لفتاة بالألوان!.. وتحتها كلمات غير مترابطة وغير متفقة في معنى!..

التفت إلى مصدر العلبة والصوت:

- نعم!

- أريد أن ألقي نظرة على الجريدة التي معك ، هل تسمح؟!

رفعت يدي التي كانت تمسك بالجريدة بأناة قبالة وجهي!.. ثم أقبلت عليها.. ناولتها الجريدة.. وأخذت أعد مصابيح المقهى الخافتة المدلاة من السقف بعد أن

وقفت على الباب من الداخل! وهي تقرأ! أو يبدو لي أنها تقرأ!

اسم المقهى "بولي ماغو"في الحي اللاتيني نفسه.. لم تكن هذه المرة هي الأولى التي أدخله، فلقد جئته مرة قبل هذه المرة.. حدثوني عنه كثيراً، وعن قدمه، وعن شهرته.. فحياته تكاد تبدأ مع بداية الحي نفسه.. كان يوماً ما مقهى الفن والشعر والموسيقى.. ولا يستبعد الكثيرون ممن يعرفونه بأن مشاهير "الموسيقيين" والفنانين اليوم، الذين انقطعوا عنه، إنما كانوا ينضحون فيه شظايا قلوبهم.. ويكتبون على طاولاته الكابية آخر ما تطفح به مشاعرهم وأحاسيسهم.

"بولي ماغو" ليس المقهى الوحيد الذي عرف بمثل هذه الأمور في الحي اللاتيني، ولكنه كان لاشك أكثر المقاهي من هذا النوع شهرة.

احتفظت بعض مقاهي الحي الأخرى بدورها في تصدير شعراء وفنانين للناس وللعالم.. أما "بولي ماغو" فهو لم يعد يصدر لباريس سوى شباب يجدف بوهن واسترخاء في مجرى أيامه المتآكلة!.. وهو على الأصح يغرق في أتون ضياعه..

ناولتني الجريدة بعد أن تصفحتها!.. فسألتها:

- من رسم هذه الفتاة على علبة السجائر؟!

- أنا!.. أتسألني؟! لا أعرف ماذا أعمل؟!

- ولكنها رسمة جميلة!!

- خذها مقابل قراءتي للجريدة!!

- هل أنت فنانة؟!

- لا ولكني أحب الرسم.

- هل تشتغلين؟

- أنا لا أشتغل

- وكيف تعيشين؟!

- أبي طبيب كبير في باريس.. ويعطيني في كل شهر مبلغاً معيناً أعيش به..

ألتفت عنها أقلب عيني في "بولي ماغو".. كان ولايزال مقهى صغيراً لا يزيد عدد طاولاته عن العشر طاولات أو أقل.. تبقى على جدرانه بقايا خطوط لأقلام كانت تقول للناس أشياء مهمة.. وغير مهمة أحياناً!.. ويبقى على جدران المقهى كذلك بعض اللوحات الفنية

الكابية المكسوة بالغبار وبالدخان.. كل الذين أراهم هنا هم "أطفال" باريس ونيويورك ولندن المشردون.. جاءوا يمضغون ألسنتهم بعبارات يحفظونها عن ظهر قلب! ولا يجيدون غيرها.. يرددونها بلا انقطاع، وبلا توانٍ، ويحدث ذلك في كل دقيقة يجدون فيها حاجتهم إلى الكلام.. "نحن هيبيون شعارنا الحب والسلام!". يكاد يكون هذا المقهى الصغير مقبرة أحياء صامتة لولا أصوات توم جونس.. وجليبر مونتاني.. وجورج براسانس، وغيرهم. كانت هذه الأصوات تثير في جنبات المقهى الضيقة أشكالاً من الموسيقى والغناء تجعلني لا أرى يتحرك – في وهن – من مرتادي المقهى سوى أقدامهم.. لعلهم يطربون لما يسمعون!

- من أين أنت؟!.. هل أنت هندي؟
- سألتني هذه التي كانت تقرأ جريدتي..
- من بلاد الصحراء والرمال والشمس.
- أنت عربي؟!
- نعم!

- أنا أحب الكسكسي؟! إنه من أجمل أطباقكم على ما أعرف؟!

- وهذا كل ما تعرفينه عن العرب وبلادهم وثقافتهم؟

- لا.. أعرف شيئاً آخر اسمه (إسرائيل).. ولكن حدثني عن الكسكسي؟!

تركتها وخرجت.. فقد كان باب المقهى موصداً وعلى ضيقه يكاد ينفجر بدخان السجائر..

الكسكسي.. طبق شهي جداً تعرفه الشعوب العربية في شمال أفريقيا، فنشرته في عموم فرنسا، ولكن كل الناس هنا يعتقدون أنه "طبق" كل الشعوب العربية.. فأول ما أقول إنني عربي يطلبون مني الحديث إما عن الكسكسي، أو عن البترول، أو عن إسرائيل، وأحياناً قليلة عن الشمس والصحراء والإبل.. فأستطيع أن أحدثهم عن هذه كلها إلا الكسكسي!.. فأنا لم أعرفه إلا بعد أن جئت إلى فرنسا.

والكسكسي – أدامكم الله! – هو "السميد" أو جريش قلب الحنطة.. وبطريقة معينة لا أعرفها يتحول

إلى حبات صغيرة كحبات الدخن! ثم يطبخ بطريقة معينة لا أعرفها أيضاً.. وإلى جانبه يقدم أنواع من المرق والخضار والحمص واللحوم.. وربما الزبيب أحياناً.

في فرنسا بدأ الكسكسي.. انتشاره من الحي اللاتيني.. مطاعم كثيرة لا تقدم إلا الكسكسي وهذه المطاعم أحسبها قديمة قدم الحي نفسه أيضاً!

*****

سحبت خطواتي الثقيلة من أمام بولي ماغو أعد فجوات الصخر في أرصفة هذه الأزقة الضيقة.. كما أعد المداخن المشرئبة فوق الأسطحة. وقليلاً ما أقول لمن يركلني بكتفه وهو يعبر إلى جانبي في الزحام: سامحك الله..

يردد أهل الحي اللاتيني بكل تواضع: كل أجنبي في الدنيا له وطنان هما: وطنه الأم وفرنسا.. وهم يعنون دائماً بفرنسا باريس.. ويعنون بباريس الحي اللاتيني.. يقولون أيضاً: كل حجر صغير في هذا الحي هو ذكرى.. وكل شارع أو "زقاق" هو صفحة تاريخ.. وأنا أتساءل أيضاً: متاحف الحي اللاتيني.. وتماثيله.. وناسه.. كل

هذه الأشياء هل تعطيه هي من عظمتها؟ أم أنه هو الذي يعطيها من عظمته؟ ويتلاشى في مخيلتي الجواب عجزاً عن البحث عنه، أو يأساً من العثور عليه.. كل الأشياء التي هنا يمكن أن تفسر بأكثر من تفسير لأنها تحمل أكثر من معنى.. ولهذا فأنت دائماً مصيب.. وأنت في الوقت نفسه مخطئ..

التفت اليمين اقرأ اسم الشارع الذي ابتلعني منذ لحظة: "سان جرمان".. نداءات.. ضحكات.. عبارات "جامدة" لبقايا خصام أو نزاع أو مزاح.. عبارات ناعمة.. ورديئة – أحياناً – لبدايات أو نهايات.. هذه هي أخلاق هذا الشارع سطحياً..

شارع قابل للانفجار في أي لحظة لأنه محتشد دائماً بقلوب وبرؤوس تشتعل بالمستقبل وبالخيال.. كل الأجساد هنا تحشر نفسها في كل شيء بلا استئذان..

العشق يولد هنا.. ويوأد هنا أيضاً.. يمارس على طريقة "حبحب على السكين".. أو على طريقة: "خمس دقائق من أجل نسيان الحياة".

في "سان جرمان" كنت أبحث عن سكاراموش وقصة الثورة الفرنسية، أبحث عن الكاتب الأسباني رفاييل

سباتيني وشخصية سكاراموش التي تحولت شخصية ثابتة في مسرح الكوميديا الفرنسية.. سكاراموش.. المسرح.. مسرح الجوار الغيور.. أربكان.. موزيتان.. الدكتور.. اسيزايل.. كولمبين إلخ..

وفي "سان جرمان" كنت أبحث أيضاً عن معرضه الذي وجدتهم كتبوا عليه "غير صالح للاستعمال" منذ عام 1786م.. المعرض الذي افتتح لأول مرة عام 1486م (لاحظوا التاريخ!).

مشيت..

أبحث عن المقهى أو المطعم الشهير الذي يبلغ من العمر أكثر من ثلاثة قرون واسمه "بروكوب" إذ كان يلتقي فيه كل يوم: فولتير.. وبيرون.. ولافونتين.. وديدور.. ومارمونتيل.. وسانت فوا.. والفبتو.. هنا كانت طاولات هذا المقهى تحفل بأوراقهم، وببقايا سجائرهم.. وكانت جدرانه تضج بشجاراتهم، وقد احتفظت، لمدة لا تهون، بمواقع البصمات لعبارات النقد والفكر الساخن.. هنا كان "جرسون" المقهى مثقفاً بدونما حاجة إلى أن يقرأ.. فهو كان كل يوم يستقبل

هـؤلاء، فيـذهب ويجـيء علـى أحـاديثهم، ومشـاجراتهم، وخلافاتهم التي لاتنقطع.. وأتصور أنه كثيراً ما كان يفزع من ضربات أيديهم على الطاولة.. كان هنا أدب "مراكيز" ولكنه من نوع رائد جعل لباريس ولفرنسا "رنّة" فكرية وقف لها العالم كله: "تعظيم سلام".

في مقهى "بروكوب" كان بومارشيه (القرن الثامن عشر) منتظراً مع أصدقائه من قبل البوليس ليأخذوه إلى السجن.. في "الأولى".. وفي "النهار المجنون".. وفي "زواج فيغارو" التي مثلت في "آوديون".. بور كانت ليلة.. ولدت حركة سياسية معتبرة نتجت عن سجن بومارشيه ثلاثة أيام. بومارشيه المليء بالحيوية والمرح، كان قاضياً للجنح، وعمل في السياسة والتجارة والمسرح، وكان عازفاً على الغيثارة، وشاعراً، وفيكتور هيخو يعد من أبرز المسرحيين الفرنسيين يتساوى في تأثيره في المسرح الضاحك مع موليير، ومازالت تقدم مسرحياته في العالم، وتجد الإقبال والنجاح!

"بروكوب" جعل فيه "غامبينا" ملتقاه مع أصدقائه.. مقهى تاريخ.. ومقهى فكر.. استمر كمكان منتظم

لمؤتمرات الأدباء والمفكرين.. أما الآن فهو مطعم يعج بزبائنه الذين لا يساوون شيئاً أمام تاريخه. وبجانبه الـ"بوب سان ميشيل" الذي تحول الآن إلى مرتع للعربان (الخليجيين) الذين قرروا أن يستيقظوا متأخرين جداً في اليوم التالي.

مشيت!..

أبحث عن "الزقاق" الضيق فيسكونتي (أمراء ميلانو في القرن الرابع عشر) الذي يتفرع عن "سان جرمان" ويعود تاريخ أكثر المنشآت فيه إلى القرن السابع عشر.. هذا الزقاق الذي حظي عام 1825م ببالزاك، يسكن مطبعة فيه، عندما كان ينشر رواياته بنفسه.. في هذا الشارع الصغير كان يتدفق بالزاك فكراً وإبداعاً.. وكان أيضاً يستقرض ديونه من أجل أن يعيش.. ويبيع رواياته على "دوبيرن" الذي كان يمثل رأسمال له كل اعتبار.. ويمثل أيضاً أقوى مسابك أخلاق باريس.

هذا الشارع سكنه أيضاً جون راسين الشاعر والمسرحي المعروف، وهو من معاصري موليير ومن أشهر مسحياته (إفيجين) و(استير) وهي من الترجيديات

الكلاسيكية.. سكن راسبن في هوتيل روما بالذات، ومات فيه عام 1699م. كما سكن هذا الشارع كذلك أدرين.. كولوفر.. والمادموازيل كليرون الممثلة الفرنسية الشهيرة (القرن الثامن عشر) والتي برزت في الأوبرا، وعملت في الكوميدي فرانسيز، نجحت في تمثيل مسرحيات فولتير وراسين..

كلهم سكنوا زقاق فيسكونتي..

يقولون هنا: يكفي هذا "الزقاق" أنه ضم يوماً مجدين ناهضين للإبداع والنبوغ في فرنسا هما: راسين الناعم والمصارع المحبوب.. وبالزاك الجبار صاحب العيون الشرارية، وهو صارع من المصاعب ما لو واجهت غيره لاتكأ على "كوعه" ونام إلى الأبد.

مشيت..

أبحث عن نفسي بعد أن دار راسي من تتبع مواقع الأشخاص الذين صنعوا للتاريخ الإنساني "موضوعات" يستطيع أن يتحدث عنها بإسهاب.. قلت لنفسي لهذا أغبط المؤرخين أنهم سيجدون كل يوم "موضوعات"

يتحدثون عنها أتصورهم يأكلون في وجباتهم الرئيسة من "ألسنة النيران" ليستطيعوا أن يؤدوا مهمتهم كما ينبغي.

الناس كلهم في "سان جرمان" بألسنة نيران.. وبألسنة أرانب أيضاً.. كلهم يملكون ألسنة.. ولكنها مختلفة في الطول، وفي الوزن، ربما كنت الوحيد بينهم الذي لا يملك لساناً؟.. ليس لأنني فقدت لساني، ولكني لأنهم يقولون هنا بأن لساني مجرد "خرافة" ففضلت أن أبقيه لي بمحبة واقتناع.

وتودون أن أحدثكم عن المتاجر والمعارض والفترينات ودور السينما والملاهي التي يعج بها "سان جرمان" فهذه كلها تستطيعون أن تتصوروها وحدكم!.

*****

.. كان "سيرج ريجياني" الممثل المسرحي، والمطرب المشهور، يحكي لجميلته "ألفير" قصة دخول (الذئاب) الألمان إلى باريس.. وقصة خروجهم منها.. وأنا الآن تحت مكبر الصوت في أحد مقاهي الحي اللاتيني أرسم صوراً جديدة لذئاب من أنواع مختلفة مازالت تغص

بهم هذه المدينة.. ذئاب تجارة ومال وجشع، وبينهم يهود كثيرون.. وهناك ذئاب سياسة وخداع وتلصص فكري وبينهم يهود كثيرون أيضاً.. وذئاب أخرى من أنواع مختلفة أراها وتراني.. هي جبانة وأنا لست بأشجع منها.. ولكن الشئ الذي يريحني ويريحها ويريح كل سكان هذه المدينة المليئة بالناس، والجائعة للناس.. هو أننا في أكثر الأحيان لا نضطر إلى اختبار "شجاعتنا" فكلنا شجعان.. وكلنا جبناء في آن واحد.. نستطيع أن "نَستَذْيب" كيفما أردنا ومتى أردنا.. ونستطيع أن "نستنعج" كيفما أردنا ومتى أردنا.. وحتماً سنجني في النهاية ثمار استذيابنا أو استنعاجنا فخراً نتعلق بأذياله أو عاراً يتسمّر فوق جباهنا.. وأقول لكم بندم: إن اليهود، ذئاباً أو نعاجاً، هم أكثر الناس ظفراً هنا.. على وجه العموم..

هذا كلام يأتي بعد مشاهدات لمواقف كثيرة تتكرر في كل يوم لقد ذكرني بها الآن سيرج ريجياني كما ذكرني بها أيضاً وجودي، أتنفس الصعداء، في مقهى يغص بعرب ويهود وفرنسيين وإنجليز وأمريكيين

وأفريقيين وغيرهم.. أرى بينهم الذئاب والنعاج من كل الأنواع التي ذكرتها والتي لم أذكرها.. ذئاب "تتناهش" بالعيون وبالرموش وبالألسنة وبالأكتاف العريضة.

هذا المقهى يفتح أبوابه على ساحة "موبير" وهي الساحة التي تقع فيها منابر الشيوعيين وتصدر منها صحيفتهم المعروفة "لومانيتي" وما من شك أن هذه الساحة تعد إحدى الساحات الشهيرة بتاريخها وبقدمها وببؤسها أيضاً.. في الحي اللاتيني. ولها ثلاث ظواهر على مدى عمرها المديد، الأولى: أن أكثر الوجوه التي تتواجد فيها هي وجوه أجنبية من شتى بقاع الأرض على مستوى طلاب ودارسين غالباً، ومنهم المقيم في باريس يكمل تعليمه.. ومنهم الذي جاء إلى هنا في إجازة ليرى باريس.. حلم الشباب.. وحلم الشيوخ أيضاً. الظاهرة الثانية: هي أن هذه الساحة كانت مجزرة ومحرقة في العصور الوسطى، فقد التهمت فيها النيران رؤوساً كثيرة ألغي – بالمبني للمجهول – قيدها من الحياة.. أما الظاهرة الثالثة: فهي أنها، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، تحولت إلى معقل من أكبر "معاقل" باريس لتصدير جماعات الكلوشار.. والفاغابون.. الذين يثيرون في

جنباتها أقوى صور الشقاء والرفض.. بعبارة أخرى.. ماتزال رؤية أعداد لا تهون من هؤلاء على جنبات الساحة تثير السخط على المجتمع الصناعي الحديث وكل إفرازاته.

تذكرت الظاهرة البائسة القديمة لساحة "موبير" وهي القتل والحرق.. ونظرت إلى الظاهرة الحديثة البائسة أيضاً، وهي "تكدس" الكلوشار والفاغابون على جنبات الساحة وبعض أرصفة شوارعها، وهذان أمران يوحيان لي، لو كنت رساماً، بلوحة أظهر فيها كل معالم هذه الساحة في ألوان تستلهم بالبؤس.. وكل مراحل انعطاف الإنسان إما إلى الموت على غير هوى، أو إلى التشرد والضياع. إنها ساحة توحي بانحسار نشاط الإنسان، وبتقلص مشاركته الإيجابية والمتفاعلة: الموت أو بالتشرد والضياع. الإنسان في هذه الساحة محكوم عليه دائماً بالإعدام إما من غيره قتلاً وحرقاً، كما كان قديماً، أو من نفسه ومن مجتمعه تشرداً وضياعاً كما هو الحال الآن .

في العصور الوسطى كان عذاب الإنسان في هذه الساحة يسلي البطون الشرهة لعروض القتل والحرق..

"اتيـان دوليـه" ناشـر ومتـرجم أحـرق هنـا عـام 1546(القـرن السـادس عشـر) بـأمر فرانسـوا الأول. ووإتيان دوليه شاعر وكاتب أيضاً، نشر أفكاراً تتعارض مع الكنيسة، وسجن مرتين، ثم أحرق هو وكتبه بتهمة الإلحاد. أحرق هنا أيضاً. المكتبي "مارتن لوم" عام 1560 لنشره عدداً من الكتب والنشرات التي كانت تحفل بالتمرد وبالانفصال وبالفضائح. أحرق على إثره "دوبير ديور" التاجر الذي حاول بعد أن أحرق "مارتن لوم" أن يبدي للعامة مروقه على الذين قتلوا "لوم".. ولكنه، بعد أربعة أيام فقط، أضاع رأسه في هذه الساحة.. بأدائه مواقف فاضحة ومنها "الشتم".

الفتاة الجميلة فيليب دولون.. اشتهرت بجمالها الفاره ففرحت به وما علمت أن هذا الجسد الزاهي ستأكله النار يوماً ما في ساحة موبير.

غير هؤلاء آخرون شهدت هذه الساحة نهاياتهم قتلاً وحرقاً، إذ كانت "مقتلة.. محرقة".. فتحولت اليوم إلى مكان يتواعد فيه البؤساء والتعساء المهيئون لعمل أي شيء شرط أن لا ينفع أحداً(!!).. أعني الكلوشار والفاغابون.

في محاذاة الساحة هنا شارع أسمه "ميتر ألبير" وهو يأخذ اسمه من اسم المبشر الدومينيكي"موريس البير" والملقب بألبير الكبير.. وهذا المبشر كان يعطي دروساً في اللاهوت في ساحة موبير.. هكذا في الساحة.. في العراء..

ولكن!. من هو الفاغابون؟ ومن هو الكلوشار؟

المجتمع الصناعي ترك بصمات السلبية على الإنسان المعاصر، وعلى عقله وروحه.. أعني بهذا.. الإنسان الذي يفهم حركة الآلة على أنها حركة تهدد كيانه وضميره.. فـ"يتشرد" ويسحب خطاه بإعياء بعيداً عن الإنسان المتفاعل مع الآلة ومجتمعها. فكان هناك أنواع كثيرة من التشرد والتمزق الاجتماعي تمثل في عدة حركات كالهيبية.. والفاغابونداج.. والكلوش.. ويجمع هذه كلها في اللغة الفرنسية كلمة "فاغو" وهذه الحركات الثلاث تأتلف تحت مفهوم واحد وهو "التشرد" والانشقاق على مجتمع الآلة.. ولكنها تتفاوت في الأهداف والمنطلقات وفي نوعية التعامل مع الآخرين وحجمه.. وفي متوسط الأعمار الزمنية والعقلية والنفسية للأفراد الذين يكونون كلاً منها.

والحركة الهيبية حركة معروفة تحدث الناس عنها كثيراً ولا داعي هنا لمراجعة كل ما كتب وقيل عنها.. ولكن يبقى هناك الفاغابونداج والكلوش.. وهما أقل من الأولى انتشاراً وأثراً وفعالية نوعاً ما.. وأحسب أن موطنهما الأكثر خصوبة هو باريس.. تحت جسور نهر السين، وفي ممرات المترو، وفي أنحاء الحي اللاتيني، وبالذات في ساحة موبير.

في عام 1968م عناهم القانون الفرنسي الجزائي بـ"المتشردين" الذين ليس لديهم سكن، ولا مستوى معيشي معين، ولا يمارسون عادة أي مهنة أو وظيفة.. وهم معرضون للتوقيف من قبل السلطة.. لأنه لابد أن يكون لكل فرد هنا سكن، ولابد أيضاً أن يعرف بممارسة وظيفة أو مهنة معينة، أو يؤخذ فوراً إلى السجن.. هذا قانوناً، أما واقعاً فبعض أنحاء باريس لا تخلو منهم.

ربما لأن القانون الفرنسي عني النوعين بالمدلول السابق – قانونا – نجد أن الناس هنا وحتى الباريسيون أنفسهم يخلطون بينهم، بل ويخلطون أحياناً معهم الهيبين.. فهم إن رأوا إنساناً تبدو عليه آثار البطالة

والتشرد والضياع وتعاطي المخدرات والفقر والجوع والقذارة واسترسال شعر الرأس عموماً.. قالوا عنه هيبياً إن كان شاباً أو فاغابون وكلوشار إن كان قد تعدى سن الشباب، بمعنى أنهم يميزون الهيبي بأنه شاب.. والفاغابون والكلوشار بأنهما متقدمان في السن.. وهذا صحيح إلى حد ما.. ولكن ليس بالضرورة.. وبذلك يبقى عندهم الفاغابون والكلوشار شيئاً واحداً.. لافرق بينهما.. ولكن الدراسات الاجتماعية والرسائل الجامعية التي اهتمت بحركات "الفاغو" أعطت لكل حركة لونها الذي ينبغي، فأصبحت تتميز في أغلب الأحوال لدى الدارس الاجتماعي، أو المتهم بمعرفة هذه الحركات فقط.

*****

تربط الكلوشار مع الفاغابون رابطة (التشرد).. ويكون من أوائل مستلزماتها التسول، ولكن الاثنين يختلفان في "أدب" الاستجداء.. فالكلوشار قد يدحرج من بين شفتيه كلمة الشكر وهو يدير ظهره لك يشعل السيجارة التي طلبها للتوّ منك.. أما الفاغابون فيترك

المكان الذي يستضيفه دون أن يدفع شيئاً، أو حتى يقول كلمة الشكر.. هذان الأسلوبان قد يمثلان للكلوشار والفاغابون المحصول السلوكي لفلسفة كل منهما تجاه الناس.. فالكلوشار -مثلاً- لايرفض محبة الناس وهو لا يسعى وراءها. وهو يحب أحياناً إقامة بعض العلاقات خارج جماعته. أما الفاغابون فمغروس في الحاضر.. غداً لا يعني له أي شيء.. فقير المشاعر.. لا يعرف المحبة ولا الحقد.. مفصول عن كل شيء، وهذا لا يؤخذ بأي حال على أنه "مشغول" بنفسه بل يؤخذ على أنه لايرتاح لكل الناس لأنه يرغب في إعادة "تنظيمهم" من جديد ليتسنى له أن يعيش مثلهم أو يعيشوا مثله. ولهذا فإن بعض الباحثين يؤكد على أن الرغبة في إعادة التنظيم الاجتماعي – جذرياً – يختلف بين الكلوشار والفاغابون، فهذه الرغبة لا توجد عند الكلوشار، بينما تكون عند الفاغابون حيوية وفعالة.

"تشرد" الكلوشار قد لا يتعدى حيز مدينة واحدة.. من حي إلى حي.. ومن شارع إلى شارع.. فهو يحاول الابتعاد عن حيّه الذي يعيش فيه حين تصبح الشخصيات التي يراها كل يوم عائلية بالنسبة إليه.

وحين تصير العادات رتيبة.. أما تشرد الفاغابون فهو أكثر اتساعاً. لا يفضل الإقامة في مدينة واحدة، فهو دائم الترحال من مدينة إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد. ليس له موطن معين، ولا مدينة معينة. ولكن بعض الباحثين المتتبعين لهاتين الحركتين يرون أن التمييز هنا يكون ضعيفاً ودقيقاً أحياناً، فهم يعترفون بأنه ليس نادراً أن يرتحل الكلوشار، أو أن يقيم الفاغابون.

"التشرد" في العمل أيضاً.. فالفاغابون ليس له عمل معين، حين يعمل، فهو يغير ويبدل عمله دائماً. أما الكلوشار فهو عادة "متخصص" وليس من المهم لديه أن يغير عمله، بل يمارسه بجدية وباستمرارية، وهذا ما يجعله – نادراً – عديم الدخل، فلديه إلى حد ما ميزانية حياة، وهو غالباً قادر على ضمان استمرارية مصادره. لديه في أكثر الأحيان سكن محدد يعتبر قانونياً ضماناً لإقامة دائمة، قد يكون "خلوة" صغيرة في إحدى البيوت القديمة.. أو قد يكون زاوية في إحدى خرائب باريس، أو تحت جسر من جسور السين.. فهذا مكان لايخلو منهم أبداً.

ويلاحظ أن الكلوشار على الرغم من أن حياته تعرف – اجتماعياً – بالتشرد والعصيان وعدم الانضباط، إلا أنها تتميز بأنها منتظمة من حيث كونها حياة تخصه.. فهو يتميز فيها بنوع من العادات القسرية والجبرية التي تكون أكثر شدة من عادات الإنسان العادي المنتظم في مجتمعه.. ولكنها على أي حال عادات شاذة مبتذلة في أكثر الأحيان..

هذان منعطفان من منعطفات عدم التكيف الاجتماعي..

سيكثرون.. فقد نشرتهم جسور نهر السين وأزقة الحي اللاتيني وأرصفته إلى كل أنحاء باريس.. وستنشرهم إلى كل أنحاء العالم كذلك.. إذ يولد في هذه المدينة كل يوم "فلاش" حضاري أو مدني جديد يترك انعكاسات سلبية أو إيجابية على نفسية الإنسان المعاصر وعلى أوضاعه الاجتماعية اليومية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة..

تحدث يوماً أحد الكلوشار فقال:

الكلوشار الحقيقي، وكثير من الفاغابون، لايمكن استعادتهم.. لا يمكن إعادة تنظيمهم اجتماعياً. سأعطيك أمثلة كثيرة وحيّة إن شئت: تستطيع أن تجري وراء كلوشار لإعادة تنظيمه اجتماعياً.. ألبسه.. أشبعه.. أعطه سكناً.. سترى إن كان سيمكث في هذه الظروف طويلاً.. إنه "بوهيمي" حقيقي، يتلاشى منذ أن يشعر بأنه في وضع طاعة ورضوخ لنظام اجتماعي معين، إنه في مثل هذه الظروف لم يعد يملك حريته. بالنسبة لي فقد نجحت في عدم الاستسلام، وكان ذلك بفضل امرأة قابلتها منذ حوالي أربع سنوات، وهي رفيقتي في الحياة حتى الآن. صارعت وعملت في عدة مهن عرفت أياماً مظلمة ويائسة، وأضعت طفلي وعمره ثلاثة عشر شهراً من أجل أن أصل إلى هذا "اللوكس": غرفة وحيدة (3×3م) مع طفل عمره ثلاث سنوات وآخر سنستقبله قريباً. أعمل منذ سنتين في شركة تأمين، أفرز دوسيهات إنه عمل غبي جداً، أنا راض عنه لأنه كذلك.. لا أعرف الهدف منه. أعرف فقط أنني في النصف الأخير من الشهر أموت من الجوع.. وأدخن أعقاب السجائر

الملقاة على الأرض.. وأنام مبكراً لأنني لا أملك من النقود ما يخرجني من غرفتي مساء!

*****

في بداية إقامتي في فرنسا قضيت عاماً ونصف العام تقريباً وأنا أعيش بين باريس، مدينة الجنون والعقل والليالي المترعة بالحدّة وباللهب، ومدينة "بوردو" مدينة القديم والجديد، والمشهورة في العالم بصناعتها المتفوقة في "النبيذ"، سكنت لمدة تسعة شهور جارتها الصغيرة "رويان" مدينة الصيف والبلاج والشمس الشحيحة.. قضيت عاماً ونصف موزعاً بين هذه المدن الثلاث بحكم ظروف دراسية أصارعها بالليل وبالنهار، وأنا لا أعلم حتى الآن هل هي التي ستصرعني؟ أو أنني أنا الذي سأصرعها..

في صباح كل يوم يظهر عليَّ في باريس أتساءل: هل مايزال الناس في كل أنحاء الدنيا يعتقدون أن النهار هو نهار لندن وأن الليل هو ليل باريس؟ ثم أقول في نفسي: أحسب أن عليهم أن يعلموا أن هذه العبارة ليست دقيقة، فالليل هو ليل باريس.. والنهار هو نهار باريس أيضاً..

أقول هذا لأنني أعرف أن باريس هي أكثر من باريس واحدة.. هناك باريس الحي اللاتيني.. وهناك باريس الشانزليزيه.. وهناك باريس مون مارتر.. وهناك باريس سان دوني.. وهناك باريس بيغال.. إلخ.. هناك أكثر من باريس واحدة.. بمعنى أن هناك أكثر من وجه لهذه المدينة.. وهي وجوه محتشدة بالليل، ومحتشدة بالنهار، بل إنها تئن من الضجر بالناس.

باريس مدينة لا تنام بالليل، وهي تشتغل بجد واجتهاد بالنهار.. وكل وجوهها دائماً مشتعلة بالناس، وأكثر هذه الوجوه اشتعالاً هو الحي اللاتيني.

هذا الحي رواده لا يحملون "ساعات".. ربما أنهم يتركونها في منازلهم قبل أن يخرجوا إليه، أو أنهم يدعونها في بلادهم (إن كانوا أجانب) قبل أن يفدوا إليه.. دائماً أجده محشوراً بناس الليل.. وبناس النهار.. لا ترتفع فيه قدم إلا لتحل محلها أقدام.. ولا ينفض عن جبينه إعياء إلا ليتولد في مكانه طاقات من النشاط والحيوية والحركة.

جعلت أكتب هذه الأشياء في "دوروغستور" في الحي اللاتيني.. دخلت إليه انفض على أحد كراسيه عناء

يوم كامل فيه من "المماحكة" والنقاش الحاد.. والصمت على المغيض.. ما جعلني أطلب الله "العافية".. والـ"دوروغتسور" هو، في وقت واحد، مقهى ومطعم ومكتبه وصيدلية ونوفتيه وبقالة ومحل لبيع السجائر.. والموسيقى.. أظن أن أصله إنجليزي.. فاحتفظ بالاسم الإنجليزي هنا في باريس، فحتى قوائم الطعام والمشروبات فيه تحمل أسماءها الإنجليزية. ميزته أنه لا يقفل أبوابه إلا بعد منتصف الليل بينما المحلات التجارية عموماً، عدا المقاهي والمطاعم ودور السينما والملاهي، تتوقف عن العمل بين السابعة مساء، ولهذا فكل الذين تنقصهم بعض الضروريات، مساء في وقت توقف المحلات التجارية عن العمل، يستطيعون حتى منتصف الليل أن يجدوها في الـ"دوروغستور".

هذا الـ"دوروغستور" يفتح شرفاته على ساحة "أوديون" وهي إحدى الساحات الكبيرة في الحي، وما أراه الآن وفي كل لحظة من "الزنقه" ومن الأجساد المتطاحنه يلح علي بأن أقول لكم بأن هذه الأرض، كما قد أتوهم أحياناً، لا تنبت إلا بشراً..

"أوديون" التي تمتلئ أمامي بالناس وبعجلات

السيارات كانت قبل العام 1807م تُدعى: "ساحة المسرح الفرنسي" لأنها في العام 1782م (منذ أكثر من قرنين) حظيت بافتتاح المسرح الفرنسي الشهير الذي قدم له بومارشيه "زواج فيغارو" وهو أيضاً المسرح الذي دارت على خشبته روائع أخرى من فنون المسرح الفرنسي والعالمي.. ثم سمي هذا المسرح العام 1793م "مسرح الأمم" ثم التهمته النيران في العام 1799م ليعيد بناءه المهندس الشهير شالغران وهو المهندس الذي صمم في بداية القرن التاسع عشر قوس النصر الذي يقع على رأس الشارع الشهير الشانزليزيه من جديد.. وفي ذكرى أوديون داتن أصبح اسم الساحة ساحة أوديون.. ساحة مسرح.. وساحة فن.. كانت البيوتات الكبيرة في باريس تتوافد إليها مساءً لتشاهد آخر ما كتبه أبناء حي الفن والفكر.. الحي اللاتيني.

تركت أوديون بعد طابور من النظرات الضجرة التي كانت تقف في ممرات الدوروغستور تنتظر المكان الذي سيخلو لتحتله. تركت أوديون أطلب النجاة من "زكام" الشارع الدوروغستور. وفي أضواء الشارع الممتد، وفي ضوضاء الرصيف العامر بكل شيء، أخذت أبحث عن

الطريق إلى "مونبرناس".. إحدى المناطق الحية على ضفاف الحي اللاتيني.. أريد أن أختم بقية المشوار هناك.

وقبل أن أصل إلى "مونبرناس" عبرت شارع "نتردام شان" فقالوا لي إنْ فيكتور هوغو الشاعر والروائي العالمي، صاحب "أحدب نتردام" وصاحب العمل الخالد "البؤساء"، كان (في القرن التاسع عشر) يرسل من إحدى نوافذ بناياته عيونه إلى الناس يقرأ في وجوههم روايات وقصصاً ومسرحيات.. يكتبها لهم وللعالم في الحقيقة الرومانسية، من الأدب العالمي، وكان يقول: ألبست الأدب الفرنسي القبعة الحمراء قبعة الجمال وهو كان يقول عن طفولته: "قضيت طفولتي مشدوداً إلى الكتب".. من هذا الشارع كان يطلق فيكتور هوغر تمرده على الأوضاع القائمة منحازاً - مؤخراً - إلى الضعفاء والمشردين، يُمثّل بذلك نموذجاً للاشتراكي الذي سيجيء، فيما بعد، أي في القرن العشرين.

وقالوا أيضاً إنّ روس بونير كان يسكن ويعيش كذلك في هذا الشارع (نتردام شان).. فحنيت عنقي قبل اجتيازه مرتين.. تحية للبناية رقم "11" حيث كان يسكن فيكتور هوجو.. وللبناية رقم (60) حيث كان

يسكن روس بونير ثم عبرت أحث الخطى في طلب مونبرناس.

قبل أن أصل إلى الشارع الكبير كنت قد سمعت وقرأت بأن وادجار كينيه وسانت بوف (أوجستان) هما من رواد مونبرناس وهو صديق فيكتور هوغو، وقد كتب العديد من الدراسات في تاريخ النقد الأدبي، كما أن له ديوان شعر لم يجد النجاح اللازم، ولكن حالفه التوفيق فيما كتب عن شاتو بريان، وهو انتخب في الأكاديمية الفرنسية في العام 1844م وانضم إليهما، طبعاً مؤخراً، جون بول سارتر، وكانوا ضيوف مونبرناس الذين لايقطعون الصلة بأحد المقاهي العامرة بالفن وبالفكر فيه.. كنت أسأل نفسي: لو كانوا موجودين الآن.. ولو قابلتهم صدفة هل أستطيع أن أعرفهم بين هذه السحنات ذات المبسم الواحد؟. هل أستطيع أن أعرف المقهى الذي يرتادون بصورهم أجدها معلقة على الحائط.. أم بلوحة دعائية للمقهى يعلقها صاحبه على باب الدخول؟.. لو كانوا موجودين هنا هل أستطيع أن أقذف بنفسي على إحدى الطاولات القريبة منهم أسمع ما يقولون فاستغنى بذلك عن ازدحام المقاعد الخشبية الجافة في إحدى

صالات جامعة السوربون؟. كنت أسأل نفسي هذه الأسئلة وغيرها.. ثم أحلم.. أقطع الطريق بالحلم لأصل عاجلاً.. إلى مونبرناس..

وفي بداية هذا الشارع الكبير وجدتهم يكتبون بأنه افتتح في عام 1660م (أي قبل حوالي أربعة قرون) وهنا بدأت أتذكر ما سمعت عن شارع مونبرناس والحي الذي تسمى باسمه من معلومات.. يقولون إنه يمر على هضبة مونبرناس حيث كان ناشئة الفكر والأدب يجتمعون للنقاش والحوار والجدال الذي لا يتعب.. يجتمعون لعرض نتاجهم الروائي والشعري.. وهم هنا لايزالون يتحدثون أيضاً عن الليالي الأدبية في مقهى "كلوسري دي ليلا" حيث كان أمير الشعراء بولفور ودائرته من المعجبين يقضون ساعات متخمة بالعقل الناهد فيما قبل الحرب.

المدرسة البرناسية في الشعر إنما ولدت في مونبرناس، والسوريالية أيضاً (في الرسم وفي الشعر) ولدت هي الأخرى في مونبرناس، كان هنا أندريه بروتون، ولوي أراغون زعيما السوريالية، وكان هنا أيضاً سلفادور

دالي الذي تمرد، بتصرفاته المجنونة على المجموعة فأصدروا بياناً بطرده من السوريالية، لكنه عاد إليهم بتساؤل أوقف الدم في عروقهم، لقد قال لهم: تطردوني من السوريالية؟! السوريالية أنا!.. وهو كان كذلك بالفعل!.. لم يكن بمواهب مواطنه باولو بيكاسو لكنه لا يقل عنه!.. أنا شخصياً أجدني أكثر ميلاً إليه ربما لأني أحب المجانين.. أي الناس الذين بنصف عقل، ولكن بوجدان كامل!

نعم! لم يكن الأدب والشعر هما فقط كل ما يعرف به مونبرناس.. لقد كانت ضفتاه تضيقان بلوحات الرواد في الرسم وبتماثيل المبدعين في النحت.

كل مقاهي مونبرناس كانت منتديات للفنانين والكتاب.. ولاسيما مقهى "الكوبول" ومقهى "الدوم" ولايزال الباريسيون الشيوخ يقصون على أبنائهم ليالي هذه المقاهي (وهي مازالت قائمة حتى الآن) ومقهى "مونبرناس" الأخرى.. مقهى "لابوات أكوكير". ومقهى "لاروتوند" ومقهى "لوبتي نابولتين".

"الكاميليون" كانت يوماً الأكاديمية الأدبية الأكثر

إثارة للدهشة في مونبرناس.. الكسندر ميرسير كان يجتمع هنا كل أيام الأسبوع مع جماعته من اللامعين.. ثم انتقلت الكاميليون إلى شارع "راسباي" بالقرب من شارع مونبرناس، فأخذت هناك تجري وراء الآداب الأجنبية.. والفنون.. والتاريخ.. والفلكلور.. والشعر.. والموسيقى .. والمشاكل الاستعمارية.. والكتب القيمة والحديثة الصدور.

وبعد استدارة طويلة في مونبرناس كان في عيني يتصاعد قذى الساعات الأولى من ليله.. ليل السياحة.. ليل الناس الذين هدّهم التعب فجاءوا ينشدون الترفيه والراحة.. أو هم الناس الذين عطلوا عن العمل فجاءوا يبحثون عما يملأ لهم ساعات الفراغ.. كانوا يتزاحمون على أبواب السينما.. سينما القصة.. وسينما التاريخ.. كانوا يتزاحمون على أبواب الملاهي يبحثون عما يشغل ليلهم.. كلهم هنا في مونبرناس يبحثون عن التعب لأنهم شبعوا راحة.. وكلهم أيضاً يبحثون عن الراحة لأنهم شبعوا تعباً..

فوراً.. انتشلت أقدامي إلى البيت أراجع "حسابي" مع الأوراق التي حشوت بها الحقيبة من "المدرج" والمكتبة..

هذا الحي اللاتيني قصة أخرى، الذين يأتون إلى باريس للسياحة لا يرون فيه إلاّ ما هو آني وسطحي، وهم لا يرون فيه الأكثر ثراء وبهجة، وأعني هذا التاريخ.. وهذا الإيحاء الذي يهطل على مرتادي الحي من كل الجوانب، ومن كل الأمكنة، ومن كل الوجوه.

هذا الحي قصة أخرى لابد أن تذهب فيها إلى أبعد مما تراه أو تشاهده العين المجردة!.. إلى هناك حيث الروح الوارفة الظليلة، وحيث الإلهام!..

كل شيء في الحي اللاتيني هو أبعد مما تتوخاه، وقد عشت فيه سنوات.. حوالي ست سنوات، في شارع "كوجاس" لا يفصلني عن جدار السوربون الخارجي سوى عشرة أمتار، وعشت في ساحة (موبيرمتواليتي) لايفصلني عن (الكلوشار) والحزب الشيوعي وصحيفة "لومانبتي" سوى خمسين متراً، وعشت في شارع

"لامونتاني سانت جنفييف" الذي لا يفصله عن ساحة موفوتار والفنان الأغريقي جورج موشاكي سوى "شيلة وحطة" لاتتجاوز الخمسين متراً أيضاً.. كنت في قلب المعمعة.. على حافة السيف، وفوق شفير جهنم.

وفي الغدو.. والرواح.. هذه هي مبنى "البانتيون" أو مقبرة الخالدين التي تنتصب في كبرياء أمام حدائق لوكسبمورغ ذلك المبنى الذي ينعم رفات العظماء، وقد تم بناؤه ليكون كنيسة للقديس "جنفييف". وصممه (في القرن الثامن عشر) جاك جيرمان ليجمع بين خفة وسطوع الكاتدرائية القوطية، مع المبادئ الكلاسيكية.. وقد ضمت قائمة العظماء المدفونين في البانتيون: جان جاك روسو، وألكسندر دوماس الأب، وفيكتور هوغو، ولوي باستنور، واندريه مالرو، ولازار كارنو (عالم الرياضيات) ومارسيلان بيرتيلو (أعظم الكميائيين على مدى التاريخ) وإميل زولا، وبول لانجفان (عالم فيزياء)، وماري كوري (المرأة الوحيدة المدفونة فيه حتى الآن).

وفي هذا الزخم الحضاري والثقافي والتاريخي قضيت

سنوات من عمري بين ساحة مومبير، وشارع كوجاس، وشارع جبل سانت جنفييف حيث يقبع فوق قمته مبنى البانتيون، مقبرة الخالدين!

الكومندوز

المبنى طابقان: دور أرضي، ودور أول. وتحيط بالمبنى حديقة وسياج حديدي من جهتيه الشرقية والشمالية. باب الدخول يفتح على شارع صغير غير نافذ اسمه "اندريه باسكال" في الحي السادس عشر في باريس.. حي هادئ.. ونظيف.. وبعيد عن صخب باريس وضوضاء المرور.. سكان هذا الحي محسوبون على الأثرياء الباحثين عن الراحة والهدوء.. أمام المبنى قصر "لامويت" حيث تقع منظمة التجارة والتنمية الاقتصادية، وعن يمين المبنى المنظمة نفسها أيضاً.. وعن يساره حديقة.. ومن خلفه منزل معالي الشيخ محمد علي رضا سفيرنا في باريس آنذاك، المبنى يطل أيضاً على شارع "الفريد لاوهادنك"..

يبدو المبنى متواضعاً بين المباني الأخرى المحيطة به.. وفي الدور الأرضي منه يوجد مكتب السفير، والسكرتير الأول للسفارة، محمد عبدالقادر علاقي آنذاك.. ومكتب القنصل السعودي، سعد ناظر، وبقية مكاتب السفارة الأخرى.. ومن السلم الملتوي في الركن الشمالي الشرقي للسفارة، نصعد إلى الدور الأول للمبنى حيث مكتب القنصلية على اليمين، ثم باب وسطي خلفه، على اليسار، مكتب الملحق الثقافي في باريس، وعلى اليسار مكتب مترجم المكتب، ثم سكرتيرة الملحق. وفي مواجهة الداخل مكتب مساعد الملحق الثقافي.

الساعة كانت التاسعة والنصف من صباح يوم الأربعاء الخامس من سبتمبر 1973م.. وهذا "حسني" موظف الاستعلامات على باب السفارة الحديدي الأسود يخرج لقضاء حاجة.. ثلاثة شباب عرب يمرون بجانبه.. كان في ملامحهم بعض خجل، أو لعله ضياع الغربة.. هكذا ظن حسني موظف الاستعلامات.. ومنذ لحظات كان قد دخل إلى المبنى قبلهم اثنان.. يسألهم حسني:

- إلى أين؟

- نريد فيزا.

يقول لهم وهو يدير وجهه إلى الخارج:

- انتظروا في صالة الانتظار.. الصالة التي أمامكم..

كانت كلمته المعادة التي يقولها لكل مراجعي السفارة الذين يحضرون إلى هنا من أجل الحصول على فيزا.

فجأة يقفل باب السفارة.. زجاج يتحطم.. أبواب تتكسر.. وطلقات نارية تتوالى، كل من في المكاتب لا يفهمون معنى هذه الضوضاء.. ربما مشاجرة.. ربما مجنون، أو سكران، دخل إلى السفارة.. خرجوا كلهم إلى الصالة التي تتوسط الغرف، ليتلقفهم شبان ثلاثة، في يد كل منهم مسدس، وفي اليد الأخرى قنبلة يدوية.. الرعب يسري بسرعة في قلوب الرجال "العزل" من السلاح، الذين وجدوا أنفسهم أمام آخرين في أيديهم النار والهلاك المحقق!

وتحت صيحاتهم المتوالية:

- لا تتحرك!. مكانك!. ارفع يديك إلى أعلى. أخذ الموقف يزداد غموضاً، وكل هؤلاء "العزل" من السلاح، لا يفهمون من هذه "الغارة" المفاجئة شيئاً..

رفعوا أيديهم إلى أعلى، ولم يتحركوا.

في الطابق الأول كان يدور المشهد نفسه من المسرحية: شاب رابع في حوالي الثامنة عشرة من عمره، في إحدى يديه قنبلة، وفي الأخرى مسدس مشحون بالرصاص، تتوالى طلقاته في كل اتجاه.. يقول محمد السوداني:

- كنت أظنهم يهوداً هاجموا سفارة عربية مسلمة، فبسملت وحوقلت بصوت مرتفع.. فالتفت إلى هذا المسلح وهو يقول:

- مسلمون لصالح المسلمين..

يقول السوداني:

- بعدها لم أعد أفهم شيئاً؛

هذا عبدالله الطويل الملحق الثقافي، يتهاوى على الأرض، في صالة الدور الأول، جراء إصابته في إحدى ساقيه.. كان مجتمعاً في مكتبه مع مساعده أحمد الصالح عندما سمعا ضوضاء وطلقات نارية، خرجا من المكتب إلى الصالة. وكما هي عادة أحمد الصالح، الذي يفوح أدباً وأريحية، ترك الباب لرئيسه.. يقدمه في الخروج..

فخرج هذا الأخير لتستقبل ساقه إحدى الرصاصات الطائشة!.

الشريف جعفر (المترجم) كان في مكتبه والسكرتيرة غير موجودة اليوم.. كان جعفر، منذ وصوله هذا الصباح إلى المكتب، غارقاً في عمله وعمل السكرتيرة.. لم يكترث لهذه الضوضاء في أول الأمر، ولكن عندما أخذت تزداد أواراً بالقرب من مكتبه، الذي يقابل مكتب رئيسه الملحق الثقافي، أطلّ من باب الغرفة ليكون في مواجهة الشاب المسلح الذي كان يرعد ويزبد.. أدخل رأسه سريعاً إلى الغرفة.. لم يفهم شيئاً هو الآخر.. ولم يحاول أن يفهم شيئاً.. لم يكن عنده الوقت الكافي لمحاولة أن يفهم شيئاً.. حتى أنه لم يكن ليعرف أن هذه "الغارة" عربية بامتياز!.. مكتب الشريف جعفر له واجهتان: واجهة تطل على الحديقة، والأخرى على مدخل السفارة.. ترك كل شيء ليقفز من النافذة المطلة على مدخل السفارة.. ربما على ارتفاع ثمانية أمتار.. وصل إلى الأرض، وهرب بآلامه، وببعض الكسور التي طالت بعض اعضائه.. التجأ

إلى منظمة التجارة والتنمية المقابلة يخبرهم بالحادث؛ ليتصلوا بدورهم بالبوليس.. وليجد جعفر نفسه أخيراً على سرير أبيض في مستشفى (أمبرواز – باريه) مصاباً بآلام مبرحة في العمود الفقري.. كل هذا الشريط السريع من الأحداث، فسرته له – بعدئذ – الإذاعات الفرنسية، التي أخذت تقطع برامجها بين فترة وأخرى، لتوالي نشر تطورات الموقف في السفارة السعودية في باريس.. عرف أن الغزاة عرب.. وأنهم يهاجمون سفارة عربية.. تحت ستار قضية عربية.. يهاجمون سفارة أقوى البلدان العربية مناصرة لهذه القضية، وهو أيضاً من أكثرها سخاءً عليها.. عرف أنهم ينتسبون إلى منظمة فلسطينية تدعى بـ "العقاب" وأنهم يطلبون إطلاق سراح "أبو داوود" أحد الزعماء الفدائيين المسجونين في الأردن.

موظفو السفارة الذين شاء لهم قدرهم أن يتواجدوا في السفارة قبل دخول الإرهابيين اقتيدوا إلى صالة الدور الأول.

- وجوهكم إلى الجدار.. وأيديكم تبقى مرفوعة،

كان هذا هو أول "أمر" مشفوعاً بالنار يتلقاه أعضاء السفارة، كان عددهم ثلاثة عشر، من بينهم أربع نساء.

رجل واحد فقط لم يكن في استطاعته أن يقف ووجهه إلى الجدار، رافعاً يديه إلى أعلى، لأنه مصاب في إحدى ساقيه، والدم ينزف بغزارة. فتركوه على أرض الممر، فهو لم يعد يشكل خطراً عليهم. وعلى هذه الحال ظل منسوبو السفارة مشدودين إلى الجدار، وأيديهم إلى أعلى أكثر من ساعة ونصف، بينما كان أعضاء الكومندوز يقفلون كل نوافذ المبنى وأبوابه، ليعودوا بعد هذا إلى "الرهائن" يربطون أيديهم بكرافتاتهم إلى الخلف بعد أن أجلسوهم على الكراسي المتواجدة في الصالة.. ثم أخذوا يشرحون لهم أهداف "الغارة" ومبرراتها، ويقولون لهم بأن حياتهم مرهونة بحياتهم، وبإطلاق سراح "أبو داوود" وبتواجد طائرة في إحدى مطارات باريس تحت طلبهم.

لم يدخلوا الرهائن إلى الغرفة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار تقريباً إلا بعد الساعة السادسة مساءً.

هذا شارع اندريه باسكال يغص الآن بقوات البوليس الفرنسي، وهناك قوات بوليس أخرى كانت تحرس منزل السفير الملاصق لمبنى السفارة من الخلف.. وهؤلاء هم السفراء العرب يتوافدون إلى منزل السفير الذي لم يكن بين الرهائن.. يعقدون اجتماعات.. يتشاورون، وأرواح الرهائن على فوهات مسدسات الكومندوز.. الدبلوماسيون العرب الذين شاركوا في هذه الاجتماعات والمفاوضات من بينهم: سفراء الكويت، سوريا، ليبيا، العراق، والقائم بالأعمال المصري، والقائم بالأعمال الجزائري، والقائم بالأعمال التونسي، والقائم بالأعمال اللبناني.

في الساعة السابعة مساءً صوت من داخل السفارة:

- أبعدوا الناس من حول المبنى.. سنفجره بمن فيه..

بدأ البوليس يبعد الناس، والصحفيين والمصورين، ولم يترك منهم مع رجال الأمن سوى صحفية مصرية، وصحفي عراقي، ورئيس القسم العربي في جريدة اللوموند آنذاك إريك رولو المعروف.. تجمد الدم في

عروقنا، عندما رأينا أحد الرهائن يسقط من النافذة.. كنا نظنهم قتلوه، لولا أنهم صاحوا من الداخل بأنه هو الذي قذف بنفسه من النافذة.. كان هذا صحيحاً.. اسمه "عرفان" مصري الجنسية، مترجم السفارة. وقد كسر كتفه، وحدثت له رضوض أخرى.

السفير الكويتي هو الذي كان يأخذ بزمام المفاوضات مع الكومندوز.. قال لهم:

- أيها الإخوان بحق القضية العربية التي جئتم من أجلها، أخرجوا حالاً من المبنى، لقد أعطيتم الدليل الواضح على شجاعتكم النادرة وهذا يكفي.. أطلقوا سراح الرهائن.

صوت من الداخل:

- غير موافقين.. الفرنسيون إخواننا، وليس لدينا ضدهم أي شيء إن تركونا نغادر الأراضي الفرنسية بالرهائن.

قال مفوض الأمن الفرنسي:

قولوا لهم إن موقف حكومتي واضح.. أنا لن أهاجمهم في السفارة السعودية، لأن هذا ليس من حقنا..

فالسفارة السعودية هي قطعة من الأراضي السعودية، ولكن الشارع الذي أمامها لنا، وهو من الأراضي الفرنسية، ولن أوافق على ترك رجال مسلحين يقودون معهم رهائن في قلب باريس، للخروج بهم إلى خارج فرنسا.. فليتركوا الرهائن والسلاح، ثم يخرجون بحرية كاملة، وليذهبوا إلى حيث يشاؤون.

كان الشارع في أكثر الأحيان يخلو من السفراء العرب، الذين يوالون اجتماعاتهم في منزل السفير السعودي.. هم كانوا على اتصالات مستمرة مع زعماء دولهم. ووزراء الخارجية.

صوت من الداخل:

سنطلق سراح الرهائن من النساء الفرنسيات على شرط أن نرحل حالاً بالرهائن العرب.

الجواب الفرنسي: لا نوافق أبداً على أن يغادروا الأراضي الفرنسية بأي رهينة من أي جنسية.

السفير العراقي:

- سأقدم لكم نفسي عوضاً عن الرهائن الفرنسيات، وعن الجريح السعودي؛ هل تطلقون سراحهم؟

صوت من الداخل:

- موافقون.. انتظر حتى نطلب منك ذلك.

رجل طويل القامة.. نحيل، تتخلل شعر رأسه شعرات بيضاء تزيد في وقاره الذي يلقي مسحة من الهدوء والرزانة على وجهه الذي لا تنضب منه ابتسامته أبداً.. هذا هو السفير العراقي نعمة النعمة، تقدمت إليه أسأله:

- سعادة السفير.. ما هي الأشياء التي دفعتك إلى تقديم نفسك للموت؟!

قال وهو يبتسم:

- المحافظة على سمعتنا العربية، فالفرنسيون الرهائن لا لهم ولا عليهم في القضايا العربية، فلماذا يبقون رهائن.. وربما كان في دخولي حقناً لدماء كل الأبرياء المحجوزين هنا.

قلت:

- ولكن يا سعادة السفير.. وأنت تدخل الآن أيهما أرجح لديك الموت أم الحياة؟

أجاب وهو يشعل سيجارته:

لم أفكر في موتي وحياتي الآن، أنا مشغول عن هذا بالتفكير في موت الأبرياء وحياتهم.

- أنت لست واثقاً من إطلاق سراحك؟

- إن أطلقوا سراحي وسراح الأبرياء، حسناً فعلوا.. وإن أخذوني معهم وأطلقونا جميعاً في بلاد عربية أخرى فهي رحلة مع أصدقائنا السعوديين إلى بلد عربي.. ربما أنني كنت مشتاقاً إلى زيارة ذلك البلد العربي من قبل ولم يتيسر لي ذلك حتى الآن.. وإن قتلوني، فسيموت معي حوالي أكثر من عشرة أشخاص.. وحياتي ليست بأثمن من حياتهم.

سألته:

أنت ستدخل الآن بصفتك المواطن نعمة النعمة أو بصفتك (وهذا هو اسمه)، السفير العراقي في باريس؟

قال:

الاثنان معاً.. أدخل بإرادتي الحرة غير مكره ولا مدفوع، ولم أستشر حكومتي في ذلك؛ لأنني أثق في رؤسائي، وهم يثقون فيّ، ولا أعتقد أنني سأقدم على عمل لا يرضيهم.

ثم قفل إجابته بالابتسامة العريضة نفسها التي لا تفارق محياه.. تراجعت عنه وأنا وكل من في الشارع من دبلوماسيين وصحفيين ورجال أمن فرنسيين تفعمنا الدهشة للفعل الذي سيقوم به هذا الرجل.

كل السفراء العرب الموجودين هنا كانوا يعيشون الأزمة بأحاسيسهم ومشاعرهم. وأكثرهم كان هنا باستمرار في اجتماعات متواصلة ومفاوضات لا تنقطع.

أصبح المختطفون شديدي التمسك بالرهائن الفرنسيات. وقالوا إن في ذلك حفظاً لحياتهم تجاه السلطات الفرنسية، ثم أعطوا موعداً نهائياً هو الثانية عشرة والنصف من ليل يوم الخميس، والخيار هو: إما الطائرة.. وإما نسف السفارة بمن فيها.. ولم يعد يتردد ذكر أبي داود في المفاوضات، لقد انحصرت المفاوضات في الطائرة ومغادرة الأراضي الفرنسية. كانت الساعة حينذاك العاشرة مساءً.

السفير الكويتي مخاطباً الكومندوز:

- ولكن استقدام أي طائرة من أي بلد عربي، أمر يستلزم ساعات أكثر من ساعات المهلة التي حددتموها!.

صوت من الداخل:

- تصرفوا كما تشاؤون سنباشر بتنفيذ القتل بانتهاء المهلة المحددة.

كان هناك أكثر من صعوبة: السلطات الفرنسية لن تسمح لهم بمغادرة الأراضي الفرنسية مع الرهائن. ثم إنه لا يوجد الآن في مطارات باريس طائرة عربية تنقلهم إلى حيث يريدون.. وحتى لو وجدت الطائرة فلا بد من الحصول على موافقة دولتها وجهاتها الرسمية أولاً، وهذا وحده سيأخذ وقتاً طويلاً. الحكومة الفرنسية رفضت أن تقدم لهم إحدى طائراتها، فقد كانت ترفض أساساً أن يغادروا الأراضي الفرنسية بالرهائن، ثم إن طاقم الطائرة سيكون من الفرنسيين، وهذا يعني أنها ستقدم للمختطفين "رهائن" إضافيين في حالة موافقتها على تقديم الطائرة، والسماح لهم بالرحيل.

كل هذه الصعوبات وغيرها كانت تقف في طريق السفراء العرب لحل المشكلة.

صوت من الداخل:

- بين الرهائن الجريح السعودي وحالته من سيء إلى أسوأ، وهناك آخر مريض بالقلب وحالته متردية..

لا داعي لإخراجهما لكم لأننا سننسف السفارة في هذه اللحظة: واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.

السفير العراقي: أنتم أبناء قضية، ونحن أبناء قضية، فلا تسيئوا إلى قضيتكم وقضيتنا، نحن بحاجة إليكم وبحاجة إلى كل الرهائن الذين معكم.. أرجئوا موعد تفجير السفارة، ولكن بدون تحديد ساعة معينة..

كان السفراء العرب في الساحة، في مشاورات ومفاوضات مع البوليس الفرنسي، من أجل السماح للفدائيين بمغادرة الأراضي الفرنسية مع الرهائن حقناً للدماء.

توصل الدبلوماسيون العرب إلى إقناع السلطات الفرنسية بترك الفدائيين يرحلون بالرهائن العرب، وقد ضمنوا ذلك باتفاقية مكتوبة وقعها ممثلو السلطات الفرنسية والدبلوماسيون العرب الموجودون هنا، عدا السفير السعودي؛ لأنه كان لا يريد أن يخرج على موقف حكومته من القضية، قال لي:

- أبلغت الحكومة الفرنسية بموقف حكومتي.. وهو أن هذه الأحداث تجري على أراض فرنسية، وأن للحكومة

الفرنسية أن تتصرف حيالها كما تشاء وعلى مسؤوليتها..

قلت له: ولكن يا معالي السفير، ألم توقع الإتفاقية المبرمة بين الدوبلوماسيين العرب والسلطات الفرنسية.

أجابني: أبلغني الدبلوماسيون العرب بأنهم اتفقوا مع السلطات الفرنسية على أن تسمح بخروج الفدائيين مسلحين مع رهائنهم.. ووعدتهم الحكومة الفرنسية بعدم التعرض لهم؛ ضماناً لسلامتهم.. أما أنا فلم أوقع الاتفاقية..

الاتفاقية استثنت النساء والفرنسيين الرجال إن وجدوا.. فلا يحق للفدائيين الخروج بغير الرهائن العرب.

في الساعة الثالثة وخمسين دقيقة، صوت من الداخل (أحد الرهائن):

- الإخوان نفذ صبرهم، والقنابل في أيديهم بعد أن نزعوا صمامات الأمان!.. وسيفجرون السفارة وسنموت.

السفير السوري:

- جاءتنا برقية من محمود رياض (أمين عام الجامعة العربية آنذاك) يقول بأن وزراء الخارجية العرب مازالوا مجتمعين، والنتيجة ستصلنا فوراً.

صوت آخر:

- حياتنا في خطر يا سعادة السفير نرجوكم أسرعوا.

لم ننم.. ولم ينم السفراء العرب.. ولم ينم البوليس الفرنسي، والأمور داخل السفارة بدت كأنها هادئة.. ولكن ساعة الصفر، كما كنا جميعاً نتوقعها، كانت معلنة لنا في الساعة السادسة وعشرين دقيقة، عندما سمعنا صوتاً من الداخل يقول:

- أقسم بالله وبدماء الشهداء أنني لأفجرن السفارة.. ولأبدأن عملية الإعدام بعد ساعة من الآن.. ساعتي هي السادسة وعشرين دقيقة.. أضبطوا ساعاتكم، على السابعة وعشرين دقيقة، أقسم بالله ثانية وبدماء الشهداء أنني سأنفذ عملية الإعدام، إن لم تحضر الطائرة قبل هذا الموعد المحدد.

صوت امرأة تبكي وتقول بالإنجليزية مخاطبة السفراء العرب:

- سنقتل بعد ساعة.. صدقوني بأننا هذه المرة سنقتل بعد ساعة.. ساعة واحدة فقط؟ هل تعرفون ما

هي ساعة واحدة فقط؟ اعملوا شيئاً نرجوكم، ثم استمرت تصيح وتبكي بصوت مرتفع.

حتى الآن لم يكن هناك طائرة معينة ستنقلهم.. تأزم الموقف.. وكنا جميعاً على ثقة تامة بأنهم سينتهون.. سيقتلون.. ولاسيما أن رئيس الكومندوز يخبرنا بعد كل خمس دقائق تقريباً بالوقت المتبقي على بدء تنفيذ القتل.. ثم يردف ذلك بأيمانه "المغلظة" بأنه سينفذ. كل السفراء العرب كانوا مشغولين على خطوط التليفون مع زعماء دولهم.. ومع وزراء الخارجية.. الحكومة الفرنسية أصدرت أوامرها إلى مراكز الهاتف، أن يكون "الخط" دائماً مفتوحاً بين باريس والجزائر حيث يتواجد وزراء الخارجية العرب في أحد اجتماعاتهم الدورية. واليأس وصل في النفوس إلى ذؤابته.. فالطائرة لم يعثر عليها إلى الآن.. وحتى لو عثر عليها.. فهي بالضرورة ستكون طائرة عربية.. وأي طائرة عربية ستغادر بلدها إلى باريس، حتى لو كان أقرب البلدان إلى فرنسا، سيستغرق وصولها أكثر من الوقت المحدد لبدء عملية الإعدام. الفرقة البوليسية الفرنسية (ضد الكومندوز) بدأت تتحفز. كل نشاطات البوليس الفرنسي بدأت تلتحم

وتأخذ أهبتها. وهذه هي الساعة الحرجة!.. كنا نثق في ذلك تماماً ولكن مع هذا فالدبلوماسيون العرب لم يتملكهم اليأس الكامل فقد بقيت لديهم بعض آمال!..

سفير الكويت فيصل بن صالح، بدأ نشاطاً جديداً هذه المرة، وهو محاولة استئجار طائرة من أي شركة خطوط أجنبية. اختفى من اجتماع السفراء العرب لمحاولة طرق هذا الباب الذي كنا يائسين من انفتاحه هو الآخر. كل من كان هنا يغلي كالمرجل، وتزداد درجة حرارته ارتفاعاً كلما تقدم مؤشر الساعة نحو السابعة وعشرين دقيقة. وصل هذا المؤشر النحس إلى السابعة وخمس عشرة دقيقة، والطائرة لم يعثر عليها بعد.. فبدأ الجميع يبحث عن حل غير حل الطائرة، فقد أصبح العثور على طائرة الآن أمراً ميؤساً منه. هناك طريق واحدة فقط، هي أن نقول للكومودوز: الطائرة وصلت، ونخرجهم من السفارة، حتى إذا وصلوا إلى المطار قلنا لهم الطائرة فيها "عطل" يستلزم إصلاحه أكثر من ساعة.. وبهذا يبقون في الأتوبيس، ويكون هذا دليلاً على إخلاص النية لهم، وبأننا فعلاً نريد أن يرحلوا بالرهائن.. ولكن هذه الفكرة وجدت معارضة شديدة.. إذ

لو وصل المختطفون بالرهائن إلى المطار.. واكتشفوا أن لا وجود للطائرة، فما من شك أنهم سيسيئون الفهم فيظنون أنها "خدعة".. وخطة لإيقاعهم في أيدي رجال الأمن.. وبهذا سيفجرون الأتوبيس فوراً بمن فيه قبل أن يقعوا في "الفخ" الموهوم.. إذن لا حل.. ولا طائرة.. ولا إعطاء مهلة جديدة؟.

كان رأس السكرتير الأول للسفارة محمد عبدالقادر علاقي يطل من النافذة.. وقنبلة يدوية عن يمينه والمسدس عن شماله إنه "الضحية" الأولى.

السفير العراقي:

- ولكن.. أعطونا مهلة واحدة فقط. وهي مهلة أخيرة.

صوت:

- مطلقاً..

ثم أخذ يخاطب الأستاذ العلاقي، ورأسه مايزال مطلاً من النافذة.. وهو مكتوف اليدين والرجلين..:

- ودّع.. ودّع.. سأنفذ فيك الإعدام، وبعدك مباشرة سأعدم أحد الرهائن الفرنسيين.. ودّع.. فهي السابعة وعشرين دقيقة.

بدأ الأستاذ العلاقي يودعنا نحن الذين في الشارع:

- يـــا أخواننـــا، أســـتودعكم اللـــه.. ســـامحونا.. أستودعكم الله..

تجمـد كـل مـن فـي الشـارع علـى صـوت رئـيس الكومندوز وهو يعد: واحد.. اثنين..

السـفير العراقـي يأخـذ الميكروفـون بسـرعة، وهـو يقول:

- يا أخي، هل ستقبل بسفير دولة "ضماناً" لطائرة؟

يردّ الكومندوز:

- ومن هو السفير؟

- أنا السفير العراقي.. سأدخل عليك، وإذا لم تأتِ الطائرة.. فاقتلني.. أنا أقبل بذلك.. فقط تعقّل الآن ولا ترتكب حماقة تودي بحياتك وحياة الأبرياء.

الكومندوز:

- أنـا أقبـل بـذلك، علـى أن يكـون معـك سـفير عربـي آخر..

- يا أخي، اتق الله.. تأخذ سفيرين عربيين ضماناً لطائرة.. ألا تعتقد أن سفيراً عربياً واحداً يكفي.. هل

قيمة الطائرة أكبر من قيمتي.. أنا عندك لا أساوي طائرة.. هذا محزن والله.. تعقّل يا أخي..

بدأ الجمهور الذي كان هنا من دبلوماسيين وبوليس وصحفيين يتبادلون التهاني والابتسامات العطشى المبحوحة.. ويبحثون عن "الريق" في سقوف حلوقهم، على أثر استجابة رئيس "العصابة" لقبول السفير العراقي "ضماناً" للطائرة..

الفدائي يخاطب السفير العراقي:

- تقدم إلى السياج الحديدي.

ثم تقدم السفير..

الكومندوز مرة أخرى:

- ارفع يديك ثم أقسم أن مجيئك ليس فيه خدعة لنا، وإنك مخلص النية، ولا تضمر لنا شيئاً، وأنك حين تدخل لن تتكلم أبداً إلاّ بعد أن نأذن لك بالكلام!.. ولا تناقشنا.. ولا تسألنا عن أسمائنا.. ولا عن أي معلومات..

أقسم السفير بأنه لن يفعل إلا ما يرضيهم.. ثم وقف لحظة حتى فتحوا له باب المبنى.. فدخل إلى السفارة

ومعه قطعة من قلب كل من كان هنا من الموجودين.. فرنسيين وأجانب وعرب.

صوت السفير العراقي من الداخل: إخواني.. أنا دخلت هنا بمحض إرادتي.. وقد استقبلني الإخوان هنا بكل ترحاب.. وجدت الرهائن - الفرنسيين والعرب - بصحة جيدة، كما تكرم الإخوان المختطفون وسمحوا للرهينة الجريح بالخروج.. وهو سوف يخرج لكم الآن..

إلى تلك اللحظة لم نكن نعرف من هو الجريح، ولا مكان إصابته، حتى إذا أطل الجريح من الباب، عرفنا أنه عبدالله الطويل الملحق الثقافي، والإصابة كانت في ساقه اليمنى.. حملوه من عند الباب إلى المستشفى مباشرة!

السفير العراقي يطل من النافذة في الساعة الثامنة وخمس وخمسين دقيقة.. معلناً أن الفدائيين حددوا المهلة الأخيرة وهي الساعة العاشرة.. وإن لم تأتِ الطائرة فلا قبول لأي مفاوضات، وسينفذون حكم الإعدام في الموجودين بمن فيهم السفير العراقي نفسه.. بمعنى أنه يبقى على موعد المجزرة ساعة وخمس دقائق فقط.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا خمس دقائق فقط، والمشكلة كما هي، فالطائرة لم تعرف، ولم تحدد هويتها بعد، والمختطفون سينسفون السفارة بمن فيها خلال خمس دقائق. بدأ الموقف يتأزم من جديد.. وأخذت الأعصاب تزداد توتراً.. أما اليأس فقد بلغ من الجميع مبلغه.

الساعة العاشرة إلا دقيقتين، السفير السوري مطلوب على التليفون، مكالمة مهمة جداً ومستعجلة.. دخلت مع السفير السوري إلى منزل السفير السعودي، أريد أن أعرف خبر هذه المكالمة.. عرفت أنها من رئيس الجمهورية السورية، حافظ الأسد، وأنها بخصوص طائرة.. ذهبت راكضاً إلى كمال الأحول، (أحد أعضاء الوفد الكويتي في منظمة اليونيسكو بباريس) الذي كان دائماً على ميكروفون المفاوضات.. قلت له:

- أخبر المختطفين بأن هناك رسالة مهمة لهم من الرئيس حافظ الأسد.

فنقل إليهم كمال الأحول الرسالة بالميكروفون، فجاء الجواب هكذا:

- يبقى دقيقة واحدة فقط وننفذ.. ولا مجال الآن للمفاوضات.. فقد انتهى الوقت.

السفير السوري يجري إلى الميكروفون، ويقول:

- يا أخ، لا تطلق النار قبل أن تسمع هذه الرسالة، الرسالة: أنا أحمد عبدالكريم، سفير الجمهورية العربية السورية في باريس.. باسم الجمهورية السورية، أنقل لكم عن فخامة الرئيس حافظ الأسد أنه قد أمر بأن تكون إحدى طائرات الخطوط السورية تحت طلبكم.. تذهبون بها حيثما تشاؤون.

صوت من الداخل:

- أنا لا أصدق، فمنذ يوم أمس، ونحن من موعد لآخر.. سأبدأ التنفيذ.

السفير السوري:

- يا أخي.. أنت لا تستحي!.. أنا سفير دولة، وأنقل لك كلاماً على لسان رئيس الدولة أمام الملأ.. ثم تقول بأنك لا تصدق.. هل من المعقول أن أتقوّل على لسان رئيس جمهورية، فأقول على الملأ ما لم يقله؟!.

الكومندوز:

- حسناً سأثق بكلامك وكلام رئيس الجمهورية ولكن متى ستأتي الطائرة؟

- أول طائرة من طائرات الخطوط الجوية السورية الوافدة إلى باريس اليوم ستكون تحت أمركم..

- ومتى ستصل أول طائرة؟

- أول طائرة ستصل في حوالي الثانية عشرة والنصف.. وهي تحمل ركاباً، وستساعدنا الحكومة الفرنسية بتهيئة إحدى طائراتها "أير فرانس" لتكملة رحلة الطائرة السورية وحمل ركابها إلى وجهتها.

- الثانية عشرة والنصف؟ هذا بعيد..

- ماذا تريد أن أفعل.. لا يوجد الآن في فرنسا طائرة سورية.. وأول طائرة سورية ستصل إلى هنا في الثانية عشرة والنصف..

- في أي مطار ستهبط؟

- في مطار بورجيه..

- ولماذا مطار بورجيه بالذات؟ أهناك خدعة؟

- تذكر يا أخي أنني أخاطبك إلى الآن كسفير دولة. وهذا يعني أنني أقول الحقيقة التي ليس فيها خدعة.. ولو كان في الأمر خدعة لما وجدتني هنا.. تهبط الطائرة في بورجيه لأن طائرات الخطوط السورية لا تهبط إلا في هذا المطار.

- سنرى وموعدنا هذه المرة، هو الثانية عشرة والنصف..

هنا أيضاً جاء السفير الكويتي، يحمل إلينا نبأ نجاح مفاوضاته مع إحدى شركات الخطوط الجوية (ميستير) في استئجار طائرة.. وقد استبقيت كاحتياطي.. هنا أيضاً عادت الحياة إلى كل شيء من جديد، وعادت أيضاً الابتسامات العطشى إلى وجوهنا.. لعل هذه المسرحية اللعينة سينتهي أحد فصولها في باريس دون أن تراق دماء..

بوشر في التفاوض مع الحكومة الفرنسية بصدد تأمين طائرة فرنسية، لتنقل ركاب الطائرة السورية التي ستحمل بدورها الفدائيين ورهائنهم إلى اتجاه غير

معروف ولكنه كان على الأرجح عربياً.. وفعلاً وافقت الحكومة الفرنسية على تهيئة الطائرة.. كانت هناك اتصالات جديدة من السفراء العرب ومن السفير السعودي نفسه بالجزائر وبالرياض وبدول عربية أخرى تنقل الأنباء "السارة" الأخيرة، وكانت هناك ترتيبات جديدة لما سيتم بعد ذلك من خطوات.

المختطفون أنفسهم هدؤوا الآن.. وكأنهم أصبحوا على ثقة بأنهم سيغادرون باريس سالمين.. ولم يعد هناك مفاوضات جديدة.. ولا تهديدات جديدة أيضاً.. كان لوجود سعادة العراقي معهم أثر في ذلك.. وكان للتأكيدات الأخيرة عن الطائرة السورية أثر أيضاً.

صوت من النافذة:

- السفير العراقي ليس رهينة عندنا، وإنما سنبقيه معنا "ضماناً" لسلامتنا.. وسنطلق سراحه على أرض المطار.. قبل طلوعنا إلى الطائرة.. النساء (وفيهن ثلاث فرنسيات، والرابعة فتاة عربية تونسية) سنتركهن أمام مبنى السفارة قبل أن نغادر.. والآن يجب أن تحافظوا

على الشروط والترتيبات التي سنمليها عليكم بشأن ذهابنا إلى المطار:

- أتوبيس لنقلنا إلى المطار، وتكون على نوافذه ستائر محكمة..

- إبعاد المصورين والصحفيين والبوليس والناس جميعاً، بحيث لا نرى شخصاً واحداً في الشارع..

- مراقبة المباني المحيطة والأسطحة، وفي حالة رؤية أي شخص في هذه الأماكن ستكون هناك مذبحة.

- سائق الأتوبيس يجب أن يظل خارجه.. على بعد مائتي متر بعد تقديمه لنا والتعرف عليه.. وعليه أن لا يقترب من الأتوبيس حتى نطلب حضوره نحن..

- سيارة بوليس صغيرة في الأمام لتسهل لنا السير حتى المطار، وبعد سيارة البوليس تأتي مباشرة سيارة السفير الكويتي، ثم السفير السوري، ولهما أن يستخدما سيارتيهما الدبلوماسيتين (كان المختطفون قد طلبوا قبل هذا أن يركب السفيران في سيارة البوليس الميسرة

للسير، فرفض السفيران بحجة أن السيارة الدبلوماسية هي حصانة للسفير).

- سيارة خلف الأتوبيس فيها بعض الدبلوماسيين من السفارة العراقية.

- لا يحق لأي سيارة من البوليس الفرنسي أن تتبعنا.

- عند وصولنا إلى أرض المطار، ينزل السفيران الكويتي والسوري من سيارتيهما ويسيران على الأقدام، ثم يقفان على بعد عشرين متراً من الباب الأمامي للطائرة.

- الطائرة يجب أن تكون بعيدة عن حركة الطيران، ويجب أن تكون فارغة من كل شيء وحتى من العاملين فيها.. وتكون أبوابها جميعاً مفتوحة.. ويكون مخزن الحقائب أيضاً مفتوحاً.. وبها وقود كاف.. ثم يرقى الطيارون إليها حين نطلب منهم ذلك نحن.. أي عندما نكون مستعدين للإقلاع.

- وجود أي شخص مشبوه في مناطق سيرنا أو في المطار أمر سيجرّ إلى مذبحة لا تحمد عقباها..

الجواب: كل هذه الشروط والترتيبات مقبولة.. وسننفذها حسب طلبكم، وكما أردتم، ولكن نود أن نذكركم بأشياء يجب أن تحترموها وتنفذوها:

- كل الرهائن غير السعوديين، يجب أن تطلقوا سراحهم قبل مغادرة باريس.

- النساء الفرنسيات الثلاث والفتاة العربية تتركوهنَّ عند باب السفارة قبل مغادرتكم المكان.

فجاء الجواب هكذا:

- المختطفون: النساء نتركهن جميعاً هنا.. السفير العراقي سنتركه في المطار.. يبقى ثلاثة غير سعوديين، (وهم: محمد السوداني، ومكي المصري.. ورشدي اليوغسلافي وكلهم من مستخدمي السفارة) سنتركهم أيضاً في مطار بورجيه.

الأتوبيس الرمادي ذو الستائر الخضراء كان يقف

هنـا.. وبقيـت مشـكلة السـائق، إذ لا يمكـن أن يقـود الأوتوبيس سائق فرنسي..

عبدالسلام بوحمو، سائق المكتب الثقافي، مواطن جزائري، قدم نفسه تطوعاً لقيادة الأتوبيس.. طويل، نحيل، أسمر، في الخمسين من عمره، ليس في رأسه شعر كثيف.

البوليس الفرنسي أبعد الناس.. وبقي فقط محافظ البوليس السيد باوليني بجانب الأتوبيس، ليستلم الرهائن الفرنسيات والفتاة التونسية. عبدالسلام السائق كان يقف على بعد مائتي متر في وسط الشارع وحيداً.. خرج أحد المختطفين من مبنى السفارة إلى الأتوبيس، للتأكد من عدم وجود أي خدعة داخله.. ثم اقتيد الرهائن مكتوفي الأيدي.. اثنين.. أثنين.. كانت وجوه الفدائيين مطموسة بالحبر الأزرق والأسود، سوى رئيسهم فقد كان عليه قناع أبيض، فلا تظهر لنا سوى عينيه.. تحرك الأتوبيس حسب شروط الفدائيين، ولحق به كل السفراء العرب الذين كانوا يتواجدون هنا، ومن بينهم السفير السعودي.

قال لي فيما بعد عبدالسلام سائق الأتوبيس:

- كان يقف خلفي أحد الكومندوز، فمد يده إلى عنقي، ليضع بين "ياقة" القميص شيئاً ما أحسست بثقله.. ثم ترك هذا "الشيء" حراً طليقاً لا يقيه من السقوط إلا "ياقة" القميص فقط.. ثم سألني:

- هل تحس شيئاً؟

- نعم

- هذه "قنبلة" قابلة للانفجار في أي لحظة.. وأي حركة ملتوية منك، معنى هذا أنك ستفقد رأسك.. هذا شيء.. والشيء الآخر أنه ليس من حقك أن تستعمل المنبه، إلا في الحالات التي آذن لك فيها أنا بذلك، ولو استعملته بدون إذني، فإن هذا المسدس، "وكان يشده إلى إحدى يديه" سيؤدي مهمته في رأسك كما ينبغي ..

وصل عبدالسلام بحمولته إلى المطار، وهو يتحسس سقوط "القنبلة" من لحظة لأخرى.. هناك حرروا السفير العراقي.. وموظفي السفارة السعودية الثلاثة غير السعوديين..

منذ الدقائق الأولى لوقوع الحادث، أخذت قوات البوليس الفرنسي تتوافد إلى شارع "أندريه باسكال"، حيث يقع مبنى السفارة.. فرقة "ضد الكومندوز"، بقيادة المفوض بروسار، بعدها مباشرة حضر مدير شرطة باريس، السيد باوليني بالمبنى ومساعدوه الرئيسيون، وعدد كبير من الضباط والجنود الذين كانوا يحيطون بالمنطقة من كل جانب..

في الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم الأربعاء، (اليوم الأول للحادث)، استقبل الرئيس جورج بومبيدو، رئيس الجمهورية الفرنسية، في مكتبه الخاص رئيس الوزارة الفرنسية، بيير مسمير، وقال له باختصار: "يجب تحاشي ما حدث في ميونيخ مهما كان الثمن".. إذ كانت – بعدها – مهمة السلطات الفرنسية، هي العمل على عدم وضع المختطفين في حالة يمكن أن تدفعهم إلى القتل والتفجير.

كبار المسؤولين في الحكومة الفرنسية كانوا على اتصال مستمر.. لحظة.. بلحظة.. برجال البوليس المتواجدين هنا.

سألت المفوض (بروسار) قائد فرقة "ضد الكومندوز":

- لو وجدت نفسك في حالة اضطرارية لاقتحام مبنى السفارة، بعد أن يسمح لك بذلك السفير السعودي، هل تثق بنجاح العملية؟

قال: أنا أثق في فرقتي تمام الثقة.. ولكن ما من شك أنها ستكون مغامرة.. وهناك أكثر من خطورة فنحن نستطيع أن نتسلل إلى الداخل ولكن هم الآن موجودون في غرفة واحدة صغيرة.. عددهم ثمانية عشر.. وسيدخل معي من فرقتي عشرون شخصاً، فتصور تطاحن ثمانية وثلاثين شخصاً في غرفة واحدة ضيقة.

ثم إن الهجمة، ستكون مفاجأة.. ولكن قبل هذه الهجمة يجب أن نكون على ثقة تامة في القدرة على تمييز المختطفين من الرهائن.. المشكلة أنهم كلهم عرب.. ألوانهم واحدة، ولغتهم وسحناتهم واحدة.. ولكي نقبض عليهم قبل أن يباشروا في التفجير، يجب أن نكون واثقين من تمييزهم.. مع هذا كله، فإننا سنبقى هنا حتى

اللحظات الأخيرة التي نأمل أن ينتهي فيها كل شيء بسلام..

قلت للسفير السعودي: ومصير الخمسة الفدائيين المقبوض عليهم في الكويت الآن هل تتدخل فيه حكومتنا؟.

قال: انتهت الأمور على أراضٍ كويتية، وأصبح الأمر بموجب القانون الدولي يخص الحكومة الكويتية كلياً بموجب حق السيادة..

سامحيني يا لندن

كان لابد أن أهرب من الدائرة التي ضاقت! وأن أهجر اللحظة التي هرمت وشاخت!

كان لا بد أن أهز أكتافي، وأن أنفض رجلي من أوحال سميكة علقت بهما على طول الإقامة، أو على طول الاختلاف إلى "مواطن" كادت أن تتوسل إليَّ بأن أرأف بها، فأخفف عنها نهش عيوني، وقرع أقدامي!

عندما يملّك "فضاؤك" فلا بد أن تبقي على ماء وجهك وترحل.

وعندما تضيق – أنت – بعواطفك، فلا بد أن تستبقي منها في داخلك الذكرى الفرحانة ثم تسافر.

في السفر تجديد لكل الأشياء التي تأخذ في الانحدار نحو الشبح الذي نخافه.

كل الأشياء تضحي سقيمة وتستشعر اليأس، وتقرأ على نفسها الفاتحة عندما تصبح "عادية".

"العادية" يرهبها الناس، وتخافها الأشياء، فهي نكسة فظيعة؛ وليست أبداً "شيقة". وأنت نفسك لكي تكون شيقاً حاول أن لا تكون عادياً.

عندما تشعر بأن الناس يستقبلونك في فضائك المعتاد كل يوم بابتسامة لا تتغير.. وبعبارة لا تتحول.. وعندما تشعر بأنهم يتحدثون إليك بـ"لهجة" لها الرائحة نفسها.. والطعم نفسه!.. وعندما تشعر بأنهم في دخولك يجترون أنفاسهم بالطريقة نفسها التي يجترونها بها عند خروجك.. عندما تشعر بكل ذلك، فتأكد بأنك قد أصبحت "عادياً".. وللخروج من دخانها دون أن تختنق، عليك أن "تكسر" شيئاً ثميناً ومزعجاً بحضرتهم، كما يفعل العشاق عندما يريدون وداع من يعشقون، أولئك الذين كانوا مثار الغضب!

ربما يقولون بأنك "أحمق"!.. ولكن لا بأس، فأن تكون "أحمق" خير لك من أن تكون "عادياً"!

عليك أن "تكسر" شيئاً ما بحضرتهم.. يحدث ضوضاء.. يوقظهم.. ويخرجك أنت من سجنك، وعندما توشك أن تفقد كل شيء، عليك قبل أن يحل بك هذا المكروه أن "ترحل"! ففي الرحيل ذكرى وحنين.. وفي الذكرى والحنين صقل لكل الأشياء الغالية!

أنا رحلت من باريس إلى لندن عندما أخذ "جرسون" مقهى آل "فكانكس" المقابل لجامعة السوربون الثالثة في الحي اللاتيني يحمل لي يومياً، في فترة ما بعد الظهر، كوب "القهوة" دون أن أطلبه منه!.. وعندما أخذ أكثر أصدقائي هنا يعزفون عن سؤالي عما فعلت في مدة غيابي التي لا تطول عنهم!.. عندما أخذت تقول لي، في كل لحظة، العيون التي كنت أقرأ فيها – قبلاً – أعذب القصائد الحانية:

كيف الحال.. ثم تصمت!..

لم أقوَ على "كسر" شيء.. ولم يكن في استطاعتي

إحداث ضوضاء الكافية.. فإنني أخاف!.. ولكن رفضي لأن أصبح "عادياً" كان "الرحيل".

رحلت تجفف شفاهي قصائد عذبة ومجنونة، ولكنها مكرورة، وتحتاج إلى كتابة جديدة!

رحلت أطلب "النجدة" عند وجوه جديدة، لها نظرات جديدة.. وتعبيرات لم تصل معرفتي بها إلى حد "الألفة".

جاءني في باريس قبل الرحيل "بدوي" آخر، قادم من فينا عاصمة النمسا.. يحمل بين ضلوعه أملاً كبيراً، وملء حقيبته "شهادة" طويلة عريضة تسمح له بأن يكون "طبيباً" حيث يشاء.

حزمنا حقائبنا ورحلنا، تركنا باريس خلفنا تضحك لكل من اختارها، من شتى أنحاء الدنيا، ميداناً لتفريغ أحزانهم وهمومهم. تركناها تعج بكل من جاؤوا إليها ينشدونها شيئاً من جنونها!

كانت الوجهة لندن التي لم أكن أعرفها بعد، وبالتالي فأنا لا أحبها ولا أكرهها.. أتطلع فقط إلى اكتشاف شيء

منها، وليس كل شيء، فلها رحابة في التاريخ والحضارة تتفوق بها على عواصم كثيرة في هذا العالم.

كان فراق باريس بطيئاً، لأن وسيلة الهرب كانت "سيارة"!

كان لابد أن نعبر بحر المانش بباخرة.. ومعنا السيارة، وقبل الوصول إلى أراضي الملكة "إليزابيث" كنا "بدويين" ينشدان في عيون الأوروبيين، الذين تنحشر بهم الباخرة، كل قصائد الشمس والرمال الذهبية! وقد كانوا من جهتهم يقرأون على جباهنا كل أساطير الشرق وأحلامه التي لا تنتهي!

كانوا يشمون فينا روائح "شهرزاد" وعطورها، وأملها الذي لا ينقطع في تتمة "الحكاية"! وكانوا يعبرون من خلال سحناتنا الكابية إلى "الفرجة" على عناد الأيام القاسية في تاريخنا ووجودنا!.. كان علينا بأن لا ننام تلك الليلة التي قضينا من آخرها أربع ساعات على البحر!.. كنا نضحك.. ونتحدث مع كل الناس!

يسألوننا عن كل شيء في بلادنا ويدعوننا

بـ"الأغنياء الجدد" إذ لم يعودوا يحتكرون هذه الصفة كما كانوا من قبل..

قضينا الليلة كلها نكتب لهم ضمانات بأن "انتصابنا" لن يقوم على أنقاض الآخرين.. وبأننا نسعى فقط لأن نكون في صفوف الشعوب القوية.. ضماناً لأمننا.. فقد اندثرت قرون طويلة ونحن نلهث في استدرار عطف "الأقوياء".. وهؤلاء في "قوتهم" لم يردوا جميلنا يوم كانت القوة "صناعة" عربية!.

هذا هو منطقهم:

"جهلاء.. لديهم نقود كثيرة ولكنهم لا يعرفون كيف يديرونها!".

كنا نقطع الليل والبحر على ظهر الباخرة بالحديث عن مستقبل "الأغنياء الجدد" ومصير "الأغنياء التقليديين"، وكان غيرنا ممن في الباخرة يقطعه الليل والبحر بالنوم، وبالحديث في أشياء أخرى!

في إحدى ممرات الباخرة، كان يفترش الأرض عدد من الشبان والفتيات الذين أخذوا يغنون الليل والبحر من أنغام قيثاراتهم كل ما يمكن أن يبوح به، في هذه

الساعة المتأخرة من الليل، من هو في مثل سنهم. كلهم عشاق!.. بعضهم عشيق لـ"الحالة" يسلسل في أذني عشيقته كل ما يمكن أن يستعيره، تنهيدة حرى، من معنى الكلمة المغناة.. أو من أنين القيثارة الغائر.. وبعضهم عشيق لـ"الذكرى" يتسرب من نظراته التائهة أو المصلوبة على سقف الباخرة كل ما يمكن أن يهيج في داخله الخيال واستحضار اللحظات المشحونة بالحب!

جثوت بينهم بلا عشيقة!.. و"الذكرى" كادت تندثر في نفسي.. فعليها طبقات سميكة من أشياء باريس التي كتب عليها في أكثر الأحيان: "للاستهلاك فقط!"

جثوت بينهم رضوخاً لضعفي الكبير الذي يُدعى "موسيقى".. غنى أحدهم أغنية "أبي" لجلبير بيكو.. فذكرني بأبي!.. وغنى آخر أغنية "العجوز" لسيرج ريجياني، فذكرني بأمي!.. وغنى ثالث أغنية "الأصدقاء" لآدمو.. فذكرني بأصدقائي!

امتلأت حنجرتي بجرعات قاسية من الريق الجاف، وفواعل الحنين والسفر، فذهبت أبحث في سحنات هؤلاء عن تفسيرات مقنعة لما يشعر به غريب مثلي، ترك وراءه

كل شيء، وجاء إلى هنا ينحت في بقايا الأيام الواهنة زاداً لمستقبل لم تحدد هويته بعد!

"الذكرى" لحظة أقسى من "الانتظار".. ورغم أنها ضرورية وحتمية، إلا أنني ممن يمعنون في الهرب منها!.. لا شيء يخيفني مثلها.. ابتعد عن كل ما يمكن أن يكون مدعاة لاستثارتها في رأسي وقلبي.. في البداية كنت أحفل بهذا الهرب؛ لأنه كان يعينني على استمرار مصافحة الغربة صباح مساء.. أما اليوم وبعد أن تمت "الألفة" مع الغربة، فقد أصبح هذا الهرب ضعفاً كبيراً يهدد في داخلي كل شيء، وأخشى أن ينتهي بغسل يدي من كل شيء!

جاء صديق الرحلة يوقظني وأنا في غمرة حسابي العسير مع نفسي، وسط ضجيج هؤلاء الذين كانوا لايزالون يغنون.. ويضحكون.. ويعشقون!.. جاء يعلن لي نهاية صحبة الليل والبحر والسفينة! فقد طلع الصبح.. ووصلنا إلى الأراضي الإنجليزية، وسنغادر السفينة!.. كان يلقي في أذني هذه الكلمات كالحجارة!.. أو كالوعيد!.. فقد كنا في صحبة حانية ملهمة سننهيها

بلقاء روائح عجلات السيارات، وأقدام الناس، في الشوارع من جديد!.

ذهبت احتل مقعداً خالياً قرب باب الخروج لأنام فيه – نصف ساعة! – جالساً!.. لم أكن أقوى على الوقوف في هذا الطابور الطويل العريض الذي يقف على غير بعيد مني.. كلهم ينتظرون أخذ أماكنهم فوق "الأرض"، بعد أن استعجل "البحر" خروجهم منه!

كانوا كثيرين جداً.. وأنا كنت أنام إلى جانبهم في هدوء تام!.. كنت أحسبهم يقولون في أنفسهم: "لا تزعجوا هذا النائم الجالس!". ولكني أدركت فيما بعد أنه "الهدوء" الذي تستهويه طبيعة روح الشعب الإنجليزي "المؤدب"، الذي يعطي أروع الأمثلة في حب "النظام" دون حاجة إلى بوليس، أو تدخل من أحد.

من كان ليس إنجليزياً من هؤلاء، فقد استعار بالرغبة أو بالضرورة الروح الإنجليزية لهذه الدولة التي لايزالون يدعونها بـ"العظمى!".

آخ.. أخيراً هذه هي لندن!.. ومن أول نظرة أحسست بانقباض نحوها، أحسست فوراً بأن بيننا شيئاً

من الجفاء لا أعرف أسبابه بالتحديد، لعله ما نسميه أحياناً بعدم الارتياح.. حاولت أن أتخلص من هذه المشاعر السلبية بسرعة قبل أن تسدّ عليَّ المنافذ، وشرعت في محاولات متواضعة لاكتشاف إحدى العواصم الأكثر شهرة في العالم، بل وفي التاريخ، قرأت، وكتبت بعض المعلومات، ودونت بعض الخلاصات، وانطلقت أمشي الهوينى، وأحياناً غير الهوينى، في شوارع المدينة وساحاتها.

خلال اليومين الأولين من مدة إقامتي في لندن، تأكدت فعلاً بأنني قد تركت خلفي في باريس الليل الحافل بكل شيء! الليل الذي يعني الأنشودة الأكثر قسوة في سفينة الوحدة! والذي يعني أيضاً الأغنية الأكثر زهواً في قلوب العاشقين.. الليل.. هذا الذي تميزت في الاحتفال به، من بين مدن العالم كلها، باريس"المجنونة!".. كان لابد أن أبحث في لندن عن شيء آخر غير الليل.. فالليل في لندن مقتول.. وأنا ما جئت إلى هنا من أجله، ويقولون إن في لندن أشياء أخرى غير ليلها، فمساحة لندن ألف وثمانمائة كيلو متر مربع.. والإنجليز يقولون بأنه على بُعد كل عشرين متراً

يوجد شيئٌ جميل، أو يوجد أثرٌ تاريخيٌ يستحق التحية والتأمل.

لم يكن في مدة إقامتي هنا ما يتيح لي رؤية كل شيء، ولكني على أي حال عقدت العزم على أن "أخبط!" ركبتي صباح كل يوم لبدء جولة سياحية لا تتوقف إلا بعد أن يلج الظلام إلى كل خلية من خلايا لندن.

ضعت في شوارع لندن أكثر من مرة.. ولكني لم أتردد في أن أستوقف أي "جنتلمان" أو أي "ليدي" ليرشدني أو لترشدني إلى الطريق!

من خطوة لأخرى وجدتني بين يدي اللورد "ويلسون"، الذي يتوج تمثاله عموداً طويلاً جداً، في ساحة قديمة جداً، مليئة بالناس وبالحمام وبالنوافير.. قالوا لي: إنها ساحة "ترافلغير".. وقد سميت هكذا بعد الانتصار المعروف لهذا الذي يجلس على العمود منذ عام 1805م.

على يسار الساحة توجد ناشيونال غاليري، التي تضم مختارات لا مثيل لها من كل مدارس الرسم

الأوروبية، من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر.

يحيط الساحة أكثر من عشرين مسرحاً.. وكلها تؤكد ما يتردد عن الإنجليز من أنهم يحبون المسرح، ويحافظون على بقائه.

على الرغم من أن ترافلغير تستغرق من وقت السياح ساعات طويلة، إلا أنني لم أستطع أن أقيم فيها أكثر من الوقت الذي استغرقه السلام على هذا الويلسون.. وعلى الطريقة الأمريكية.. من بعيد: "هالو ويلسون!".

لم تكن خطاي العجلى تستحثني بعدم الوقوف طويلاً في ساحة "ترافلغير" فقط، بل لقد فعلت ذلك أمام أكثر عوالم لندن.. خذوا مثلاً: في الـ"هايد بارك" ذهبت إلى الركن الشهير بخطبائه، الذين يتكلمون فيه عن كل شيء، ويرددون في جنباته "أقذر" الشتائم التي تندى لها جباه بقايا لوردات إنجلترا اليوم!.. لقد أقمت في هذا الركن فقط الوقت الذي طلبت فيه إلى أحد الحضور أن يتفضل بأخذ صورة تذكارية لي كأي سائح (تلفان!) يريد أن يزعم بأنه وقف هنا يوماً من الأيام!

كذلك كان الحال أمام كنيسة "أباي ونستمينستر"، حيث يتوج ملوك وملكات بريطانيا، وحيث يتزوجون ويكفنون أيضاً منذ عهد "غايوم".. حمت الكنيسة حوله الوقت الذي انتبهت فيه إلى اسم الرجل الذي أنشأها، والذي تدين له بريطانيا بأسرها بفضل هذا الـ "إنشاء" إذ أنه يعني ولادة أشهر كنيسة في بريطانيا كلها.

تماماً كما فعلت عند "برج لندن".. بحثت عن اسم (غايوم الأول) الذي أنشأه.. ولكن عند هذا البرج، كان يقف بين عيني شبح مأساة إنسانية هائلة هي "السجن".. فبرج لندن تحول في يوم ما إلى سجن، ولهذا كنت أشعر بأن كل حجر فيه يئن من انسحاق إنسان!

عندما أردت أن أذهب إلى قصره باكنغهام، حيث تقيم الملكة، فكلفت تلتف حوله أعداد هائلة من السياح، خصوصاً في الحادية عشرة والنصف صباحاً لمشاهدة "تبديل الحرس" كنت أشاهد من بعيد حدائق "جملس بارك"، لقد كانت الحسرة تفور في داخلي بصلف لأن وقتي لا يمكنني ألبتة من الاستمتاع عن قرب ببحيراتها الجميلة المعروفة بأجمل مجموعة من الطيور المائية!

أمام قصر باكنغهام، ومراعاة لـ"وقار" الملكة، كان لابد أن أقف قليلاً!

هذا القصر علامة من علامات لندن الواضحة.. مساحته مع حدائقه حوالي ستة عشر هكتاراً.. أمامه نصب تذكاري من المرمر الأبيض، يُحيي ذكرى سلطان الملكة فكتوريا.. في شمال القصر توجد حدائق غرين بارك، التي تمتد إلى البيكاديلي!

نسيت أن أقول لكم بأن في الطريق إلى قصر باكنغهام لابد من المرور تحت التمثال الرائع لتشالرز الأول، ومن هناك لابد أن يتحول النظر نحو حراس الخيول "هورس غاردس".. هؤلاء الذي يتسمرون في الأرض تحت قبعاتهم الغليظة بلا حراك، برغم زحام السياح، وتلاطم كاميرات التصوير!

التماثيل التي تغص بها ساحة ووتر بلاس، لا تقل عن تمثال تشارلز الأول.. ومن هذه الساحة نستطيع أن نصعد إلى ساحة البيكاديلي.. الساحة التي لابد أن يتحدث عنها كل سائح يفد إلى لندن.

البيكادللي وسوهو وشمان بارزان على خد لندن

تماماً كالحي اللاتيني والشانزليزيه في باريس، مع الفارق الكبير بطبيعة الحال!

لقد سمعت عن البيكادللي وقرأت ما جعل هذه الساحة، في خيالي وتصوري، أكبر من واقعها وأروع.. ولكن "التواضع" الذي كان لابد لتصوري أن يتنزل إليه عند رؤية هذه الساحة عن قرب، لم يكن ليقلل من قيمتها وأهميتها بالنسبة إلى البريطانيين والسياح عموماً.. فهي تأتي رأساً بعد ساحة "ترافلغير" من حيث إنها مطمح أنظار الوافدين إلى لندن من شتى أنحاء الدنيا.

شبان وفتيات كثيرون من كل جنس، ومن كل لون يلتفون حول النافورة الأنيقة التي يعتليها تمثال أيروس.

أهم ما لفت انتباهي في البيكادللي، أنها أعقد منطقة في لندن بالنسبة للسير، ولهذا فقد أوجدوا ممرات تحت الأرض لعبور المشاة من جانب لآخر.. هذه الممرات مزينة بالمتاجر الجملية.

من جوانب تلك النافورة التي تغطي مساحة واسعة من ساحة البيكادللي، تنطلق الملامح الأكثر قسوة للساحة: شباب لندن الذين لا يترددون في أن يسرقوا،

أو يقتلوا، أو يحطموا، ما وجدوا أمامهم، العنف عندهم "لذة" لا تعادلها إلاّ لذة البطش من أجل البطش..!

عندما زرعوا بعض محطات الميترو في لندن، في فترة أعياد رأس السنة، قنابل ومتفجرات، كانوا يدركون بأن هناك أرواحاً بريئة ستسفك.. ولكن لابأس أن يلفظ عدد من المواطنين الأبرياء أنفاسهم ليكون ذلك أبلغ تعبير عن روح احتجاجية، تريد التغيير.

على أحد جوانب ساحة البيكادللي متجر سوان وادجار، ومن حافتي هذا المتجر يمتد أجمل شارعين في لندن كلها، هما: شارع ريجنت ستريت، وشارع بيكادللي.. الأول تزدان حافتاه بأروع متاجر لندن، وبعمارة إلـ بي بي سي الأنيقة.. والثاني عبارة عن كشكول يحتوي بين جانبيه على كل شيء... فيه على وجه الخصوص بار لنغتون هاوس المعروف تحت اسم الأكاديمية الملكية للفنون، ويقام في هذه الأكايديمة، في صيف كل عام، أحدث أعمال مشاهير الرسم المعاصرين.. هذه الأكاديمية تخلق في لندن أهم حدث فني، وهو يأتي مرة واحدة في العام، ولكنه يشغل المهتمين بالرسم خلال العام كله.

هناك على حوافي نهر الـ "تايمز" يوجد قصر "ويستمينستر" الذي لا يقل عمره عن عشرة قرون.. وإلى جانب أهمية هذا القصر التاريخية والأثرية، فإنه يميزه عند اللندنيين، أنه مقر اجتماعات البرلمان الإنجليزي. وفي شماله يرتفع برج طوله مائة وخمسة أمتار، ومعروف في شتى أنحاء الدنيا بصوت جرسه الهائل.. أعني "بق بن" التي أنشئت عام 1859م.

ثم لكم أن تلاحظوا هذه المعلومات لتدرككم الدهشة التي أدركتني: وزن جرس الساعة ثلاثة عشر طناً بالتمام والكمال.. قطر مينائها سبعة أمتار.. الأرقام طول كل واحد ستون سنتيمتر، والمساحة الموجودة بين كل دقيقة ودقيقة تسعمائة وثلاثون سم مربع.. عقرب الدقائق طوله أربعة أمتار وخمسة وعشرون سنتيمتر، ووزنه مائة كيلو جرام.. عقرب الساعات متران وسبعة وستون سنتيمتر، وهو أثقل وزناً من عقرب الدقائق.

الأرقام صحيحة حسب وثيقة مطبوعة عن "بق بن"، اللندنيون ليسوا في حاجة إلى قراءة الجرائد، أو الاستماع لنشرات الأخبار؛ ليكونوا على علم باجتماعات

البرلمان الإنجليزي، إذ يكفي لإدراك ذلك أن يمعنوا النظر في قمة "بق بن" فإن وجدوها تزدان بالعلم الإنجليزي في النهار، أو بضوء ساطع في الليل، فإن هذا يعني أن أهل الحل والعقد في اجتماع!

عندما نزعم هنا بأن "بق بن" من مفاخر لندن الزاهية، نتذكر فوراً المفخرة الأخرى التي لا تقل عنها قيمة وأثراً.. أعني تاور بريدج الذي بني في العام 1894م، وهو عبارة عن جسر يعبر نهر التايمز.. وينقسم هذا الجسر من الوسط - بالعرض- إلى قسمين.. في مؤخرة كل قسم من جهة الأرض آلات تتيح لكل منهما الانفراج إلى أعلى، لتتمكن السفن من العبور.. زنة كل قسم حوالي ألف طن، والمسافة بين العارضتين ثلاثة وأربعون متراً طولاً.

في الطريق إلى مقر إقامتي، كان لابد أن أعبر شارع الصحافة. في هذا الشارع كل عمارة.. بل كل شقة.. تحتوي بين جدرانها بحنان جريدة أو مجلة من جرائد ومجلات لندن العديدة، كل الشوارع المحيطة بهذا الشارع، والمتفرعة عنه، تحفل بأعداد كثيرة من المطابع، وفي جواره إحدى الساحات التي يزين أحد أطرافها

المنزل الذي ولد فيه جونسون.. وهو أيضاً المنزل الذي عاش فيه ليتم قاموسه المعروف. وعلى بعد خطوات منه، يوجد فندق، تسيسهير تشيز، حيث كان جونسون يجتمع بغولد سميث، وعدد آخر من الشخصيات الاستثنائية في لندن.

لندن حافلة بالتاريخ والحضارة ومجد الدولة "العظمى" التي لا تغيب عنها الشمس.. وأهم من ذلك أنها تنعم بحب قومنا العرب، فمن يعرف أوربا من العرب إنما يعرف العاصمة البريطانية تحديداً، ولهذا فوجود العرب فيها هو وجود لافت: سُيّاح، أو لدواعي صحية، أو للتعليم، ولكن أيضاً لدواعي "أمنية" فالمعارضات العربية تجد ملجأ في القانون البريطاني الذي لا يسمح بتسليمهم إلى الديكتاتوريات التي تتمنى فناءهم.. لا بل إنه يحتمي بلندن بعض من تحوم حولهم "شبهات" الإرهاب، ولاحظوا أنني وضعت "شبهات" بين قوسين فلندن والقانون البريطاني لا يأخذ الناس بالشبهات.. فهذه أعرق ديمقراطيات العالم. والخلاصة أن الوجود العربي في لندن مازال ملاحظاً.. بل لقد نشأت في

العاصمة البريطانية أهم منصات الأقلام والتعبير عن الرأي بالنسبة للعرب.

لم يطل مكوثي في لندن، فقد أحسست بصعوبة شديدة في التآلف معها، إذْ لم أجد شيئاً مني فيها، وما وجدت فيَّ شيئاً منها.. قلت لعله غموض هذه المدينة ووعورة مشاعرها، وهي تحتاج إلى بعض الوقت لنعرفها وتعرفنا، وليكون البوح أكثر عبقرية وصدقاً، لم تفلح جميع محاولاتي اللاحقة، وهي كثيرة في أن تفسح لهذه المدينة المهمة مكاناً في قلبي، بل إنني كنت أجد نفسي في كل زيارة لها أكثر زهداً في صداقتها أو حبها. يتضايق العديد من أصدقائي من محبي العاصمة البريطانية من كلامي هذا عنها، وقد بذلوا جهوداً طيبة ومتفانية لإصلاح ما يمكن إصلاحه ولكن دون جدوى، أو دون نتائج ترضيهم، ودائماً ما أقول لهم: إن المدن مثل الناس، أرواح مجنّدة يأتلف منها ما ائتلف ويختلف ما اختلف! وهذا ليس ذنب أحد، وهو لا يقلل أبداً من أهمية العاصمة البريطانية، كما أنه لا يشعرني بأي إثم تجاهها.. لقد بذلت ما في وسعي لكي تكون علاقتنا "عمار" فلم أفلح.. سامحني يا الله وسامحها!

كريشنا والبقرة

.. الله مات!

أخذ بعض فلاسفة الغرب المحدثين هذه المعاينة أصلاً يستند إليه موقفهم من الطبيعة والكون والإنسان!.. ومن ثم فإن الأجيال الجديدة هناك فضلت أن تستكين داخل هذا الإطار لفترة طويلة.. فقد عز عليها أن تتدبر أمر الخلق والخالق بعد أن أهدرت الكنيسة دورها.. وبعد أن لاذ رجال الدين المسيحيون بالصمت، أو أنهم أكرهوا عليه!

وهنا كانت الخطوة الأولى في مشوار الضياع الطويل، وقد ساعد على استفحال هذا الضياع تفريط العلم في كل أو في أكثر الضمانات التي كان قد قدمها لهؤلاء في أعقاب الثورات الصناعية.

الوجودية، التي أصبحت بعد فشلها، فلسفة تقليدية، تنصل روادها منها الآن، وأصبحوا يقولون عنها بأنها موديل كان يجب أن يكون ولم يعد هناك أي ضرورة لاستمراره!

و"لا معقولية" ألبير كامو في كتابه الشهير "سيزيف"، كانت منصفة من جانب، ولكنها جبانة وخائفة من جانب آخر.. فكامو يجعل من حالة "سيزيف" حالة يشترك فيها كل الناس، وكل الحضارات.. فالإنسان في أي زمان، وداخل إطار أي حضارة، يصدر بحقه حكم أبدي، هو أن يبني ويبني، ثم يصعد ويصعد، ولكنه لا يلبث أن يهوي إلى السفح؛ ليستأنف نشاطه من جديد، وهكذا.

هذه حقيقة تاريخية أكثر منها فرضية فلسفية.. وكامو جَبُن عن تقديم العلة الكبرى لهذا "القدر" للإنسان والحضارة.. جبن أن يقول: إن الترف، والإنحلال، ونسيان الله، هي أبرز العلل في التهاوي. جبن كامو لأنه كان يعلم أن جيل ما بعد الحرب أصبح يفكر في الله قليلاً جداً، أو أن كامو نفسه كان "يتيه!"، هو الآخر مع هذا الجيل.

الفلاسفة يقولون بتهاوى صخرة سيزيف، أي كل ما حققه الإنسان المعاصر. والشباب الغربي لم يعد يحتمل كل افتراضات قدره الغامض.. ولا شيء يجلب له "السعادة". وهو أحياناً يتخذ موقفاً عدائياً من المجتمع؛ لينفس عن نقمته على نفسه، وعلى العالم، وعلى المستقبل. إنه بعد كل خطوة يخطوها يطرح على نفسه هذا السؤال: ثم ماذا؟!.. والذين لم يجربوا فداحة الخيبة في العثور على جواب لهذا التساؤل المرّ اليائس المطل على فراغ طويل، عريض، سحيق، قاتم؛ لن يتيسر لهم أن يقدروا مستوى الانكسار والتهدم الداخلي الذي يمكن أن يعانيه الإنسان صباح مساء، وهو يبحث عن "نقطة".. عن هدف.. عن "بعد" مثالي لتحركه، ولتحرك كل هذا البشر من حوله!

الفشل في العثور على هذا البعد المثالي، والثقة المفقودة، في كل ما يحيط بالإنسان، وعزوفه عن "حل" سلبي يختم فيه حياته برصاصة، أو يتخذ فيه موقفاً عدائياً من مجتمعه، ولعل كل هذه الأشياء قد هيأت في داخله أرضية خصبة لقبول أي دعوة نحو عالم آخر!.. حتى لو كان وهمياً!

هذا العام "الآخر" قد يبنيه ويهدمه هو نفسه في خياله كل يوم ألف مرة ومرة، عن طريق المخدرات، أو أنه قد يجده أمامه داخل نطاق دعوة "روحية" يزداد توقه إليها كلما أمعنت في الغرابة، وفي اللامعقول، وفي البعد عن نواميس مجتمعه التي أنفها واعتاد عليها ولم تحقق له ما يريد في فهم الكون والحياة والأشياء.. والمهم أن هو يجد أمامه باباً جديداً ينفتح على عالم آخر غير عالمه.. فيه وعود كثيرة.. وروحانيات وأوهام أكثر!

من هنا فقط ترون الآن في الغرب كثيراً من الدعوات، والفرق والتنظيمات الغريبة، التي ينقاد إليها الشباب بأعداد ليست بسيطة، وهو لا يدرك أن معظمها ليست بأكثر من تنظيمات وثنية خرافية خيالية، هدفها التجارة وجمع المال، وذلك مثل تنظيم "مون" الذي "دوّخ" وسائل الإعلام الأوربية في حينه؛ فالناس لم يفهموا شيئاً عن اللغز المميز لهذه المنظمة الغريبة التي تضم أعداداً كثيرة من الشباب، وكلهم يعملون ليلاً ونهاراً ويقدمون دخلهم اليومي طواعية لهذا الرجل الدجال "مون" الذي يوشك أن يصبح الآن أغنى رجل في العالم:

قصور.. وطائرات.. ومصانع.. وشركات.. وهؤلاء الشباب المسخرون تركوا عوائلهم من أجل أن يصبحوا عبيداً لـ "مون".

ودعوة "مون" ليست الملجأ الوحيد الذي يلوذ به الشباب المتهدم، فهناك دعوات أخرى لا تقل خطورة! توزع المنشورات على الناس، وتلصق الشعارات على الحيطان، وينتشر مبشرو هذه الدعوات على الأرصفة، وفي المقاهي، والمطاعم، والساحات العامة، بل إنهم أحياناً يدقون أبواب المنازل، يستأذنون بالدخول لشرح مذهبهم.. أو دعوتهم.

في منزلي، في شارع "كوجاس" في الحي اللاتيني بباريس، فتحت الباب لأجد أمامي شاباً في حوالي العشرين من عمره، ليس له من الأوربيين سوى وجهه وسحنته وشعره الأشقر، أما ما خلا ذلك فهندي، كنت أحسه يصل لتوه من أحد أحراش القارة الهندية البعيدة.. يرتدي إزاراً ورديا فاتح اللون يلفه حول جسده النحيل على طريقة غاندي، أو طريقة أيٍّ هندي آخر.. وحقيبة صغيرة من القماش الأبيض تنسدل على بطنه! وقد

استطعت أن أتبين في هذه الحقيبة مجموعة من الكتب، والنشرات.

كان حليق الرأس إلا من "زعزع" في مقدمة جمجمته يزيد طوله عن العشرة سنتيمترات!

مد يده إلى الحقيبة القماشية وأخرج لي منها كتاباً غليظاً في نحو أربعمائة صفحة ثم قال:

- هذا كتاب "بهاغافاد – جيتا"

- من هو هذا الشخص "بهاغافاد – جيتا"؟! (سألته).

ابتسم الشاب وهو يدفع الكتاب نحوي:

- هذا ليس شخصاً.. هذا عنوان أحد الكتب الهندوسية الأربعة! عرفت لحظتها أن هذا الواقف أمامي مصاب بلوثه هندوسية.. تركته يلج الباب إلى داخل الشقة..

عادة أحاول أن "أصرف" الناس من هذا الطراز لأنني أعرف سلفاً حصيلة نقاشي معهم، ثم إني غالباً ما أدرك أنواع "البضائع" التي يروجون لها.. ولكن حالة

هذا الشاب الـ"يورو – هندي" كانت تختلف!.. كنت أراها شيقة!

- أنت فرنسي؟!.. (سألته مرة أخرى).

- أنا من أتباع "كريشنا".. وأتباع كريشنا لايؤمنون بالتقسيمات العرقية والجنسية!

- عفوك يا سيدي!.. كنت أريد أن أعرف هل أنت من فرنسا، أم من الهند، أم من بلد آخر؟! يعني أين ولدت؟!.. يعني أبوك وأمك وأجدادك وجدوا في الهند أو في أوربا؟! يعني، رضوخاً لنظم الأمن الحديثة، أي هوية تحمل؟!..

- كريشنا يحبك!.. وأنا أحبك!

- أهلاً وسهلاً.. ولكنك لم تجبني على سؤالي؟!

- أبي وأمي فرنسيان.. ووسائل الأمن هنا تعدّني فرنسياً!

- الإجابة لم تكن على مستوى كبير من الصعوبة، أليس كذلك؟!

ثم عدت أقلب الكتاب الغليظ الذي بين يدي..

والذي لا أفهم من عنوانه شيئاً.. كان مكتوباً على غلافه: "قداسة سوامي برابهوبادا".. قلت؟!

- هل "برابهوبادا" هو مؤلف الكتاب؟!

قال بحدة محتجاً على أسلوب السؤال:

- قداسة برابهوبادا هو ممثل كريشنا على الأرض!

- قلت باستغراب:

- على الأرض؟!!

- ثم استأنفت:

- وكريشنا نفسه أين "يقع" إذا؟!

- في السماء!

- وماذا يفعل "هناك"؟!

- ينتظر الولاء والطاعة من أتباعه.

لحظتها فقط فهمت.. لقد أدركت أن هذه خرافة جديدة تدخل أوربا.. ولكنها هذه المرة تأخذ الهوية الهندية.. كم في الهند من دين؟! وكم في الهند من الخرافات؟!..

هذا الشاب، وأمثاله من التائهين الضالين، يعد كريشنا، إلهاً، ويعد برابهوبادا رسوله على الأرض!!

قلبت غلاف الكتاب.. فقرأت تحت اسم برابهوبادا: "مؤسس المنظمة العالمية لعقيدة كريشنا".. فقلت دون أن أحرك عيني عن هذه العبارة:

- إذاً هو حي يرزق؟!

- من؟!

- "قداسة!!" برابهوبادا.

- وماذا في ذلك؟!

- وهو "ممثل!" كريشنا على الأرض.. ولكن قل لي "المنظمة!" العالمية أين مقرها؟!

- الهند .. ولوس أنجلس.. ولندن.. ثلاثة مراكز رئيسة.

- وباريس؟!

- فيها مركز جديد يقع في الحي السادس عشر بباريس.

- وأنت.. متى شاء لك القدر أن تسلم مقاليدك لـ"قداسة!" برابهوبادا؟

- منذ ثلاثة أشهر.

ثم تابع بهستيرية:

- الآن وجدت الله!.. وجدت الحب!.. كريشنا يحبني!.. وأنا أحب كريشنا!

- سألته:

- وقبل ذلك؟!

- لا أحد كان يحبني.. وما كنت أحب أحداً!.. أبي ترك أمي، وذهب مع امرأة أخرى، وأنا في سن الثالثة عشر.. أمي كابدت من أجل الإنفاق عليّ، ولتغطية مصاريف دراستي حتى بلغت الخامسة عشرة، حيث صحوت في أحد الأيام لأجد سريرها فارغاً.. لقد اختفت فلم أرها حتى يومنا هذا.. كان لابد أن أبحث عن نفسي في كل شيء، وفي كل مكان. زجرني الناس وطردوني.. تشردت.. المستقبل كان مخيفاً ورهيباً.. انخرطت في عدد من الجماعات الهيبية، كنت أجد عند هؤلاء، على الأقل، عدم المبالاة بالراهن وبما سيأتي.. وكنت أجد عندهم الاشتراك في المصير الواحد. تعاطيت معهم كل أنواع المخدرات.. ومارست كل أنوع الرذيلة.. والحصيلة كانت دائماً فقدان السعادة، حتى جاء اليوم الذي عرفت فيه كريشنا، فأحبني وأحببته!

ثم قال:

- إنك لا تدرك مدى السعادة التي تغمرني اليوم.. إن كريشنا يحبك حتى أنت!.. وأنا أحبك.. ألا تريد أن تنضم إلينا.. وتحبنا كما نحبك!

- ولكن الآن من يصرف عليك؟! هل تشتغل؟!.. هل تعمل؟!

- كل أتباع كريشنا يشتغلون، ويشتغلون له هو!.. لدينا مزرعة كبيرة خارج باريس.. وبعض الأتباع موظفون وعمال، وكل ما يكسبون يؤول إلى المركز.. نأكل ونشرب معاً.. شركاء في كل شيء!

- كم عددكم؟!

- في باريس: مائتان منتظمون.. وثلاثة آلاف عضو غير منتظمين.. ولكن لا تنس أن لنا ثمانين مركزاً في شتى أنحاء العالم.. وبعض مراكزنا بها أكثر من عشرين ألف تابع!

- كم عمر حركتكم؟!

- عشر سنوات.

- فقط؟!!

ثم مرت لحظة صمت.. أحسبني كنت أطلب النجاة لجيل يتعلق بأذيال الخرافة، بعد أن فقد ثقته في كل شيء!.. حتى في الحقيقة!!

سمعت الشاب يتجه نحو باب الخروج وهو يقول:

- لقد تركت لك كتاب "بهاغافاد – جيتا"، وعنواننا في باريس!

كان عدد أفراد الكريشنا يزداد في باريس.. أو هكذا كان يخيل إلي.. كنت أراهم مرة في الأسبوع على الأقل يجوبون شوارع العاصمة الفرنسية، في ألبستهم الهندية، بطبولهم، ويقرعون أجراسهم، يغنون ويرقصون ويوزعون على الناس كتبهم ونشراتهم، ثم يدعونهم لحضور محاضراتهم وندواتهم.. كانوا في غنائهم يرددون دائماً، وعلى نغم واحد رتيب، هذه الكلمات التي لم أفهمها حتى الآن، ولكني أحسبها نوعاً من الابتهال:

- هاري كريشنا.. هاري كريشنا.. كريشنا كريشنا.. هاري هاري. هاري راما.. هاري راما.. راما راما.. هاري هاري.

كل الناس هنا يحفظون هذه "الأنشودة" لكثرة ما ترددها في الشوارع كل يوم جماعة "كريشنا".. بل إنهم لا يرددون غيرها.

لجماعة كريشنا مجلة دورية تصدر بالإنجليزية وبالفرنسية.. اسمها: "باك توغود هيد"، سقط في يدي أحد أعدادها القديمة، فوجدت فيه تصريحاً لرئيسهم الأعلى برابهوبادا حول إحدى الأزمات الاقتصادية، يقول:

- المجتمع لا يمكن أن يعرف التنظيم الطبيعي إلا على المستوى الريفي. إذا نحن عشنا حياة ريفية، نأكل من عطاء الأرض، من الزراعة، نستطيع أن نلبي بسهولة كل احتياجاتنا، دون حاجة إلى الطاقة أو البترول.

قال السائل:

- ولكننا نستعمل البترول كوسيلة من وسائل التدفئة أيضاً؟!

- أجاب:

- إنه من السهل جداً أن نتخذ الحطب بديلاً للبترول!

كان يغزو قلوب الشباب النافر من حضارة اليوم.. فكثيرون يتخطفهم الحنين إلى الريف والبساطة تحت ضغوط الحياة الحديثة. هناك أناس كثيرون يجدون أنفسهم في مثل هذه الدعوات.

إن برابهوبادا يعلم أن "المدنيّة" في نظر بعض الشباب "مكينة" طاحنة لا تكل ولا تمل.. ولم تستطع أن تملأ الفراغات العريضة في أرواح هؤلاء ونفوسهم، فبقيت الحياة عبارة عن "مهمة" صعبة، يجب أن تنفذ في أقصى سرعة. لهذا يؤكد، برابهوبادا في دعواته ونشراته، على الطبيعة والريف وتربية الحيوانات، ورفض كل أدوات المدنية الحديثة.

وبعد أسابيع من ذلك اللقاء امتلأ رأسي بوقع طبول جماعة "كريشنا" فتناولت كتابهم من جديد: "بهاغافاد – جيتا" وأخذت أقرأ..

كان على ظهر الكتاب الغليظ عبارات لعدد من القادة والمفكرين والفلاسفة كغاندي.. وهيجل.. وأندريه مالرو.. ولاتزا ديل فاستو. وهؤلاء الذين ازدان غلاف الكتاب بعباراتهم، اتخذوه على أنه مشروع فلسفي، وليس معتقداً دينياً. أما بعضهم فقد اتخذه قصيدة شعرية

جيدة، مثل "كانت" و"لامرتين".. فالهنود يخلطون فلسفاتهم بكثير من المثاليات والخيال .. يخلطونها أيضاً بالخرافة والتأليه و"التدين".

بعد أن فرغت من ألـ"بهاغافاد – جيتا"، قررت أن أذهب شخصياً للتعرف على جماعة الكريشنا في عالمهم الغريب.. قررت أن أذهب إلى مقرهم.

كنت أتحمس.. وأتحمس.. لدخول عالم "كريشنا" الغريب. وكنت على ثقة بأنني سأكون على محك تجربة جديدة، لن تكون على مستوى هائل من الذكاء، ولكنها على الأقل ستكون شيقة!

في طريقي إلى مقرهم في الحي السادس عشر بباريس، أخذت أراجع بعض معلوماتي عنهم.. كنت أضحك أحياناً، وأحياناً أؤيد.. وأحياناً أنكر.

وجدت في فلسفتهم بعض المثاليات، وبعض الروحانيات.. وبعض السخافات.. مرة يحاولون أن يأخذوا ببعض نصائح الصالحين، ومرة ببعض أساسيات الأديان، ومرة ببعض الطقوس الخرافية التي لا يمكن أن تبقى على حياتها إلا في البلدان البدائية كالهند!

يحرمون شرب الشاي والقهوة.. ويرون فيهما نوعين من أنواع السموم.. يدرجونهما ضمن المخدرات والمسكرات والتبغ.. ويرون أنهما يستحثان هدم الإدراك العقلي الحقيقي. أي أن من شأنهما تعطيل القوى العقلية، والأهم من ذلك فهما يعطلان التركيز في الإنصات الروحاني الذي يتم بين كريشنا وتابعيه!

يحرمون أيضاً أي علاقة جنسية يمكن أن تتم بين رجل وامرأة بدون زواج. وهذا قانون استعاروه من كل الأديان السماوية، ولكن جماعة الكريشنا يعودون، فيضيفون إليه تحريمهم لأي علاقة جنسية بين الزوج والزوجة ما لم يكن الغرض منها هو الحمل والإنجاب، بمعنى أنه لا يحق للزوج مجامعة الزوجة بعد الحمل، لأن غرض الجماع قد تحقق سلفاً، وهو الحمل، وعلى الزوج أن ينتظر حتى تفرغ زوجته ما في بطنها.. وهكذا.

وكريشنا في كتابه "- بها قافاد- جيتا" يفلسف هذا القانون على هذه الطريقة: بما أن النشاط الجنسي الذي يتم بين الزوج والزوجة، لابد أن يكون غرضه إنجاب أطفال يتبعوني، فيجب -بناء على ذلك- أن يظل هذا النشاط مقدساً، أي لايمارس أبداً دون هذا الهدف.

إنهم يحرمون كذلك ألعاب القمار، ثم يحرمون تحريماً باتاً أكل لحم البقرة، لأن البقرة تُعدُ في الهندوسية أمًّا لكل الناس، فهي تطعمهم من حليبها، وفي حليبها الغذاء الأكثر فعالية لأي تقدم روحاني! وحليب البقرة، كما يقولون، يدفع إلى نمو أغشية المخ، وهذا من شأنه أن يسمح بفهم أعلى، وتطبيق أقوى، لمبادئ كريشنا!

وهم أنفسهم لا يأكلون اللحم عموماً.. لا لحم البقرة ولا غيره.. يقولون كيف نأكل جثث هامدة؟! ثم إن أكل اللحم يُعدُ عائقاً كبيراً للتقدم الروحاني! بل يدعون أنه لا يوجد أي كتاب سماوي يسمح بحرية أكل اللحوم.

لا يكفي أبداً لجماعة الكريشنا أن يكونوا "نباتيين" لا يأكلون اللحوم، بل لابد أن يقدموا دائماً إلى روح الكريشنا كل ما يعدون من طعام.. أي أنه عندما يصنع أحدهم طعامه، يجب أن ينوي أنه يقوم بذلك لا لرغبته ولحاجته، ولكن لأنه سيدخل السرور إلى نفس كريشنا.. وعليه عندما يعتزم الدخول إلى المطبخ أن يتبع قواعد محددة محرم عليه مخالفتها، أو الخروج عليها: لابد أن يستحم! ولابد أن يغير ملابسه بملابس نظيفة. وأثناء

الطبخ يجب ألا تلامس يده بقية جسده أو ملابسه، ومحرم عليه لمس الطعام الذي أعده، أي لا يجوز له أن "يذوقه" فكريشنا وحده هو الذي يذوقه! هذا عدا الأدعية والابتهالات التي يجب أن تسبق الأكل وتتلوه!

يعيش هؤلاء تحت سماء باريس، وفي أتباعهم الكثيرون من الفرنسيين وغير الفرنسيين.. وهناك منهم الملايين في شتى أنحاء العالم اليوم، التحقوا بالكريشنا على الرغم من أن عمر هذه "المنظمة العالمية!" التبشيرية لا يزيد عن عدد قليل من السنوات.

الهندوسية موجودة منذ أزمنة سحيقة، ولكن "برابهوبادا" ومريديه، عمر حركتهم سنوات قليلة فقط!

صخب عجلات الميترو الذي سيقودني إلى مقرهم، لم يكن يحجب عني هذه المراجعات في أفكارهم، وفي مبادئهم، وفي مستوى نشاطهم، ولم يكن يحجب عني أيضاً التوقعات المتنافرة لما سيقابلني عندما أكون بين صفوفهم بعد قليل.. لن يطردوني.. بالعكس.. فهم يدعون كل الناس لزيارتهم والاستماع إلى محاضراتهم، والمشاركة في ندواتهم وطقوسهم الدينية. لن يتجهموا

في وجهي، عندما أرفض أن أنخرط في جموعهم وأسلم لهم مقاليدي كتابع.. بل على العكس، فهم يصرون على إعطاء الناس صورة من الحرية في تقرير المصير. كل توقعاتي كانت تتكدس في بناء صور مختلفة ومتناقضة لعالمهم الصغير، داخل هذه البناية التي أعتقد أنها كبيرة جداً في عاصمة أوربية، ولا سيما باريس.

أشهد أنني انتظرت أمام بنايتهم، قبل أن أدفع الباب، لحظة.. طويلة!.. كنت أظنها لن تنتهي!.. لا أدري لماذا تلكأت كل هذه اللحظة.. بل إنني كدت أعود على أعقابي، وكأني أصحو من حلم!

.. دخلت!

عطور وأبخرة هندية كان يعج بها المدخل.. وعلى الحيطان رسوم وصور وخرائط هندية أيضاً!..

أمامي وراء حاجز صغير يشبه حواجز الاستعلامات شابان أوروبيان، فرنسيان على ما يبدو، بلا بنطلونات ولا قمصان، كان أحدهما في إزار أصفر فاتح.. والآخر في إزار وردي، وكأنهما يهبطان للتو من إحدى البواخر الهندية.. خلفهما أربعة أو خمسة رفوف محشورة

بالكتب، والنشرات، والصور والخرائط.. تقدمت نحوهما، فابتسما كلاهما قائلين بصوت واحد:

- كريشنا يحبك!.. ونحن نحبك!..

لا أدري ما هي إجابة هذه "التحية!" فاكتفيت بإيماءة أو إيماءتين من رأسي، الذي يكاد ينفجر من روائح البخور..

- ترى أن تدخل للمحاضرة؟!.. خذه يا فلان!.. (قال أحد الواقفين هنا).

لم أكن أعلم أن هناك "محاضرة".. إني جئت! فقط.. ابتسمت لهذا الـ"فلان" ثم انقدت خلفه كأي إنسان طيب جداً!.. ولكن بعد أن خطوت خطوتين نحو المصعد دعاني الآخر الذي لم يغادر الحاجز:

- أول مرة تحضر إلى هنا؟!

- نعم!

- هكذا بدا لي.. لأنك كدت تركب المصعد بالحذاء.! اخلع حذاءك!

خلعت حذائي.. ثم طلب أن أخلع جواربي أيضاً

ففعلت.. ثم ناولته كل "العدة" ليضعها بين أحذية كثيرة كانت تتراكم خلف الحاجز!

- أنت هنا في منزل "كريشنا" والدخول هنا بالحذاء ممنوع.. كل الذين سبقوك حفاة مثلك.. لاتخف على أي حال، فالبناية "مغسولة" بالماء والصابون من أولها إلى آخرها.

مرة ثانية أعطيته برأسي إيماءة أو إيماءتين.. ثم صعدنا نحو الدور الثالث.

هناك كانت في انتظارنا صالة واسعة مليئة بالناس.. وكلهم جلوس على الأرض. بعضهم كانوا حليقي الرؤوس، عدا "زعازع" من الشعر تشبه أذيال القطط، كانت تتدلى حتى آذانهم أو أكتافهم، وكان على جباههم خطان أصفران مرسومان بمادة ما.. عرفت فيما بعد أنهم يدعونها "لاك" وأنها توضع على جباه أتباع كريشنا لتمييزهم عن الآخرين. عرفت من هيئة هؤلاء أنهم من "أهل البيت".. أما البقية فكانوا – مثلي – يحتفظون بكل شعورهم!.. وبنطلوناتهم!.. وليس على جباههم إلا "العافية!".. وهم جاؤوا إلى هنا للاستماع!.

في نهاية الصالة، كان يبرز شاب "كريشناويٌ!" لايتجاوز عمره الخامسة والعشرين.. غربي.. ولكنه ليس فرنسياً.. كان يظهر ذلك في لهجته. لعله أمريكي، وكان يلوح في يده بكتاب غليظ وهو يقول:

- هذا الكتاب معترف به في كل أنحاء العالم، كخلاصة لكل المعارف الروحية.. هذا الكتاب لايقرأ في الهند فقط، ولكنه يُدرَّس إجبارياً في كل الجامعات الشرقية؛ لقيمته الثقافية والتربوية والشعرية، وفوق ذلك.. الروحانية.

تبينت من بعيد عنوان الكتاب، فوجدته الكتاب نفسه الذي سبق أن أهدوه لي (بهاغافاد – جيتا).

- ثم أردف قائلاً:

- كريشنا هو الأعلى.. وأنتم باعتناقكم مبادئه يمكنكم أن تحتفظوا بكل عاداتكم وتقاليدكم واعتقاداتكم.. وما عليكم إلاّ أن تضيفوا إلى كل ذلك تعاليم كريشنا. تأكدوا أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ السعادة (!!) وكريشنا جاء ذكره في كل الكتب

السماوية.. وقد وصلتنا عن طريق هذه الكتب معلومات وافية عن حياته وعلاقته بالعالم المادي.

ثم ذكر بعد هذا أن كريشنا كتب القواعد الأساسية الخمسة للمعرفة.. وهي:

- الأعلى.
- الطبيعة والعالم المادي.
- الكائن الحي.
- الزمن الأبدي.
- الزمن الأزلي.

ثم تطرق إلى الكون، وأنه لم يوجد صدفة. فهذا التناسق والنظام لابد لوجوده من سبب، وهذا السبب هو "الذكاء العلوي". ثم قال بأن الناس في هذا العالم المادي يعانون من أربعة عيوب "نقص" تحجب عنهم المعرفة التامة، أهمها: الخداعات المادية، كأن يعطي كل واحد منّا لنفسه هوية معينة، مثل أن يقول بأنه رجل أو امرأة، فرنسي أو أمريكي أو صيني. فقير أو غني أو أسود أو أبيض. كل هذه الصفات المادية، ليس لها أي

علاقة بالصفة الحقيقية التي تميز كل هؤلاء الناس، وهي الصفة الروحية الخالدة التي يجب اعتبارها الحقيقة.

ثم أضاف:

- كلنا نرتكب أخطاء المهاتما غاندي، الذي أصرَّ، بدافع التشبث بنظرياته السياسية، على حضور اجتماع انتخابي، على الرغم من تحذيرات سكرتيره الخاص بأنه سيقتل، وقد قتل فعلاً! لقد تعرض لما أسماه محدودية الحواس، فعندما ننظر إلى الشمس مثلاً نراها صغيرة جداً. ونحن نعجز عن سماع ما يقال في الغرفة المجاورة. كما أن الذكاء نفسه محدود!!

هنا نهض أحد الحاضرين من الضيوف يقول للسيد المحاضر بصوت مرتفع:

- قلت إن غاندي كان بإمكانه أن يتجنب الموت.. هل ترى أنه يمكن لعاقل حكيم ذكي كغاندي أن يخشى الموت.. الموت يا سيدي ليس حاجزاً لرجل يريد أن يبني!..

- الأسئلة تلقى بعد المحاضرة لو سمحت! (ردّ المحاضر).

- ولكني أريد أن أناقش لا أسأل!

قام أحد جماعة المحاضر يقول للضيف:

- دعه يكمل.. إنه في العالم الروحي الآن.. أما أنت فمازلت في العالم المادي!

هنا ثارت حفيظة الرجل:

- هذه مجرد كلمات! من قال لك: إنني في العالم المادي.. أنت هنا كالخروف يسوقك هذا الشخص حيث يشاء.. أما أنا فأريد أن أنتقد.. أن أسأل.. حتى أتوصل إلى الحقيقة!

ثم استأنف محاضرنا بعودة جديدة إلى تعاليم كريشنا، والعالم المادي، والنقص الروحي عند إنسان اليوم الذي لانعدام الحماس الديني لديه.. فالناس يسعون إلى الانتفاع من النظام القائم، ولكنهم لايعملون على إصلاحه. ثم أخذ يحث على "عدم" العمل.. وعدم المشاركة في النشاطات الاجتماعية المختلفة، لأن الذين يعملون ويشتغلون هم مجرد "بهائم".. وهنا أيضاً عاد الرجل الذي سكت قبل قليل يناقش.

- تقول إن الذين يعملون عشر ساعات يومياً هم

أناس غير طبيعيين.. أو أنهم مجرد بهائم.. وكان عليهم أن يعملوا مثلك.. أي أن يعمدوا إلى التفرغ للدعوة لـ"كريشنا"والعمل من أجله.. ولكن.. لو أن خباز الحي لايعمل ذلك المقدار من الساعات، هل كنت تستطيع أن تحصل على خبزك اليومي!

- الآن الخبازون مكرهون على العمل عشر ساعات يا سيدي.. وهذه حالة غير طبيعية. وأنا أستطيع أن أحصل على خبزي اليومي دون الحاجة إلى العمل!

- أنت لم تجب حقيقةً على سؤالي.. هل تعتقد أنه كان بإمكانك أن تكون في هذه البناية الكبيرة لو أن المقاول لم "يعمل".. ولم يتعهد بناءها؟!

- نحن مستعدون للعمل داخل النظام لتصفيته.. نحن لا نقول إن الخبازين يجب أن يتوقفوا عن العمل!.. ولكن نقول إنه لا بد أن يضيفوا إلى حياتهم تعاليم كريشنا!

- كنت أعلم أن هذه هي غايتك قبل مجيئي إلى هنا. سؤال آخر.. تضربون المثل في الغباء بـ"الحمار" وفي الذكاء بـ"البقرة" من قال لك: إن الحمار أغبى الحيوانات!. وأن البقرة ذكية؟!

- الحمار يعمل أعمالاً شاقة!

- ألهذا كان غبياً.. أو أنه كان أقل ذكاءً من البقرة؟

- نعم!.. ولهذا لابد أن يقال عن الرجل الذي يعمل كثيراً بأنه حمار.

- إذاً كل الحاضرين هنا في هذه الصالة من غير جماعتكم هم، في نظرك، حمير، لأنهم كلهم يعملون عشر ساعات يومياً؟!

ضاق المحاضر بنقاش هذا الإنسان "العاصي!" فطلب إليه أن يسكت، ولكن الرجل يستأنف وكأن المحاضر العتيد لم يطلب إليه سوى الاستمرار في النقاش وطرح مزيد من الأسئلة.. فاضطر المحاضر أخيراً إلى "طرده!" من المكان.. فتبعه، احتجاجاً، عدد من الحضور؛ لأن المحاضر كان يجب أن يضمن لكل من جاء إليه حرية الكلام والمناقشة، والأخذ والرد.!

انتهت المحاضرة.. فجاءت مفاجأة جديدة! هذا الشاب دعا الحاضرين إلى الانتقال إلى صالات أخرى لتناول وجبة الغداء.. أو العشاء..لست أدري، فقد كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر.. وكل الحاضرين هنا

كان عليهم أن يشاركوا في تناول هذه الوجبة.. بل ليس هذا فحسب؛ فقد دعاهم للأكل كل يوم - إن شاؤوا - وبهذا يستطيعون أن يدخروا ربع مرتبهم شهرياً.. ثم قال إنه يستطيع أن يدعو كل سكان باريس (12 مليون نسمة)، وهو لا يخشى أي نقص في التموين؟!

قلت في داخلي: يا ترى من "يمون" هذا اللعين؟! ثم قررت أن يكون هذا السؤال ضمن نقاشي للمسؤول، والذي سأعمل جهدي على أن يتم بعد الفراغ من الأكل!

كنت أتوقع أنني سأرى من المأكولات ما لم أره من قبل!.. ثم قلت بصوت مرتفع!

- ماذا أصاب هذا المسكين الملقى على الأرض؟!

انتفضت "دومينيك"في مكانها هلعاً، فهي كانت غافلة، أو سارحة، وسؤالي أيقظها من رحلة طويلة لم يكن يعلم مداها أحد!

- أوه!.. لقد أخفتني!

ثم وضعت يدها على صدرها!.. تلهث!.. وأردفت، وهي تنظر إليَّ بابتسامة معتذرة، خجلة:

- ولكن أي مسكين تعني؟؟

أشرت إلى أحد "الشباب"!.. أعني الكريشنا!.. فهو كان لايزال يغرس جبهته في الأرض أمام "كنبة" حمراء أنيقة مغطاة بكل أنواع الزهور والورود.. كان فوق هذه الكنبة أيضاً رجل.. عفوا.. صورة فوتوغرافية لرجل!.. وقد وضعت الصورة في إطار ذهبي أنيق، يزيد طوله عن المتر، وعرضه عن الخمسين سنتيمتراً.. أجابت دومينيك:

- إنه يسجد!

- يسجد؟!.. ولمن يسجد؟!

- لصاحب الصورة.. "برابهوابادا" ممثل كريشنا على الأرض!

ثم تابعت:

- أي تابع من أتباع كريشنا يدخل إلى هذه الصالة أو يرى صورة بربهوابادا عليه أن يسجد!

- مرة واحدة؟! كلما دخل!.. وكلما رأى الصورة!

- أجلت نظري في كل أنحاء الصالة.. كان الموجودون هنا خليطاً من أتباع كريشنا ومن الزائرين.. وكلهم ينتظرون "الأوامر" بالانتقال إلى مكان الأكل.

دومينيك هذه كانت من جماعة كريشنا، وهي في حوالي الثانية والعشرين من عمرها. فرنسية، شقراء، جميلة جداً، وأشهد أن هذه الألبسة الهندية التي كانت تندس فيها دومينيك، ككل الآخرين والأخريات من زملائها، قد زادتها حسناً ووداعة. كنت أتألم لها وهي تضيع في براثن هذه الوثنية الهندوسية. كان إلى جانبها طفل صغير، اعتقدت أنه في العاشرة من عمره.. سألتها:

- هذا أخوك؟!

- هذا ابن صديقتي "تيسا" التي تقف هناك!

وأشارت إلى امرأة بدينة كانت تستند إلى أحد جوانب باب مواجه لنا الآن. ثم وضعت يدها على رأس الطفل، "تتحسسه" وتداعبه في حنان وهي تتابع:

- أنه يستعد للرحيل!

- الرحيل!.. إلى أين؟!

- إلى فرجينيا.. في الولايات المتحدة الأمريكية!

كنت أظنه سيذهب إلى هناك مع أسرته، فاسم أمه "تيسا" ليس فرنسيا.. قلت:

- سيعود إلى بلاده إذن؟!..

- إنه إنجليزي..

- ولماذا فرجينيا؟!

- كل أطفال كريشنا، عندما يبلغون اثنى عشر عاماً، يرحلون وحدهم إلى فرجينيا، وهناك يتمكنون من العمل في هضباتنا الزراعية الشاسعة.. يزرعون.. ويسعون إلى خدمة "البقرة" وحمايتها!

- أي بقرة؟!

- كل بقرة!

- ولماذا الريف "دائماً" يا دومينيك؟!

- لأننا لا نريد المدينة.. نحن ندعو إلى الهجرة إلى الريف لأن هدف الوجود هو أن نعيش ببساطة لكي نجد الوقت الكافي لتطوير الروحانية.

- ثم سكتت قليلاً، واستأنفت بعصبية:

- هذه الاختراعات وهذه المكائن الموجودة في كل حقول الإنتاج أوجدت البطالة.. بطالة الأيدي، وبطالة العقول! ثم إن الحروب.. الحروب يا سيدي.. تنصب

دائماً على المدن والمناطق الصناعية، وليس على الحقول والأنهار!.

هنا كانت دومينيك تسرح!.. لقد تحوَّلت إلى شاعرة أكثر مما ينبغي!

استمرت:

- في الحرب الأخيرة.. مثلاً في الهند.. كان من السهل أن تلاحظ أن أكثر القنابل تفجرت على كالكوتا!

كانت أمثلتهم دائماً من الهند..

وأستأنفت:

- والناجون من الحرب.. يا سيدي.. يتجهون دائماً إلى الريف.. إنهم يجدون فيه الملجأ.. يأكلون من نتاج الأرض، ويشربون من حليب "البقرة!"

قلت وقد امتلأ صدري غيظاً:

- البقرة أيضاً!.. البقرة في كل حين!.. لماذا لايكون الحليب حليب النعجة مثلاً؟!

استدارت دومينيك نحوي وأخذت تشد على حروف كلماتها وهي تنخزني في صدري بسبابتها النحيلة:

- البقرة هي الثروة الحقيقية للإنسان، وهي أنبل الحيوانات وأذكاها، وحليبها هو وحده القادر على دفع نمو القوى العقلية والروحانية.

- قلت لها:

ولكنكم ما زلتم، حتى الآن، تنتشرون في المدينة كالدخان.. لماذا لا تذهبون أنتم إلى الريف؟!

- نحن هنا في المدينة بشكل مؤقت.. نحن هنا لأداء مهمة، وعندما تنتهي مهمتنا سنرحل.

كانت مهمة دومينيك وزملائها هي التبشير بهذه الوثنية الهندوسية..

بعد حديث امتد لدقائق عن كل شيء، وفي كل شيء، وجدتني أندهش لكلام كانت تقوله دومينيك كفتاة أوروبية عن المرأة ودورها.. كانت تقول:

- على منطق الهجرة إلى الريف، فإن الرجل ستكون الأعمال الشاقة من نصيبه، كالزراعة والحرث، يساعده في ذلك الثور والحصان.. أما المرأة فدورها أن تحلب "البقرة"! وتنظف البيت، وترعى الأطفال..

- ولكن بنات جنسك من الفرنسيات، وغيرهن من

الأوروبيات، يناضلن من أجل اقتسام كل شيء مع الرجل!..

- نحن نلاحظ كل تحركات المرأة التي تحاول مناهضة الرجل، وتسعى إلى تقليده.. هذه التحركات في الواقع ليست أكثر من مسرحية ساخرة مضحكة، تنتهي فيها المرأة دائماً بالتأكيد على أنها هي التي يجب أن "تلد!".. أو تنجب. المرأة – عناداً – تغالط نفسها، وتعتقد أن عملها كسكرتيرة، أو عاملة في المصنع، هو مصدر سعادتها وطمأنينتها، لكنها بعد حين تقتنع تمام الاقتناع بأن "السعادة" هي في الإنجاب، وفي رعاية نمو الطفل ومتابعته!

ربما كان في الكلام الذي تقوله دومينيك بعض من المنطق، وبعض من الواقعية.. هذا لا يهم الآن!.. بل الذي يهم هو أن دومينيك توقفت شيئاً ما عن الشعر!. ولست أدري لماذا قلت لها بعد لحظات:

- وعندما تموتين؟!

لم أكن أنتظر أن تصفعني بقضية صعبة، عندما قالت:

- عندما أموت تنتقل روحي بطبيعية متناهية إلى جسد آخر.. ربما جسد إنسان.. ربما جسد حيوان!.. تماماً كما تنتقل، أي الروح، من الطفولة، إلى الشباب، ثم إلى الشيخوخة، في الجسد الواحد الأول!

أجل! لقد كانت تعني "تناسخ الأرواح".. التفت إلى صوت شاب "من الكرشنا!" كان يسد بطوله وعرضه الباب المواجه.. الذي كانت تستند إلى أحد جوانبه المرأة.. أم الطفل الذي سيرحل إلى فرجينيا!

قال المحاضر:

- قبل أن نأكل نحن.. سنقدم الأكل معاً إلى كريشنا.. وهذا أمر سيتم في احتفال جماعي بعد لحظات!

تنحنح ثم تابع:

- غير هذا.. لابد من تقديم ضحايا الكريشنا.. وتقديم الضحية هو اعتراف ضمني بالعلوية.. وبما أن الحياة تضن علينا بإمكانية تحقيق هذه العملية للصعوبات المادية التي نواجهها جميعاً فهناك "ضحية" سهلة.. ممكنة.. وفعّالة.. وهي التغني بأسمائه "المقدسة" بعد

قليل أمام تمثاله. عليكم أن ترددوا هذه الكلمات: هاري كريشنا هاري كريشنا.. كريشنا كريشنا.. هاري. هاري. راما.. هاري راما.. راما راما.. هاري هاري..

رددها مرتين أو ثلاث، ملحنة مغناة على إيقاع بعض الطبول التي صاحبه بالضرب عليها اثنان من زملائه.. ثم سحب من خلفه لوحاً كبيراً، كانت تلك الكلمات مكتوبة عليه بخط واضح..

- هذا اللوح سيكون أمامكم عند الهيكل.. انظروا إليه وغنوا بصوت مرتفع!.. عليكم أيضاً أن ترقصوا.. وعملية الرقص سهلة جداً؛ لأن إيقاع النشيد نفسه ليس صعباً.. انظروا إليَّ جيداً..

ثم أخذ يغني ويحرك رجليه يميناً ويساراً مع وقع الطبول، واستمر كذلك حتى ظن أن كل من في الصالة قد أدرك طريقة الرقصة. ثم أحب أن يتأكد من قدرته على "التفهيم"، أو ربما من قدرتنا نحن على "الفهم".. فطلب أن نقوم معاً بتجربة أو تجربتين من الرقص قبل الذهاب إلى الهيكل. ولكن قبل أن يأذن ببدء التجربة الأولى، التفتّ أنا إلى دومينيك أسألها:

- هل يتوجب على كل الناس هنا أن يرقصوا أو يرددوا هذه الكلمات أمام الهيكل؟

طمأنتني بأنه "لا يتوجب"، ولكن يستحب منا كضيوف.. فقلت في نفسي: عليكم لعنة الله.. والله ما رقصت ولا رددت هذه الكلمات أبداً!!

ماجت الصالة بالمغنين الراقصين مرة أو مرتين.. أو قولوا: ثلاثاً.. ثم هبطنا السلم نحو الدور الأرضي من الباب نفسه الذي كان يسده هذا الشاب الطويل العريض!

الصالة التي تلقفتنا الآن، كان يحجب ثلثها الأخير ستائر حمراء غليظة، وهي خلف ثلاثة عقود حديدية صغيرة مزخرفة بنقوش شرقية أو هندية، فيها كل الألوان. ومن أرض الصالة كان يرتفع حاجز حديدي، لا يزيد طوله عن المتر، أوجدوه لمنع الواقفين هنا من لمس الستائر أو الاقتراب مما خلفها، كان هذا هو الهيكل:

سألت دومينيك:

- أعتقد أنكم ترددون كثيراً هذا النشيد، أو كما

تدعونه "الضحية"، حتى في الشوارع والساحات العامة!؟

- الحياة الإنسانية مناسبة جيدة لوضع نهاية حاسمة للتوجعات المادية، وهذا النشيد الذي نغنيه، أو هذه الضحية التي نقدمها، يجب أن تعلم أن من أنبل أهدافها جلب "السلام" إلى العالم.

سرحت أنا بعيداً أتفحص وجه هذه الفتاة التي غرر بها، وبفتيات أخريات وفتيان آخرين، وثنيّو الهند، بعد أن وجدوا الأرض الخصبة الممهدة بالضياع وبالخوف وبالتشرد.. هؤلاء الشباب التعساء قدموا أفئدتهم الفارغة لمروجي الخرافة.. فعلوا ذلك بعد أن خدعهم الواقع وخذلهم، ثم أخذ يهدده المستقبل بالسحق والدمار.. كان لابد أن يتعلق هؤلاء الشباب بأي خيط، حتى وإن كان وهمياً، فوجد هذه الأكذوبة التي يسمونها كريشنا، فربط مصيره بها، لأن فيها وعوداً كثيرة، وهذا ما يبحث عنه الآن أكثر الشباب في أوربا والغرب.

أتباع كريشنا الموجودون هنا في هذه الصالة شكلوا صفين عن يمين الهيكل وعن يساره.. ثم أخذوا

يطبلون.. ويغنون.. ويرقصون.. يشاركهم بعض الزائرين من الأوروبيين. ربما كان في هؤلاء الأخيرين من يعجبه هذا "اللحن" الهندي.. ليس إلاّ!

أخذت أصواتهم ترتفع!.. وترتفع!.. وأخذت حركات رقصهم تعلو.. وتعلو.. وأخذ عرقهم يتصبب من كل مكان.. وبعد دقائق.. وبهستيرية عجيبة مفزعة.. تحول غناؤهم إلى نواح.. وانقلب رقصهم إلى ركض وقفز!

الصالة كانت تختنق.. ورؤوس أكثر الحاضرين هنا تكاد تنفجر. لم نعد نسمع أي إيقاع. ولم نعد نميز واحداً من الآخر في هذه المجموعة التي كانت تشب وتشتعل.. كنا نسمع فقط ضوضاء قوية.. قوية.. تتزلزل لها كل خلايا أجسادنا.. وكنا نرى فقط أجساداً حمراء تتطاحن.. وتتطاحن.. في معركة ضارية مجنونة!.. كنا نخاف!.. كلنا كنا نخاف!

أخيراً.. انفرج الستار الأحمر الذي كانت تمنعنا منه القضبان الحديدية! وخلف هذا الستار.. على سدة يزيد ارتفاعها عن خمسين سنتيمتر.. كان هناك تمثالان أو صنمان.. أو هما في الحقيقة "عروستان" من البلاستيك،

تشبهان تماماً عرائس الأطفال، طول كل منهما حوالي متر واحد، الأولى تمثل امرأة هندية كثيفة الشعر، والثانية تمثل رجلاً هندياً أيضاً، ذا لحية غزيرة سوداء وعليهما – كليهما – من الحلي والتيجان والأقراط ما ينوء بحمله "حمار!"، وحولهما كانت صور ورسوم صغيرة لهنود آخرين، ولبقر وعجول، وهلم جرا.. كان التمثالان محاطين بمباخر كثيرة، وبشموع كثيرة أيضاً، ولكنها لم تكن تغني عن أضواء الـ"بروجوكتورات" الساطعة نحو التمثالين، وهي كانت مثبتة في سقف الصالة..

سحبت دومينيك من كتفها نحوي، فأدركت هذه اللعينة أنني سأستفسر، فبادرت قبل أن أتفوه بكلمة واحدة:

- هذا هو كريشنا.. وهذه هي زوجته الجميلة "راداراني"

- أهلاً وسهلاً .. هو متزوج إذن!

أعتقد أنني. بهذا السؤال الساخر، قد جرحت مشاعر دومينيك الدينية.. فقد لكزتني بنظرة حانقة من

ركن عينها الجميلة الواسعة، ثم أدارت وجهها تغني وترقص مع الآخرين.. أجل!.. فهؤلاء لم يتوقفوا بعد عن الركض والقفز والنواح.

عادت دومينيك بعد لحظة تقول:

- نحن نعمل على خدمة هذا التمثال والإخلاص له؛ لأنه الصورة التي يظهر تحتها كريشنا "سبحانه"!

لست أدري لماذا اشتعلت في نفسي رغبة جامحة في أن أصفع هذه الفتاة المعتوهة فعلاً.. لعلها بهذه الصفعة تستيقظ، فتسرع إلى انتشال نفسها من هذه "اللعبة" الخطيرة.. أو قولوا: هذه الخدعة السخيفة!

كدت – والله – أبكي لها، ولهؤلاء الفتيان والفتيات من أمثالها، الذين كانوا ينطرحون أمامي لحظتها تبجيلاً وعبادة لهذا الصنم.. لقد وصل بهم اليأس إلى مستوى الضرورة للتعلق بأي شيء، وللاعتقاد في أي شيء، إلى أن صار "الاعتقاد" هو في هذه العرائس البلاستيكية، وفي صور البقر والعجول والهنود!.. كل انتصارات زمانهم العلمية والفلسفية لم تحمهم من عبادة الأصنام.. بل لعلها، هي نفسها، السبب في هذه الانهيارات العقلية والنفسية والروحية!

- ضع يدك على اللهب!.. ثم امسح جبهتك!

صوت امرأة كان يداهمني من قريب!

التفت بسرعة نحو مصدر الصوت.. كانت فتاة أخرى، غير دومينيك، تحمل في يدها شيئاً يشبه الإناء الصغير.. تنبعث منه شعلة صغيرة، لم أعرف مصدرها، ابتسمت في وجهي، ثم كررت برفق:

- ضع يدك فوق الشعلة!.. ثم أمسح جبهتك!

أدركت أن لعبة الشعلة هذه هي إحدى فقرات هذه الطقس الديني عند جماعة كريشنا!.. نظرت إلى هذه الفتاة طويلاً دون أن أحرك ساكناً ثم حولت نظري نحو دومينيك ففهمت هذه الأخيرة أنني لن أفعل!.. وبهزة خفيفة من رأسها كانت تشير إلى زميلتها صاحبة الشعلة بأن تبحث عن "نمرة" أخرى.. فتخطتني إلى من كان يقف بجانبي!

هناك فتاة أخرى تدور على الحاضرين حاملة في يدها وردة.. وكان عليهم جميعاً أن يشموها. وقبل أن تقف أمامي اقتربت منها دومينيك تطلب إليها أن تتجاوزني.. ثم الْتَفَتَتْ نحوي لتقول:

- لماذا أنت عاص؟ يمكنك أن تجامل مضيفيك على الأقل!

وضعت يدي على كتفها، ثم اقتربت أهمس في أذنها:

- أنا محصَّن يا سيدتي.. أجل! محصَّن بكتاب اسمه: "القرآن"

- هزت كتفيها ككل البنات! ثم أدارت وجهها إلى حيث كنت أنظر!.. كنت أنظر إلى فتاة ثالثة أخذت تتقدم نحو الهيكل، حيث الصنم وزوجته.. كان بين يديها صينية كبيرة مليئة بأصناف من المأكولات.. وضعتها على السدّة، عند أقدام الصنمين، ثم عادت تخطو على قفاها إلى الخلف.. ثم .. سجدت!.. فسجدوا كلهم معها!

- يا مال الهلاك.

يبدو أنني قلتها لا شعورياً بالعربية.. وبصوت مسموع.. لأن دومينيك التفتَتْ تستوضح، فهي لم تفهم!.. لقد كانت تحسبني أكلمها!

- نعم ؟!

تخلصاً من الموقف.. أشرت نحو صينية الأكل! فقالت:

- لابد أن نقدم الأكل لكريشنا أولاً.. فمحرم علينا أن نأكل قبله.. لا بد أن يكون هو أول الآكلين!

في كل لحظة جديدة كانت ترتفع في نفسي نسبة الاعتقاد بأن هذه الفتاة وزملاءها هم مسلوبو العقل والاختيار فعلاً!

- الآن فقط يمكننا أن نأكل!

قالتها دومينيك وهي تسحبني من يدي نحو الدور العلوي!

كانت الستائر الحمراء قد أسدلت من جديد على كريشنا وزوجته، ليمكنهما الأكل وحيدين في اطمئنان"!!"

الدور العلوي خصصوه للذين يتكلمون الفرنسية من الزائرين، والدور الأرضي للذين يتكلمون الإنجليزية، وفي كل دور قسموا الزائرين إلى مجموعات، وكل مجموعة تتكون من أربعة أو خمسة أشخاص، وفي كل مجموعة تابع من أتباع كريشنا.. "يعتني" بالضيوف..

يتحدث إليهم.. ويجيب على أسئلتهم.. وطبعاً يشرح لهم أهداف الحركة وغاياتها.. وربما "اهتدى" على يديه بعضهم.. وهو لا يطلب منهم ذلك مباشرة، بل يجب ألا يطلبه أبداً كي يطمئن كل الموجودين هنا إلى أن الانقياد إلى هذه الحركة إنما يتم بناء على "قناعة" الفرد، وبمحض إرادته، وليس بالإلحاح.. فهذا يعطي الزائرين ثقة في كل ما يسمعون، ويعطيهم الانطباع عن أن معتقد كريشنا مَبنٍ على قواعد قوية، ليست في حاجة إلى توليد الإقناع بالطلب المباشر وبالإلحاح أو التودد.. والإلحاح والتودد من شأنهما التنفير.. لأن الناس سيكتشفون أن الغرض من كل هذا "السيرك"، هو الحصول على أتباع جدد فقط!.. وهذا سيحبط كل دبلوماسية "المنظمة العالمية" لمعتقد كريشنا!

الأكل يتكون من: سلطة خضار.. وسلطة فواكه مخلوطة بالكريم.. وحليب.. طبعاً حليب "بقرة!"

الأكل كان على الأرض.. وبلا شوكات ولا سكاكين.. إعلاناً للبساطة!!

- ستأكلين مع أي مجموعة يا دومينيك؟!

سألتها!.. فظنت أنني سآكل، وأنني أرغب أن أكون في مجموعتها!

- البنات في جماعة كريشنا لا يأكلن الآن.. إنهن يقمن بتقديم الأكل والخدمة حتى ينتهي الرجال!

أن تقول مثل هذا الكلام فتاة أوروبية فهذا أدهشني أيضاً!

تابعت دومينيك:

- ولكني سأطلب إلى أحد زملائي أن يعتني بك! أقنعتها بأنني لن آكل.. لأنني لست جائعاً!.. أو لأنني لا أحب الأكل البارد!

.. وطلبت إليها عوضاً عن ذلك أن تقابلني بالمسؤول عنهم في باريس. أريد أن أجلس إليه!

غابت عني دومينيك! لقد ذهبت تستأذنه!

في كل الصالات التي دخلنا إليها، وخلف كل الأبواب التي ولجناها.. وحتى في الحمامات.. وتحت الدرج.. وعلى الحيطان.. وفي السقوف.. كنت "أفتش" وأبحث عن هندي.. هندي واحد على الأقل.. أدخلت يدي في جيوبي. وطلبت من الآخرين أن يفعلوا مثلي، لعلنا نعثر على هندي واحد.. ولكن لا جدوى من البحث.

كل الذين داخل هذه البناية أوربيون، ولكنهم "متنكَّرون" في ألبسة هندية.. ويدفنون قلوبهم في وثنية هندوسية.

عندما اقتادتني دومينيك إلى غرفة رئيسهم! في الدور الثالث.. قلت في نفسي: الآن ستتحقق الأمنية!.. أخيراً سأقابل هندياً!

- إنه ينتظرك!

قالتها دومينيك وهي تدق برفق باب الغرفة التي كانت تقبع بها "ضالتي!".

- ادخل!

سمعت الصوت خافتاً، ينبعث من تحت الباب المغلق!.. نبرته لم تكن فرنسية.. لقد أصبحت على ثقة بأنني سأكون في حضرة هندي!

أغلقت دومينيك بيني وبينها الباب، بعد أن دفعتني إلى داخل الغرفة!. كان أمامي رجل حليق الرأس، وعلى مساحة صغيرة من رأسه "زعزع" من الشعر ككل الذين ينتشرون في أرجاء هذه البناية. كان في يده قلم!.. وكان ينكب على أوراق كثيرة تحتشد فوق المكتب

الحديدي الذي يفصله عني، دنوت حتى أسندت يدي – واقفاً – على حافة المكتب:

- اجلس!

قالها بهدوء.. دون أن يحرك رأسه.. ودون أن يحرك يده نحوي.. فجلست! وعندما جلست كدت أصيح! إنه ليس هندياً..! لقد تبينت وجهه الآن!

- أنا تحت أمرك!

قالها وهو ينظر إليَّ بابتسامة مجاملة مؤدبة.. فتبينت شيئاً آخر.. هو أن هذا الرئيس لم يكد سوى الشاب الذي فجر رؤوسنا قبل قليل بـ"المحاضرة".. كدت أقول له: هندي لله ياعم!.. ولكني حولت السؤال إلى هذه الصيغة:

- ألا يوجد في هذه البناية هنود؟!

لفجائية السؤال، كان يظن أنه لم يحسن الفهم.. أراد أن يستوضح:

- ماذا؟!

عدت أؤكد له السؤال، حتى لا يسيء الظن في مستوى فهمه:

- أنا أبحث عن هندي:

أسند ظهره إلى الكرسي، ثم قال:

- أعترف بأنني أيضاً لم أفهم!

قلت وأنا أتلفت حولي:

- مع ذلك فإن كلامي ليس على وجه كبير من الصعوبة.. أريد أن أقابل هندياً..

ألقى القلم الذي كان يلعب به بين أصابعه على المكتب.. ثم أسند مرفقيه على المكتب نفسه، وهو ينظر إليَّ في شيئ من الحدة:

- لا أعتقد، على أي حال، أنك طلبت مقابلتي للمزاح والتنكيت!..

وقبل أن يكمل قلت:

- كل ما أراه في هذه البناية الطويلة العريضة من أشياء وأفكار ينتسب إلى الهند بامتياز يا سيدي.. فلا تلمني إذاً أن استحوذ بي تصور قسري بأن لابد من العثور على "إنسان" هندي حقيقي.. واحد على الأقل!.. شيء عجيب.. أنني "أدوخ!"

مزحتي هذه لم تنل إعجاب السيد الرئيس، مع أنني

لا أشك لحظة في أنه كان يقدر مدى حيرتي في هذا العالم الغريب.. قال:

- ثم ماذا؟

عركت جبهتي طويلاً، وعيناي تشردان في المدى عبر النافذة الواسعة التي كانت تمد الغرفة - من الناحية الشمالية- بكل ما تحتاجه من ضوء، وتمدني – أنا – بكل ما كنت أحتاجه لحظتها من أمل في الفسحة والحرية.. أجل!.. لقد مللت هذه الوجوه المزيفة المستعارة.. وضقت بهذه الكائنات "الهوش!" كما نقول في إحدى لهجاتنا البدوية!

- من انتم؟!

هكذا سألته بعد أن تكبدت العناء في تهذيب صوتي، الذي كان سيأتي نزقاً مليئاً بالغيظ!

- أناس جاؤوا للدلالة.. دلالة الناس إلى "الحقيقة".

- أي حقيقة؟!

- كريشنا!

- هل هذه فلسفة أو دين؟!

- نحن نعد الفلسفة بدون دين مادة جافة، وليس لها أي قيمة عملية.. والدين بدون أساس فلسفي هو مجرد عواطف وأحاسيس.. ولكي يكون لدينا برنامج عمل فعال، لا بد أن يكون هناك توازن بين الفلسفة والدين!

- أنتم تقولون أحياناً: إن كريشنا إله؟!

- إله خفي!

كنت في داخلي ألعنه ابتغاء مرضاة الله!

- وهل هناك إله ظاهر؟!

- نعم!.. هو هذا الذي خلفك!

- التفت خلفي! فرأيت صورة فوتوغرافية لهذا الوثن "بربهوبادا" الذي مازال حياً يسكن الهند.

- ولكنكم تدعونه رسولاً أحياناً!

- كله واحد!

- لماذا هذه الملابس الهندية.. وهذه الزعازع، وهذه المادة الصفراء التي تضعونها على جباهكم؟!

- لتمييزنا عن الآخرين!

- لماذا تجلسون على الأرض دائماً..

- الجالس على الأرض يأخذ وضع الممارس لليوغا.. وهذا يزيد في تركيز الذهن.. ويبعث على التفكير الجدي.. والتأمل الفعّال.. إضافة إلى أن الجلوس على الأرض فيه راحة تامة للجسم.

- نشاط الحركة على ما يرام؟!

- نعم!.. فبرابهوبادا.. الذي خلفك!.. عندما ذهب عام 1965م إلى الولايات المتحدة، لم يكن يملك سوى أربعين روبية هندية.. كان يمشي وحيداً في نيويورك.. فبدأ يختلف إلى إحدى حدائقها العامة، يرقص ويردد نشيد "هاري كريشنا" الذي سمعتنا نغنيه قبل لحظات أمام الهيكل. بعد أيام قليلة فقط لم يعد يرقص ويغني وحيداً، بل كان يشترك معه في ذلك كثير من شباب نيويورك الذين أعجبهم ما دعاهم إليه. أسس هناك أول مركز كريشنا. والآن نحن ننتشر في كل أنحاء العالم. لنا ثمانون مركزاً في شتى أنحاء الدنيا.. وأتباعنا بالملايين. كل هذا في خلال عشر سنوات فقط!

- من يمولكم؟!

- هناك ثلاثة موارد مالية مهمة: الكتب والمجلات التي نصدرها.. فمثلاً تم توزيع أكثر من سبعة ملايين نسخة من الكتب في العام الماضي فقط. ومجلتنا يوزع منها شهرياً أكثر من مليون نسخة في بريطانيا فقط، وحوالي خمسمائة ألف نسخة في فرنسا. فالمجلة تطبع بالفرنسية والإنجليزية. وأسمها: "باك توغود هيد"!

- والثمن؟!

- لأن ما ننشر يتم طبعه بكميات كبيرة جداً، سواء كان ذلك من الكتب أو من المجلات، فإن النسخة في حد ذاتها لا تكلفنا كثيراً.. ونحن نوزعها على الناس في الشوارع، دون أن نحدد ثمناً معيناً.. كل يدفع ما تجود به نفسه..

- الناس يدفعون بكرم عندما تبدون لهم هذا المستوى من الأريحية؟!

- هذا صحيح!.. ثم هناك المصدر المالي الثاني، وهو "معونات" بعض أعضاء الحركة، والمصدر الثالث هو بعض النشاطات التجارية والصناعية، فمثلاً لدينا في

لـوس أنجلـس فـي أمريكـا مصـنع للعطـورات وأدوات التجميل!

- ما الهند بالنسبة لكم؟!

- إنهـا كواقـع معـاش الآن مجـرد "عـاهرة"، لأنهـا بدأت تنخرط في ماديات العصر الحديث.. أما من حيث كونهـا الأصـل فـنحن لا ننسـى أبـداً أنهـا مسـقط رأس كريشـنا، وأن معلمينـا الكبـار هـم هنـود، وأن قلوبنـا الآن هندية!

- هل تتكلم الهندية؟!

- أتكلم السنسكريتية!

(للملاحظـة: هـذه اللغـة هـي إحـدى اللغـات القديمـة فـي الحضارة البراهيمية في الهند).

- عنـدما تـتكلم الفرنسـية تتكلمهـا بلهجـة أمريكيـة.. أليس كذلك؟!

- أجـل!.. فأنـا أجـيء مـن أمريكـا.. ولـدت فـي نيويورك!

- ودينك ما هو قبل أن تتبع معتقد كريشنا؟!

- اليهودية!

(للملاحظة: في اتباع كريشنا يهود كثيرون).

- هل عارض أهلك اعتناقك لمبادئ كريشنا؟!

- نعم!.. لأنهم لا يفهمون شيئاً!

- متزوج؟!

- نعم!.. من إحدى عضوات كريشنا.. التحقت أنا وهي بالحركة في وقت واحد.. كنا في لندن يومها، وبعد شهور قررنا أن نتزوج!

- لك أولاد؟!

- لا!..

- تنظمون رحلات لأتباعكم إلى الهند؟!

- نعم!.. مرة واحدة -إجبارياً- كل عام!

- كيف وقع اختيارك مسؤولاً عن مركز باريس؟!

- لست المسؤول الوحيد.. هناك شخص آخر اسمه "ديلير" وهو موجود الآن بمزرعتنا في "تورين" خارج باريس!

- لديكم مزرعة خارج باريس؟!

- مساحتها ثمانون هكتاراً.. وبها مدرسة للأطفال..

أعني أطفال المتزوجين من أتباع كريشنا.. وزوجتي هي المسؤولة عن هذه المدرسة.. كما توجد بها معامل صغيرة للرسم، والخياطة، وصناعة الفخار.

- برابهوبادا.. هذا الذي "خلفي!" يقيم في الهند كما عرفت.. ولكن هل له تنقلات؟!

- أجل!.. فهو يتنقل بين عواصم العالم باستمرار.. وقد أتى إلى باريس مؤخراً.. إن مهمته تحتم عليه التنقل باستمرار.

- ما نوعية علاقتكم مع الحكومات في البلدان التي تقيمون بها؟!

- الحكومات لا تعرف شيئاً كثيراً عنّا، ولا عن مهمتنا.. لأن السياسيين لا يأتون إلينا.. لكني أعتقد أنهم يعرفون أننا نستطيع أن نمدهم بكثير من النصائح (!!) لإصلاح الحكم!.. ولتحسين النظم!

- وقادة الأحزاب السياسية؟

- كثيرون منهم مهتمون بنا.. وقد وقعت لقاءات عديدة بين معلمنا الروحي برابهوبادا وبعض القادة السياسيين الحزبيين!

- أنتم إلى أي النظم أقرب؟!

- نحن لسنا شيوعيين ولا رأسماليين.. نحن أتباع معتقد كريشنا فقط.. وكل الناس، في كل مكان، يجب أن يصبحوا كذلك.. وهذا هو أهم أهداف حركتنا!

- هل وقع أي تصادم بينكم وبين بعض الأسر التي غادرها بعض أولادها من أجل الالتحاق بكم؟!

- وقع!

- كثيراً؟!

- بين بين!

- تعبت من الكلام، فرميت رأسي إلى الخلف على الكنبة، وبعد قليل أخذت أنظر إلى السقف وأنا أقول له:

- الغريب أنك حدثتني عن كل شيء.. عن برابهوبادا.. عن كريشنا.. ولكنك نسيت شيئاً مهماً.. مهماً جداً.!

- ما هو؟!

- البقرة.. أجل!.. البقرة يا سيدي!

- أنت تسخر، ولكن يجب أن تعلم أن البقرة لديها

"ضمير!" روحاني، تفوق به كل الحيوانات الأخرى! وهناك تطور تمر به كل الحيوانات!

- هذه نظرية مادية!.. أعني نظرية تطور الأنواع!

- إن جاءت كما قدمها داروين فهذا صحيح.. ولكني أقصد التطور الروحي. الكائن الحي يمر بثمانية ملايين وأربعمائة ألف "نوع" مختلف، قبل أن يبلغ الهيئة الإنسانية، وهي الهيئة التي تمكنه من الإدراك الروحي!

- ولكنها على هذه الصورة التي اخترت تبقى أيضاً مادية. دعنا من حديث البقرة الآن، وقل لي هل تطلبون "مواصفات" معينة فيمن يريد أن يلتحق بكم؟!

- أبداً.. نحن لا نطرح أي شرط.. كل ما نطلبه هو اتباع تعاليمنا!

كان سؤالي هذا سخيفاً من حيث الظاهر.. ولكن قبل أن أطرحه، لست أدري لماذا استحوذ بي اعتقاد عجيب غريب بأنه سيقول في الإجابة عليه: أهم الشروط التي نطلبها فيمن يلتحق بنا هو أن يكون مختل العقل!

- أنتم تعترفون بالرسالات السماوية كالإسلام.. وقبله اليهودية والنصرانية؟!

- نعم!

- وأنتم تقولون إن كريشنا تعاليم دينية شاملة كاملة لا تقبل الزيادة ولا النقص؟

- نعم!

- تقولون أيضاً إن هذه التعاليم وجدت قبل خمسة آلاف سنة، أي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.. بمعنى آخر قبل كل الأديان السماوية؟! وهذه الأديان إنما هي امتداد لتعاليم كريشنا؟! أعلم يا سيدي أن الدين الإسلامي آخر هذه الأديان وخاتمها، إنما جاء ليدحض الهندوسية. هي وكل المعتقدات الأخرى الوثنية.. إنه يناقض تماماً كل خرافاتكم وخزعبلاتكم التي رأيت وسمعت.. وإنه جاء بما لم تأت به ديانتكم "الشاملة الكاملة!" كما تدعونها.. كيف يمكن لكم التوفيق بين "تخليطكم" هذا؟

- كل ما قلت لا يغير شيئاً في النتائج المقررة، كل ما جاء في الأديان السماوية كان قد جاء قبلاً في معتقد كريشنا.. وما دمنا نتحدث عن كلام الله، فإن كلام الله لايتضارب!

- أنت أيضاً تعتقد أن معتقد كريشنا هو من كلام الله؟!

- نعم!..

- والقرآن؟!

- هو الآخر كلام الله!

- ولكن أعتقد أنك لم تفهمني قبل قليل.. قلت لك إن القرآن يدحضكم، ويدحض كل ترهاتكم، فكيف توفِّق بين أقوالك؟!

- وفيم يدحضنا حسب تعبيرك؟!

- إنه يدحض عقائدكم، وتفسيركم لدور الإنسان، وفلسفتكم للحياة. يدحض كل طقوسكم الوثنية التي شاهدت قبل لحظات. ثم أزيدك شيئاً آخر: أنتم تقولون: إنه بإمكان الإنسان أن يقابل الله في أحد أطوار حياته، أليس كذلك؟!

- نعم! بالتأكيد!.. ولكن بشرط أن تصدر بذلك "تعليمات" من المعلم الروحي برابهوبادا.. ممثل كريشنا على الأرض. إنه لن تتيسر لك مقابلة مجرد شخصية آدمية مهمة دون أن تربطك محبة بأحد

المقـربين إليـه.. ولكـي تقابـل اللـه، يجـب أن تحـب برابهوبادا، وتخلص له!

قلت:

- وهل تعتقد أن هذا في الإسلام.. أو في أي دين سماوي آخر؟!

- نعم!

- وفوق ذلك تكذب وتفتري!

- أنا لا أكذب!

- لقد زدتني عيباً آخر فيك.. وهو الجهل!

- تأدب!

- هذه حقيقة أواجهك بها الآن.. أنت جاهل، أنت لا تعرف الإسلام.

- أنت جئت لتهديني إلى الإسلام، أم لتتحدث معي عن معتقد كريشنا؟!

خرجت وجسدي يتصبب عرقاً!

خرجت!.. وفؤادي "ينزف" لأن مثل هذه الدعوات الخرافية تجد مجالاً، وتجد أتباعاً يعدون بالملايين في

خلال سنوات قليلة، بينما نجد ديناً سامياً كالإسلام، لا يتمتع أهله والداعون إليه بحماس كافٍ يجعلهم يحققون له اليوم من الانتصارات ما يحققه مجوس الهند وغيرهم من فتوحات جيدة لخزعبلاتهم بين شباب الغرب وفي كل مكان!

خجلت!.. وحزنت!.. ثم – والله! – بكيت! إنها لم تكن فقط "ملاحظة" عن مسيرة بعض الفئات المنكسرة في الغرب.. ولكنها أيضاً النذير لمن ينام على وسادة غليظة لاهياً عن إثراء روحه بالقين!

تذكروا أن حوادث هذه المسرحية التي لا أعرف كيف أصفها لم تتم في أحد العصور السحيقة، أو قبل الميلاد، وإنما تمت في القرن العشرين. وحوادثها لا تدور في إحدى القرى البدائية الساذجة في أحد أحراش الهند، وإنما تدور في قلب باريس أزهى المدن، مدينة الأنوار، وعاصمة العالم!. كما يدعوها الفرنسيون!!

"أنيتا" في ستوكهولم

هناك ستلقى العيون الزرقاءالذبّاحة، وهناك ستعبث ما شئت بالشعر المنسدل كعناقيد الذهب.

هناك ستضع يدك في يد "أنيتا" الجميلة.. تلعبان.. وتصرخان. وتغنيان.. وتلوثان الثلج بشهقاتكما الغارقة في الأحشاء!

لو لم يكن في "أنيتا" سوى أنها تثير "الغيظ" في صدور بعض أصدقائي، لكان ذلك كافياً لدفعي للذهاب من أجلها إلى السويد.

رائعة "أنيتا".. فهي تحول الإعجاب بها إلى "حقد".. وتجعل من كبريائها باعثاً للرغبة في أن

نتصدى لها باللعن والصفع.. إنها على النقيض من كل نساء الدنيا.. فإثارتها تجلب الإنفولونزا والصداع ثم لا تلبث أن تجلب "اللذة" البديعة.

ذهبت – فعلاً – إلى السويد.. وفي مطار "أورلاند" كانت أنيتا تبتسم.. وتمعن طعناً في العابرين وفي الواقفين من حولها!.. وكان قتلاها يطالبون بالنجدة!.. فعقدنا الصلح.. ولم أزد عن أن قلت لها خفية:

- كوني امرأة عادية!.. فأصدقائي يفضلون النساء الهادئات!

ستوكهولم لم تكن "أنيتا" فحسب، بل كانت أيضاً جوهرة الشمال المكسوة بالبياض.. البياض الكثيف الذي لا يكاد ينقطع أو يتوقف!.. بل لعل صرامة البياض هي التي أغدقت على أهل هذه البلاد كل هذا الزخم من الجمال، وأضفت عليهم كل هذا القدر من التسامح والهدوء، والارتقاء، بمقومات الحياة، فكل ما في مملكة السويد يدعو للإعجاب والإكبار، بل إنه مثار ضجر وغيره لدى الفرقاء الأوربيين ممن ينظون على مستوى متقدم من الرفاه والأمن الاجتماعي المنضبط. السويد

تفاجئهم دائماً بأن "الرفاه" هو أبعد من ذلك قيمة وشمولاً.

ستوكلهم كانت كذلك التزحلق على الجليد.. ورياضة صيد السمك. وكانت "لنغ" الذي يقترن اسمه باسم الألعاب السويدية ذات الانتشار الدولي. فهذا الرجل يعيش بعيداً عنّا.. يفصلنا عنه حوالي قرن من الزمان!.. ولكنه حاضر في بديهة كل عشاق الرياضة.

ستوكهولم كانت عواجيز يتمتعون، بضمان اجتماعي لا نظير له في الدنيا.. يمكن للعجوز أن يواصل العيش في منزل الصبا.. وهو لن يحتاج إلى الدخول إلى المطبخ.. ولن يغامر بسلامة أصابعه المرتعشة أمام أفران الغاز أو الكهرباء.. الأكل يأتيه مطهياً حتى منزله.. حتى سريره.. فالأسرة السويدية الكبيرة، من الملك إلى العامل، باتت إحدى مثاليات المجتمعات التي تروم التكافل وتسعى إليه!

ستوكهولم كانت "كارل ميلس" النحات المدهش.. وكانت "ميليسغارون" مكان إقامته.. ومكان شغله وإبداعاته "العبقرية" وفيه أيضاً كان يقول: "دعوني أبدع ما ظل النهار يشع".

ستوكهولم كانت المرأة "الفوقية" التي تقول للرجل: اسكت! متى شاءت، وتأمره بأن يتكلم متى شاءت!.. كنت أصعق عندما أسمع أن الأنثى السويدية تشتغل بالتلحيم والحدادة في أحد مصانع السفن.. وكنت أعدُّ ذلك "سابقة" للمرأة المعاصرة.. سأطلع المحكمة عليها.. وسأزود المدعي العام بملف كامل عنها، عندما تحين الفرصة للمرافعة ضد نساء اليوم.. أو عندما يأتي الوقت المناسب لتنفيذ أحكامنا السبقية ضد الجنس الثاني كما تسميه سيمون دو بوفوار!

ستوكهولم كانت هي نفسها مائدة العشاء التي تُعدّ في الخامسة أو السادسة بعد الظهر، (وليس بعد منتصف الليل!) وكانت أيضاً هي الرغيف المعجون بالسكر!.. ولعلكم فأنا شخصياً أحس دائماً بأن الأطباق السويدية عموماً كلها "حلا" وكلها عسل!

أخذنا "الجمل" السويدي الأنيق نحو المدينة.. وهو كان بكل بساطة أحدث موديلات "فولفو" فخر الصناعة السويدية، وكان يقوده أحد الزملاء في السفارة السعودية!.. كنت أبعثر بصري في كل الاتجاهات، كأني

أبحث عن "لنغ" أو عن عواجيز السويد السعداء.. أو عن كارل ميلس. أو عن المرأة الفوقية، أو عن الرغيف السكري!

كانت هذه المناسبة، هي إحدى المناسبات التي أدرك فيها أنني ما زلت – فعلاً – طفلاً غرّاً!. كادت تصيبني صدمة طفولية بريئة؛ لأنني لم أجد شيئاً مما كنت أنتظره في طرقات العاصمة السويدية، إذ لم يأخذني "لنغ" بالأحضان.. ولم يمد كارل ميلس يده إليّ مرحباً.. والعواجيز أسكتوا مزاميرهم عن التغريد.. والمرأة الفوقية كانت تتلحف الرماد!.. رماد السماء.. أو البياض الكثيف الذي يكاد لا ينقطع!.

نظرت إلى أنيتا فقرأت – هي – في عيني الشكوى.. ثم عادت تتكبر، وتزرع صدري وصدور أصدقائي غيظاً. ماذا عن عناقيد الذهب الممتدة التي تنسدل من فوق أكتاف أنيتا؟ وماذا عن البحار الزرقاء التي تتدفق في عينيها! يااااه!.. ففي خلال البحث والتفتيش في عناقيد الذهب غرقنا في بحار أنيتا الزرقاء! إن الذي صنع هذا المجال هو الخالق العظيم الذي أغدق على السويدية

ابياض الكثيف المنهمر من السماء، والذي جعل الثمانية ملايين سويدي يعيشون مائة وستين سنة بلا معارك.. وبلا دماء.. بعيداً عن الحروب!

إنسان مهووس مثلي يأتي من أنحاء كالحة لمنطقة تستحم في الدماء كل صباح، كان الأحرى به أن يفكر في هذا الموضوع قبل غيره، عندما تتألف في رأسه الأحرف الأربعة التي تمثل اسم دولة تتلفع برداء السلام الأبيض في الشمال الأوربي، هذا حدث على الرغم من كل ما عانته القارة العجوز من حروب مدمرة خلال القرنين الأخيرين، ولو لم يكن من بين هذه الحروب سوى الحربين العالميتين الأولى والثانية.

أنا القادم من أنحاء منطقة تغرق في الدماء لا أرى سوى إسرائيل التي تذبحني.. وتسلخني.. وتشويني.. وتأكلني.. منذ سنين لم أعد قادراً على تعدادها. جسدي مزروع بالرصاص، وقلبي يغص بقنبلة غليظة من البارود والخوف، وهذه القنبلة تنفجر وتعيد انفجارها في كل لحظة!.. وأنا ما زلت حجراً صغيراً في لعبة الشطرنج الدولية. يقتلونني متى شاءوا كلما بدأ ريشي ينمو!.. وقبل هذا كان الاستعمار.. ومع هذا كان دائماً التخلف..

وكانت الفرقة.. وكان "الذبح" الداخلي.. الذي يتم بسكاكين الأهل.

إنني أجيئ من الشرق، وليس بين عيني سوى الفناء.. وليس في جيوبي أو في حافظة نقودي سوى الموت!.. لي رائحة منتنة!.. قذرة!.. تبعث على القشعريرة والغثيان.. لست أدري لماذا يوافق السويديون على إعطائي تأشيرة دخول إلى بلادهم وهم الذين يحاربون تلوث البيئة!.. ولست أدري كيف يقبلون بوجودي، هنا وهم الذين لا يعرفون الألوان "القاتمة".. ولو دخل إلى "نخاشيري" أي ذباب سويدي لاستنجد بكل وسائل التعقيم الحديثة.. ولحرض الصيادلة على اكتشاف عقاقير جديدة للحيلولة ضد ظروف اختناقية لم يعرفها من قبل.. مثل غبار البارود.. ومثل دخان الحقد.. ومثل رائحة الموت.. ومثل هبوب التخلف!

أعتقد أن أقصى حالات الزهو عند الذباب السويدي، هي مبايعة بقية الفصائل الذبابية له على جزء من ركام "التخمة" السويدية!.. وأنا جئت اليوم أحمل إليه كل

المنغصات التي لم يكن يحلم بها في بلاد كل ما فيها أبيض: الوجوه بيضاء! والسلام أبيض، والثلج أبيض.

"اطردوا هذه الحشرة المؤذية".. هذه العبارة سيتخذها الذباب السويدي شعاراً لمظاهرة سيقودها ضدي، منذ أن أستقر في المدينة بعد قليل!.. وأنا لا أستطيع أن أحتج أو أن أخفي شيئاً من تشوهاتي المقيتة.. فهذه ثيابي ملطخة بالصديد.. صديد الجرحى.. وهذه مناديلي تقطر بالدمع.. دموع الثكالى واليتامى والمفجوعين في المستقبل!

سأعترف بأنني حشرة مضطهدة.. متخلفة!.. جاهلة!.. وعلى الرغم من كل هذه الأوجاع، فقد فرضوا علي الحرب.. وأرغموني على الزواج بالموت وبالفناء!

بالمناسبة: هل يوجد في السويد ذباب؟! يمكن.. لا أدري!

السويد منذ عهود الحروب النابليونية، حيث ظل يلعب دوراً ضئيلاً، فهو كان بعيداً عن القتل.. وكان في منأى عن الدماء! لقد كان منشغلاً بحشد البياض المنهمر من السماء، وكان مندفعًا لتأمله!

في مناسبتين اثنتين تعرض الأمن الخارجي للسويد للتهديد.. الأولى: كانت في بداية هذا القرن العشرين، عندما قرر جاره النرويج حيازة الاستقلال الوطني الكامل، معرضاً الاتحاد الذي عقد بين البلدين عام 1814م للقطع.. كان أمام السويديين سؤال واقعي مفروض.. وهو إلى أي حد سيقبلون بهذا الاستقلال؟! القوى المعتدلة أيدت الاستقلال.. وانتصرت.. وهي تعدّ هذا "التحرر" النرويجي تطوراً طبيعياً، فالجار "الغالي" من حقه أن يختار نوعية الحياة التي يريد.. ثم إنه إلى جانب الديمقراطية التي تحكمت في العقول المعتدلة التي كانت في حصانة من البطش والتخلف كان هناك الأمل أو الاستنباط الطبيعي بأن هذا الانفصال الودي سيكون له تأثير واضح، على المدى البعيد، في تقوية الروابط التعاونية بين البلدين الشماليين، وفعلاً فقد أخذ التعاون بين الدنمارك والنرويج والسويد يتصاعد في كل المجالات وعلى مختلف الأصعدة والميادين عدا الميادين "الدفاعية!"، حتى أصبح هذا التعاون مثالاً لكل البلدان التي تروم التلاقي الديمقراطي المستقل الحر.. وقد ضم إليه بعد حين فنلندا، التي كانت في مرحلة تاريخية ما

تمثل جزءاً من المملكة السويدية.. كما ضم في صورة أضعف أيزلندا.

المناسبة الثانية التي تعرض فيها أمن السويد الخارجي للخطر، كانت أيام الحرب العالمية الثانية! ففي الحرب العالمية الأولى، كان السويد يبدو خارج الدائرة.. ليس فقط بالنظر إلى الإستراتيجية والتكتيك الحربي في ذلك الحين، ولكن أيضاً بالاحتجاجات الشديدة المتلاحقة ضد الحرب التي كان قد مضى على حدوثها حوالي نصف قرن!. أما في الحرب الثانية فالمغامرة كانت أكبر.. بل إن نسبة الخطر ارتفعت أكثر.. حتى لو لم يكن هناك سوى احتلال البلدين المجاورين للسويد وهما الدنمارك والنرويج.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا الخط المحايد الذي اتخذه هذا البلد الشمالي، هي مطالبته بتشكيل منظمات عالمية ترعى السلام.. وتدافع عن حقوق الإنسان.. وتحترم حرية الشعوب واستقلالها.. فجاءت الأمم المتحدة بفروعها المختلفة!

كانت أماني السويد أصغر من حجم أطماع الإنسان المعاصر، وهي أصغر من بطشه وغروره وظلمه

واستبداده.. فبقيت هذه الهيئات الدولية وأشباهها مجرد فنادق أنيقة لتزجية الوقت، ولخداع الشعوب المقهورة.

وهذه الحشرة العفنة التي تأخذ "أنيتا" بيدها (وعناقيد الذهب تغمر كتفيها) هي إحدى مفرزات الشعوب المقهورة التي ظلت تدس عارها وانخذالها في العبارات "العطوفة" الساخرة التي تصدرها في حقها تلك الهيئات الدولية!

أما الآن فقد ولجنا باب هوتيل "بيرغر يارل" وللوهلة الأولى فقد بدا هذا "الصرح!" متجهما فضقنا به.. وضاق بنا.. وقال أحد الأصدقاء إن هذا الفندق لا يصلح إلا لإقامة معسكرات رياضية أو كشفية، والذين حجزوه لنا كانوا يظنون أننا أمريكيون، وأنه يهمنا دراسة طراز "روكوكو" العمراني أو غيره.. لقد نسوا أننا "بدو" وأن الذي يهمنا هو الحداثة في كل شيء! .. الحداثة في مفهومها السطحي البسيط الذي يقتصر لدى البعض على ألوان الشراشف ونوع الإضاءة دون أن يكون هناك هدف محدد من الحداثة أو من "الكلام" الذي لا يكاد ينتهي أو يتوقف ولو لحظة واحدة من أجل التنفس أو الابتهال!

"أنيتا" رأت الامتعاض بادياً على وجوه الأصدقاء، فنزلت عن كبريائها تقول:

- يروى أنه في منتصف القرن الثالث عشر، كان هناك رجل اسمه "بيرغر يارل".. وهو مَنْ أسس أول نواة لمدينة ستوكهولم التي تحتضنكم الآن، وعلى هذا فالسويديون يقدسون هذا الاسم!

تدخل هذه الحسناء، التي تثير الغيظ في صدور أصدقائي، لم يجد شيئاً، فقد بقي "الظعن" على مضض، حتى "ارتحلنا"!

وأنا شخصياً لم أكن أعرف كيف تهطل الكلمات من بين شفتي أنيتا بهذا السخاء، فتخرج متشحة بالبنفسج البديع!.. جرب أن تضع البنفسج مع البياض الكثيف في فضاء واحد!.. جرب!!

منذ الساعات الأولى قذفنا أجسادنا السمر الكالحة على أرصفة ستوكهولم البيضاء، فظهرنا للملأ كاللعب الكرتونية ونحن نمشي، أو في الواقع نتدحرج، فوق الثلج.. البياض الكثيف.. فمرة نسقطه، ومرة يسقطنا.. كان يؤذينا بغزارته.. وكنا نؤذيه بأقدامنا الهمجية.. لم

نكن نعلم أن هذا "الأبيض" مفرط الحساسية، وأنه لا يطيق ضغط الأقدام الصلبة، المملوءة بالشقوق والطين، وبالهموم والكآبات المقيمة والعابرة!.. لم نكن نعلم ذلك حتى رأينا السويديين يُسْكِرونه، إلى أن يثمل، بلمس أقدامهم الناعمة، وهاهم ينتشرون كالنحل، كل صباح، عبر بوابات هذه البيوت العتيقة.

ستوكهولم مدينة غريبة، فهي في النهار بلقع صحصاح، وهي في الليل مليئة حتى الاختناق، يشتد أهلها حتى يذكرونك بأخشابهم الصلبة القوية ذات الشهرة العالمية، أو يذكرونك بالحديد أو الفولاذ، كمثالين لمعادنهم الطبيعية الشهيرة عالمياً أيضاً. وهم كذلك يذوبون حتى يذكرونك بأقراص السكر التي يخلطونها بخبزهم أو بأطباقهم الشعبية.

يعانون من عاهة علاجها أسوأ منها.. وهي "الترف".. الترف حتى شحمة الأذن.. والعلاج الذي يثير الفزع ولا نتمناه لهم هو "الفقر" الفقر حتى أكل النخالة! نخاف أن يخلق الترف السويدي جيلاً متواكلاً، ليس له من عمل غير النوم والسهر، والضمان الاجتماعي كفيل بكل شيء. وهذا الترف هو الجانب السيء لمتوسط

دخل الفرد السويدي، الذي يتخطى بمراحل نظرائه في كل دول أوروبا الغربية! لا يوجد أحد في السويد ليس له دخل شهري يضمن له الحياة الكريمة، بما في ذلك الأجانب الذين يعيشون فوق أرضه، فممنوع أن "تبيت على الطوى!" وممنوع أن لا تجد فرصة للعلاج، وممنوع أن لا يدخل أبناؤك إلى المدرسة ليستعدوا للمستقبل!.

"أنيتا" تفاخر بأن ليس في بلادها جائع واحد، أو متسول واحد، وهي صادقة فيما تقول.. ولكنها بشوفينيتها هذه تضرم نار الغيظ في قلوب بعض الأصدقاء! لا يهم! فمباح لأنيتا ما تقول وما تفعل! أليس هذا هو قانون الحقل!.. الحقل الذي تروح فيه الفراشات وتغدو بلا حدود، وبلا أي حساب لأي أحد؟!

حوالي ثلاثمائة سيارة لكل ألف سويدي، أي بعبارة أخرى كل ثلاثة مواطنين سويديين لهم سيارة.. وهذه نسبة لا توجد في كل أنحاء العالم اليوم.

وبما أن السويد معروفة بطول شواطئها، وبعدد بحيراتها التي لا تحصى فإن نسبة القوارب هناك تمثل بالنظر إلى عدد الأسر: واحد على عشرة.

تاريخ السويد مع التفوق قديم، فالجميع يذكرون أن السويد يمثل البلد الأول في العالم في حيازة التليفزيونات الملونة بالنسبة لعدد السكان، .. وهذه المعيشة المثلى، تعود إلى التطور الاقتصادي السعيد الذي يعيشه هذا البلد.

ففي العالم، حسب الإحصائيات الدولية، السويد لديه إجمالي الناتج بالنسبة للفرد، يأتي بعد الولايات المتحدة.. والتطور الذي أدى إلى هذا الوضع فريد.. فالتصنيع الحقيقي في السويد لم يظهر إلا في عصور متأخرة نسبيا ففي السنوات 1870م، كان يأخذ حقيقة تقدماً ملحوظاً "والإحصائيات الدولية رغم أنها غير مكتملة عن هذه المرحلة من التاريخ تبدي تقريبياً أنه بين عام 1870 و 1913م عرف السويد التوسع الاقتصادي الأسرع بعد اليابان". أي أن هؤلاء الذين نراهم اليوم في ستوكهولم، هم الجيل الجديد لهذا العمر الاقتصادي.. حتى إن الشيوخ منهم يقال عنهم: إنهم لم يتكيفوا بعد مع صورة الحياة الصناعية الجديدة!

"والسويديون يمكنهم أن يفخروا بتطور اقتصادي جيد خلال سنوات ما، بعد الحرب، فإنه حتى وإن كانت

أكثر بلدان أوروبا الغربية قد لحقت نوعاً ما بالتقدم الاقتصادي السويدي، إلا أن السويد استطاع أن يحتفظ بمكانته كأكثر البلدان الأوروبية تقدماً اقتصادياً.. لكنه لم يكن من المؤكد أن هذه الحالة قد استمرت في السبعينيات، فالدراسة التي عنيت بالسنوات 1970-1975م، تتوقع إيقاعاً ضعيفاً نوعاً ما للنمو الاقتصادي في السويد، يعني ارتفاعاً في إجمالي الناتج سنوياً بنسبة (3.8) في المائة فقط.. ولهذا فقد أصبح من المؤكد أن السويد ستفقد وضعها الأول أو المتقدم على البلدان الأوروبية في نهاية السبعينيات".

لست أدري إن كنا نستطيع أن نحتسب "القراءة" نوعاً من أنواع الترف! فالسويديون شعب يقرأ الصحف بصورة يندر أن يوجد لها مثيل.. ففي هذا البلد أكثر من مائة صحيفة يومية (لاحظ العدد الضخم)، يطبع منها يومياً أكثر من أربعة ملايين (لاحظ العدد المهول)، بينما عدد السكان حوالي ثمانية ملايين نسمة.. وانتشار الصحف السويدية في الخارج ضئيل؛ لانحسار اللغة السويدية. وهذا يعني أن هناك خمسمائة وستين نسخة يومية تقريباً لكل ألف مواطن سويدي، هذا عدا المجلات

الشعبية التي تؤكد بعض الإحصائيات أنه لا يخلو منها، أو من بعضها، أي بيت في السويد، إضافة إلى المجلات العلمية، والثقافية، والمتخصصة في مجالات الحياة الأخرى!

كنت أندى خجلاً وأنا أقرأ هذه الإحصائيات!.. وكنت أدس وجهي عن السويديين حتى لا يسألوني: كم يقرأ الشعب السعودي من صحفه اليومية وغير اليومية؟. كنت سأشعر بالغصة لو أقحمني السويديون في تقرير ما إذا كان الشعب العربي – ككل – شعباً قارئاً أم أنه غير قارئ. لهذا كنت أزداد فهماً لبعض أسباب تحالفنا التقليدي مع التخلف والصلف.. نسأل الله السلامة!

نصف الصحف السويدية جرائد حرة.. وربعها تراقبه الأحزاب الاجتماعية الديمقراطية والمحافظة.. أما الباقي فمرتبط بالمنظمات السياسية الأخرى.

بعض الصحف السويدية اختفت نظراً لمشاكل مالية جاءت خصوصاً بعد الارتفاع الملحوظ في الأسعار.. مثل صحيفة "مورغو نتيد نيغن"، وهي صحيفة قديمة.. وظلت صحيفة رسمية للحزب الاجتماعي الديمقراطي الذي ظل يحكم السويد منذ سنة 1932م.

وقد لاحظت الحكومة السويدية ما تعانيه هذه الصحف من ضائقات مالية تؤدي إلى موتها واختفائها، فقررت أن تقدم معونات.. مثل عندنا قبل أن توقف المعونات.. فقط الفرق هو أن المعونات السويدية، قد تصعد إلى ثلاثة ملايين ونصف كراونه أي حوالي ثلاثة ملايين ريال سعودي لكل صحيفة"!!!".

وعلى الرغم من كل هذا الحشد من الإصدارات الصحفية التي تنبئ عن نسبة متفائلة جداً من الوعي والإدراك الثقافي إلا أن بعض الملاحظين السويديين يرون أن المستوى الثقافي في بلادهم لم يبلغ كل ما هو مرجو له، وهم يقولون: إن الثقافة في السويد تشبه الحالة الرياضية في البلد نفسه، لا شيء غير التزحلق على الجليد.. وصيد السمك.

السويديون غير مقتنعين بما حققه مؤلفو أدب الأطفال في بلادهم من سمعة عالمية في هذا الميدان.. ولا يرون أن الفخر كل الفخر في "استريد ليندغرين"، وشخصياته المحببة لدى كل أطفال العالم.. مثل "فيفي بريندااسيير".

كما أنه لا يكفيهم في أدب القصة عدد يسير من ذوي الصدى الكوني مثل "أيفند جونسون" أو أديب آخر، مثل: "ارتور لوند كفيست" الذي أدخل السوريالية إلى السويد وأحد رواد الأدب الحديث!

يريدون حجماً أكبر، ويريدون أن تصبح بلادهم مثالاً في كل شيء.

ولكن هناك عقبة عسيرة ظلت تعترض انتشار الثقافة السويدية.. أو تقف بين هذه الثقافة والجمهور الدولي، نعني اللغة!.. وبالذات فيما يتعلق بالآثار الشعرية!. ولكن هناك مجهودات كبيرة يبذلها "المعهد السويدي" لتذليل هذه العقبة.. فقد افتتح مكاتب تابعة له في بعض البلدان الأوروبية، مثل فرنسا وبريطانية.. بل إن أول هذه المكاتب افتتح في باريس عام 1971م.. وسفارات السويد نفسها في بعض البلدان لها مهمات ثقافية.. وهناك أكثر من جامعة أجنبية بدأت بالثقافة السويدية.. والمعهد السويدي – السابق ذكره – وقع عدة اتفاقيات ثقافية مع سبعة من بلدان أوروبا الشرقية. والتعاون الثقافي بين بلدان أوروبا الشمالية جار برغم فشل محاولة إنشاء مجلة ثقافية موحدة وموجهة للخارج.

الإبداعات الفنية السويدية غير معروفة كثيراً في الخارج، عدا بعض الاستثناءات في مجال الأغنية والسينما.

وعندما يحضرني التفكير في السينما السويدية، فهناك إنسان يحتل كل المساحة الصغيرة المخصصة لسينما ستوكهولم في ذهني، وهو شاعر.. ساخر.. رمزي.. يقف على حدود السوريالية، ويتمكنً بقدرة فائقة من كل أدوات التعبير السينمائية. ليس له شبيه في كل السينما الدولية.. وكل أعماله لها أبعاد لا محسوسة.. أبعاد روحية معقدة.. حتى إن النقاد أنفسهم يجدون صعوبة بالغة في تفسيره! وكان آخر ما شاهدته له "بيضة الثعبان".. وقد سبق أن وقفت مشدوها أمام فيلم "وجهاً لوجه"، وفيلميً "صرخات وهمس" و"مناظر من الحياة الزوجية"، وكلها كانت "مدبلجة" باللغة الفرنسية. أعترف أنني كنت لا أفهمه في هذه الأفلام من المشاهدة الأولى.. ولكني، بحب، كنت أكرر عيادتي للصالات التي تعرض أفلامه!

إنه بعيد كل البعد عن السينما التجارية!. وعن الإثارة العاطفية البسيطة. في الصوت يريد أن يقول

شيئاً. وفي الإضاءة يريد أن يوحي بفكرة. وفي الصورة يريد أن يبني مناخاً نفسياً للاتصال..

الإنصات لغير شيءٍ.. والإنصات للحوار نفسه، الذي يرى "بريغمان"، وهذا هو اسمه، أنه لا يكفي وحده لاحتواء رسالة الفيلم.

أول نجاح دولي قدمه بريغمان كان "ابتسامات ليلة صيفية" وبرغم هجرته عن السويد مؤخراً.. وبرغم بعده عن ستوكهولم، إلا أن كل تحركاته الفنية مضمومة دولياً لحساب الثقافة السويدية. بل إنه خير رسول لها في الخارج.

غير هذا.. فقد ابتلعتنا ستوكهولم خلال عشرة أيام كاملة! والناس في الشوارع وفي الساحات العامة.. كانوا كلهم "لنغ"، وكلهم "كارل ميلس"، وكلهم نساء فوقيات، وكلهم خبز معجون بالسكر.. وكلهم "أيفند جونسون".. وكلهم بيرغمان!

وأنا كنت بينهم الحشرة الشرقية التي ترتجف من الخوف والخذلان، فرصاص الجنود الإسرائيليين يومها، كان يعوث في الجنوب اللبناني!.. وأجزاء من الأراضي العربية، لقد كان يطرد منها أهلها من جديد.

وكلما حاولت إخفاء رائحة الموت التي تكسو جلدتي، جاء نذير من الشرق يخبرهم أني ما زلت أتلقى إصابات جديدة. وكلما حاولت إخفاء الموت الذي يسكن عظامي، جاء صوت من الشرق يعلن فنائي.. ويرهص بنهايتي.

كنت ميكروبا كالطاعون بين هذه الخلايا الحية التي لا تعرف الحرب.

"أنيتا" ظلت تعاملني بعطف. فهي تعرف تخلفي.. وهي تدين هذا التخلف.. ولكنها تدرك أنني كسير حرب، فلا تريد أن تكسرني أكثر.. قاتلها الله.. لقد أوصيتها أن تكون امرأة عادية!.. ولكنها ظلت تعاند، حتى عادت تملأ صدور أصدقائي بالغيظ!

لك ما تشائين أيتها الجميلة المكتسية بعناقيد الذهب، السابحة في الفضاء الأبيض!.. تعالي.. أسبغي علينا وعلى من حولنا مطرك الأزرق المنهمر من عينيك السخيتين، وهات اللون البنفسج المنهمر من بين حبات اللؤلؤ وشفتيك الغليظتين.. جربوا.. الأبيض مع البنفسج!

مثلاً

ذات مساء جميل، في إحدى مدن "الجزائر" الصغيرة، وقف الشاعر الدكتور إبراهيم الزيد يلقي محاضرة عن التعليم العالي في السعودية. وما أن بلغ نهاية المحاضرة؛ حتى تقدم إليه سيدنا "الوالي" تصحبه ثلة من وجهاء المدينة الصغيرة وأغنيائها يقولون له جميعاً: لابد من بقائك معنا هذه الليلة "ليلة الجمعة". لكن المحاضر استغرق في إبداء أسفه؛ لعدم تمكنه من تلبية هذه الرغبة الكريمة، فهو لابد أن يغادر تواً، لارتباطه بنشاطات مختلفة في مدن جزائرية أخرى، شاكراً للوالي وصحبه هذا الإحساس النبيل بضرورة تكريمه! فابتسم الوالي وهو يقول له: نحن لا نرمي إلى تكريمك،

ولكننا نطمح إلى أن تكرمنا أنت، فغداً سيكون يوم الجمعة، ونريد أن تكون أنت لنا خطيباً وإماماً في صلاة الجمعة، ثم أضاف: أنت في هذه الزيارة رسول الديار المقدسة إلينا، فأكرمنا - بالله عليك!- بمقامك بيننا بضع ساعات أخر.

وفي مساء آخر في قرية جزائرية أخرى، كان الشاعر عبدالمحسن بن حليت يلقي قصائده على جمهور من مثقفي البلد الشقيق وشبابه، إذ ما فتئ الشاعر، وهو في عز استلهامه، يلمح أصبعاً أو يداً تلوح مخترقة، في كل لحظة، هدوء الصالة ووقار الإنشاد. لقد كان للشاعر كل الحق في أن يظن بأن تلك الأصبع أو الأيدي "المجنونة" تكظم لا محالة احتجاجاً، أو اعتراضاً، أو تعليقاً، لا يعلم إلا الله مبناه ومحتواه. ولكن المفاجأة كانت أكبر من احتمالات الشاعر وظنونه البريئة، إذ انبثق له شاب من بين الجموع، يسأله ببساطة وهدوء عن "ميقات" أهل الشمال الأفريقي في الإحرام للحج أو العمرة!!

ولن أنسى الصعوبات التي واجهت زميلنا العزيز الدكتور سعد الصويان، عندما ألقى محاضرته للمرة الأولى في الجزائر العاصمة عن الأدب الشعبي في الجزيرة

العربية. إذ وجد الصويان أن "بحثه" الجيد قد فُهِم على غير ما ينبغي له، فكيف ببلد هو مهد العروبة وموئل الإعجاز البلاغي أن يروَّج للغة الدارجة أو للشعر "الملحون" كما يسمونه في الجزائر، فكان الوضع أشبه بـ"الورطة"، مما اضطر د. سعد الصويان إلى اختيار موضوع آخر لمحاضراته القادمة في المدن والقرى الجزائرية الأخرى عن: الثورة الفلسطينية، صفة الاحتلال.

جراء تلك الأحداث ظلت تتعاظم في ذهني حقائق كانت شديدة الرسوخ في داخلي، ومن تلك الحقائق ما يتعلق بهذه الأرض، ومنها ما يتعلق بهذا الإنسان نفسه، فهذه الأرض (أرضنا) هي، بالنسبة إلى المسلمين جميعاً، وفي كل مكان، أرض الطهارة والنور والمجد المبين، أرض الوحي والرسالة. وهذا الإنسان (نحن) هو نبتة هذه الأرض نفسها، وهو موئل الرسالة، وحامل لواء الدين. إنه سليل الفاتحين، والمسؤول الأول عن المهمة التاريخية المديدة للحضارة الإسلامية. وهذا الموقع النابه في قلوب المسلمين وعقولهم، لم يزده التواتر التاريخي الطويل إلا وهجاً ونبوغاً وتزكية، وإلا فما معنى أن يطلب إلى محاضر في التربية أن يؤم الناس في يوم الجمعة؟

وأن يسأل "شاعر" أن يبين للحضور مواقيت الحج والعمرة ويشرحها لهم؟! وأن يُعترض على باحث أن يتحدث عن الشعر "الملحون".. ذلك حدث لأن كل هؤلاء هم من أرض الجزيرة.. من مكة المكرمة أو بالقرب منها، وذلك كله له معانٍ ودلالات متسامية يدركها غير السعوديين أكثر من السعوديين أنفسهم!.. ذلك هو قدرهم.. وأي شيء قد يكون مقبولاً من غيرهم أما هم فظهورهم مثقلة بالدين والتاريخ والحضارة.. وهم الأمناء عليها كلها بحكم موقعهم من الدين نفسه، ومن التاريخ ذاته، ومن الحضارة في كامل هيبتها ووقارها.

جرت تلك الأحداث في مناسبة واحدة، ضمتنا جميعاً، هي مناسبة الأسبوع الثقافي السعودي في الجزائر قبل أكثر من ربع قرن.

الإسلام والديار المقدسة هي "ثروة" السعوديين "غير الناضبة" ولعل تلك الثروة هي بالذات الملهمة للقيم التي ستفسح لهم المكان المرموق في الحضارة البشرية إذا ما استطاعوا أن يجعلوا منها دعماً للمشتركات وليس مصدراً للتناقضات.

أصيلة

أصيلة، مدينة صغيرة رشيقة متواضعة، تمد رجليها المعروقتين في مياه البحر المالحة، وتنام في وقت جدّ مبكر!

أصيلة مدينة ليس فيها فنادق خمس نجوم، ولا يوجد بها سيارات فارهة، أو يخوت فخمة أو ضخمة. وليس في أصيلة ملاه، أو نواد ليلية، أو نوادٍ للقمار، أو أوكار للمافيا. وليس فيها ميادين كبيرة أو شوارع فسيحة. وليس فيها دور للأزياء، أو بوتيكات للموضة أو للعطور وأدوات التجميل!

أصيلة مدينة لا تحب الكحل أو الماكياج، وليس

لديها فساتين طويلة للسهرة، ولا تملك خواتم أو أقراطاً أو قلائد من الفضة أو الذهب أو الألماس!

أصيلة لا تعرف معاطف "الفرق" ولا تلبس الـ"ديكولتيه"، فلا تمشي في الشارع عارية الساقين أو الذراعين، وهي لا تحضر الحفلات أو الكوكتيلات أو المناسبات إلا في كامل الحشمة، وكامل الحياء، وكامل الوقار.

أصيلة لا تركب السيارات الفخمة، ولا تسكن القصور الشاهقة، ولا تستحم في بانيو من العطر، ولا تنام في سرير من ريش النعام.

هي لا تخرج في المساء وحدها، ولا تتسكع في الأسواق وحدها، ولا تدع مجالاً لأحد أن يكلمها، أو يعاكسها، أو يمسك بيدها، أو يربك مشيتها!

أصيلة مدينة صغيرة، متواضعة، تستحي، وتحافظ على سمعتها، وعلى شرفها، وعلى أخلاقها التي لا تشبه أبداً أخلاق المدن المدهشة الأخرى!

لم تجد أصيلة، بإمكاناتها المتواضعة، ما تنافس به المدن الأخرى الأكثر اتساعاً والأكثر بجاحة، غير

"الثقافة". فهي لم تمد يدها إلا للإبداع، ولم تعط خدها إلا للمعرفة، ولم تفتح صدرها إلا للفن، فجسدها الفاره هو الجسد الأول، إن لم يكن الوحيد، الذي يسبح، دون توقف ودون انقطاع، في فضاء الثقافة الرحب!

محمد بن عيسى، عاشقها الأول، قام، هو وصديقه الفنان التشكيلي المويلحي بإنشاء "جمعية المحيط الثقافية" وهي جمعية تضم النخبة المتميزة من شباب أصيلة من الفنانين والمبدعين! فكان النشاط الأول للجمعية هو "التشكيل"، إذ اشتهرت جداريات أصيلة في كل الأنحاء، فأصبح طلاء البيوت الصغيرة، في المدينة المتواضعة، لا يتم ولا يتحقق إلا بريشة الفنان، أو هي فرشاة الإبداع! وها هي بيوت أصيلة تتشح باللون والظل والضوء، وتتميز أو تختلف عن كل البيوت الأخرى غيرها في العالم كله.

وما لبثت الجمعية الفتية أن وسعت من نشاطاها ليشمل المؤتمرات، والندوات والمحاضرات، والشعر، والموسيقى، بل لقد أنشأت الجمعية جامعة صيفية أسموها جامعة المعتمد بن عباد، تحت رعاية الملك

شخصياً، ثم تبرع الأمير بندر بن سلطان للمدينة بإقامة مكتبة عامة تعدّ اليوم من معالمها الذكية التي أخذت في الاتساع.

غبت عن أصيلة بضع سنوات فوجدتها على غير حالها. لقد كبرت وازدادت نضجاً وبهاءً.. شوارع فسيحة وميادين وحدائق عامة واسعة، والأهم هو أنه أطلقت على تلك الميادين والحدائق أسماء مثقفين وأدباء ومفكرين كان أكثرهم من أصدقاء أصيلة ومن مرتاديها، من المغاربة والعرب، ولكن أيضاً من أسبانيا وأفريقيا.

أدهشتني أصيلة بعد أن زرتها مؤخراً فهي الأكثر نضارة والأكثر إغراء.

لقد كثر الأخضر في أصيلة، وتقدمت هي في المدنّية والبهاء، كما تقدم بن عيسى في النضج وفي السن والوقار والإبداع. لاشيء يشغل بن عيسى أكثر من أصيلة، فحيثما تقابله، في داخل بلاده أو في خارجها، وزيراً في مهمة، أو مثقفاً مشاركاً في مؤتمر، فإنه لن يحدثك إلا عن أصيلة، وعن ترتيبات واستعدادات الموسم المقبل. أصيلة هي صناعة بن عيسى ولا أحد يعلم كيف ستكون من بعده (بعد عمر طويل إن شاء الله).

أما جمعية المحيط فهي ليست جمعية حكومية، بل أهلية تقوم في تمويل نشاطاتها ومواسمها، على تبرعات ومساهمات أعضائها المؤسسين، وقد أصبح من بينهم المحامون، والأطباء، والسفراء، ثم أخيراً الوزراء (محمد بن عيسى نفسه مثلاً).

لقد تحولت أصيلة، في سنوات قليلة من المدينة الصغيرة المتواضعة، إلى مدينة ملء السمع، وملء البصر، فتفوقت بعقلها وبفنها، وبإبداعها، على كثير من المدن الأخرى غيرها.

ليس لدى أصيلة أي شيء سوى محمد بن عيسى، وسوى الثقافة، وسوى البحر، البحر ليس في غواياته واستعراضاته، وإنما البحر في بساطته وعفويته وتلقائيته.

في المقابل لدى المدن الأخرى كل شيء إلا الثقافة، وإلا محمد بن عيسى، ولهذا فإن أصيلة تجلس دائماً في الصفوف الأمامية، يستمع إليها النظارة بإصغاء شديد وهي تتحدث، ويصمتون في سكينة متناهية وهي تفكر، وهم يقرأون كل ما في دفاترها عندما تكتب أو ترسم!

مدينة أصيلة هي محمد بن عيسى، وقصر الثقافة، وفندق الخيمة القديم، فالأول أدهشني في رؤيتي له للمرة الأولى قبل أكثر من عشرين سنة، إذ كان يعيد تنسيق الكراسي، ويرتب الطاولات ويحرك المايكروفون بنفسه بين المنتدين والمتداخلين، وكان يفتح صدره لهواء الثقافة، فلا يخنق رقبته بربطات العنق التي يشاء بعض المثقفين أن يتحلوا بها في مثل هذه المناسبات التي تكثر فيها العيون وتنتشر الكاميرات.

كان ابن عيسى يحشد المثقفين في منزله غير الكبير، ليلة واحدة على الأقل من ليالي موسم أصيلة، يأكلون، ويشربون، ويبنون الأفكار ويهدمونها. وهذا الحشد تقوم على خدمته السيدة اللطيفة الجميلة حرم بن عيسى وبعض سيدات أصيلة اللاتي يسهمن في إعداد المأكولات المغربية التقليدية الشهية، كل واحدة بما تجيد من الأكلات. وفي رحلتي الأخيرة إلى أصيلة لم يتغير شيء، فأبواب بيت بن عيسى مازالت مشرعة على الرغم من تكاثر محبي ومرتادي أصيلة، وعلى الرغم من الحفل الحاشد الذي يحتضنه قصر الثقافة في يوم افتتاح الفعاليات الفكرية والثقافية للموسم.

كان فندق الخيمة، قبل عشرين عاماً، هو الوحيد في أصيلة، ينتظر ضيوف أصيلة في المساء، ويعلمهم التواضع والتقشف والإخلاص للثقافة. فهو فندق بلا نجوم، وبلا راديوهات أو تليفزيونات، وبلا تليفونات في الغرف، ولكي تتصل بصديق لك في طنجة، التي لا تبعد عنك أكثر من أربعين كيلوا متراً، عليك أن تنتظم في الطابور الذي يمتد، أمام مكتب الاستقبال الصغير، لزمن قد يطول وقد يقصر، حسب ما لدى من يسبقك من المثقفين من مخزون الكلام، الذي يريد أن يفضي به إلى الجهاز السحري الوحيد في هذا الفندق.. فندق الخيمة!

إن محمداً بن عيسى هو الغني بما يحمل في عقله ووجدانه من اهتمام بالثقافة، وبما يحشد بين جوانحه من حب لأصيلة. وإن فندق الخيمة، المتواضع في إمكاناته، يزهو على كل الفنادق الأخرى الفخمة، ذات النجوم المتعددة، وذات السرر الوثيرة، وذات التليفزيونات الملونة، والتليفونات الأنيقة، والموسيقى الكلاسيكية الناعمة. ففي فندق الخيمة كان يرقد ليوبولد سنجور، وجورج موستاكي، ولطفي الخولي، وعبدالوهاب

البياتي، وبولند الحيدري وأحمد عبدالمعطي حجازي، ومحمد الفيتوري، والمهدي المنجرة، وسعد الدين إبراهيم، وغيرهم كثيرون من مترفي الثقافة وأثرياء الإبداع!.

مَنْ مثل محمد بن عيسى؟ ومَنْ مثل فندق الخيمة؟!

أصيلة ترى أنه لا أحد يشبه محمد بن عيسى، وأنه لاشيء يبزّ فندق الخيمة، لا في طول الدنيا ولا في عرضها.

لست ضد التطور الذي مرّت به أصيلة، على تواضعه، ولكني متعلق بأصيلة التي عرفت قبل أكثر من عشرين سنة عندما كانت تجري على الشاطئ حافية القدمين، بلا مساحيق أو عطور، وبدون زهو أو خيلاء!.. وعندما كانت تفترش الرمل المتوقد تحت الشمس، أو تحت القمر والنجوم، بلا تكلف، وبلا مناشف أو مفارش أو شراشف وثيرة.

أحنّ إلى أصيلة الأولى ربما لأنني أحببتها وهي على تلك الحال بريئة وعفوية وتلثغ في الكلام عندما تتدلع وهي كانت تتعثر خطاها في الحب عندما تعشق.

أولاد الشيطان

هم يسمون أنفسهم "أولاد الله" .. أما أنا فأسميهم "أولاد الشيطان".

مجموعات من الشبان والفتيات التائهين.. رأيت نماذج منهم لأول مرة على شاشات التلفزيون، وفي الشوارع العامة، في مدن أوربا الكبيرة.

هم في الإذاعات والتلفزيون يمثلون فرقة فنية جديدة تقدم أغاني جماعية دينية تستهوي أعداداً ليست قليلة من المستمعين والمشاهدين. هذه الأغاني مملوءة بالدعوة للالتحاق بهم، والانضمام إلى أسرتهم. أما في الشوارع فلهم دور آخر.. فمن حين لآخر تصطدم

ببعضهم في أكبر شوارع باريس العامرة بالناس، وبالذات في الحي اللاتيني المحشور بالشباب؛ خصوصاً طلاب الجامعات.. تصطدم ببعضهم يقدم لك كتيبات صغيرة، وكل كتيب يناقش قضية فكرية عصرية، أو مشكلة سياسية راهنة، أو غير ذلك.. وجميع هذه الكتابات بتوقيع واحد: يهودي ثم"تنصر" بطريقة واحدة، فهو يؤمن بالمسيح كما يزعم، وهو يدعو له، ولكنه ينكر الكنيسة، وينكر كل الطقوس الدينية المسيحية، أي أنه في كلمة مختصرة قد أصبح"نصرانياً ملحداً".. وهذا ما جعلني أتساءل أكثر من مرة هل هذا اليهودي، إن كان موجوداً فعلاً، ترك اليهودية ليفسد على المسيحيين دينهم بالبدع التي اختلقها، وبالحقائق التي أنكرها، منذ أن بدأ التفكير في تكوين فرقته هذه عام 1968م في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية؟!

"غي لوكس" أكبر منتج منوعات في التلفزيون الفرنسي (يهودي أيضاً) يكاد يكون الوحيد الذي يصر على تقديم هؤلاء (أولاد الشيطان) في أكثر برامجه.. كان ذلك طبيعياً عند كل من يعرف "غي لوكس"، فهو

المنتج الذي لا يخلو أي برنامج من برامجه من انريكو ماسياس واليهود الآخرين.

كان يوماً ممطراً ذلك اليوم الذي قررت أن أحل فيه ضيفاً، ثقيلاً أو خفيفاً، على "أولاد الشيطان".

بناية كبيرة تتكون من أكثر من أربعة طوابق.. تقع بالقرب من البورصة الفرنسية، في الحي التاسع، شارع "ليون كلادل".

طرقت الباب الحديدي الكبير الأسود.. لم أكن على ثقة مما ينتظرني خلفه، إلا عندما انفرج الباب الجبار بأناة، لأجدني أحيي -عفوياً- شاباً يكتنز فمه الضيق نوعاً ما بابتسامة بروتوكولية باهتة، عرفت أنه يقدمها مجاناً لكل من يطرق هذا الباب الحديدي الكبير المطلي بالأسود!

قامة متوسطة.. شعر مجعد أسود.. سحنة تميل إلى السمرة.. لغة فرنسية جيدة تطفح على بعض كلماتها "لكنة" أجنبية خفيفة.. أمريكية ربما؟!

ولجت الباب إلى "الدهليز":

- مثقف شرقي يريد أن يتعرف على الأسرة؟!

قلتها له مشبعة بابتسامة تلتمس العذر، فقد جئت بدون موعد مسبق.. إنها زيارة مفاجئة إن أحببتم!

- هل أنت على موعد؟! هل تريد رؤية شخص معين؟!

كان يسألني وفي نظرته إليّ بعض الارتباك. تأكد لي ذلك عندما لاحظت أنني أنساق معه في حديث متشعب، في الوقت الذي لم يحاول فيه أن يدعوني للجلوس على الكرسي الوحيد الذي كان يشغل جانباً من "دهليز" العمارة.. كان على يميني مكتب مغلق.. له باب زجاجي.. ويحجب رؤية ما خلفه ستار أبيض غليظ، وعلى بعد مترين تقريباً مدخل لمكتب أو لدهليز آخر للعمارة.. لست أدري؟!.. كان يدخل ويخرج عبر ذلك الباب شباب من هذه المنظمة.. من "أولاد الشيطان"، فتيان وفتيات .. وجوه كالحة، منهكة، تفتقر لأي معنى من معاني الاستقرار والهدوء.. لم يعد لها من علامات النشوة سوى ابتسامات مجانية كنت أستقبلها منهم ومنهن، بعضهم لم يتوقف عند مجرد منحي ابتسامة عابرة، بل يدنو مني مصافحاً وهو يقول: إنني أحبك..! "شكراً"

هي الكلمة الوحيدة التي كنت أجدها على "طرف اللسان"، للرد المباشر العفوي على هذه الجملة وأمثالها عندما تنطلق من كل عابر أمامي، أو بجانبي، بدون استثناء، فكلهم كانو "يحبوني".. هم يقولون ذلك!

هذه هي ميرسي.. معلمة رقص.. وأحد أفراد الأسرة! قدمها لي مايك الشاب الذي استقبلني قبل لحظة. فتاة طويلة.. بدينة.. شعرها بين الأشقر والأسود.. أحسبه كستنائي.. ربما.. عينان غليظتان.. في فستان أحمر "قاتم" طويل.. لغتها الفرنسية ضعيفة جداً.. ولكن لغتها الإنجليزية ممتازة.

- أهلاً وسهلاً ميرسي.. أنت أمريكية؟!

- نعم، وتخرجت في أرقى معاهد الرقص في الولايات المتحدة.

- وماذا تعملين في باريس؟!

- أنا إحدى بنات هذه الأسرة.. ومعلمة رقص للأسرة أيضاً!!

- مسيحية؟!

- يهودية في الأصل.. ولكني الآن مسيحية!!

- التفتُ إلى الشاب مايك:
- وأنت؟!
- يهودي كندي.
- ثم قلت لآخر لحق بنا فيما بعد:
- وأنت؟!
- يهودي أمريكي.

عدت أسأل ميرسي:

- أعتقد أن أكثركم يهود؟!
- نعم .. ولكن بيننا عدد لا بأس به من المسيحيين.
- مستحيل!.. ماذا تقولين؟!
- ابتسمت وهي تضع يدها على كتفي بهدوء مجيلة نظرها إلى "مايك وديفيد" الشابين اللذين كانا يقفان معنا.. ثم قالت:
- إني أحبك، الله يحبك أيضاً؟!

أجبت وأنا لا أزال أنقل عيني بخوف وباستغراب من ميرسي إلى الشابين، ومن الشابين إلى ميرسي:

- شكراً.. ولكن..!

قبل أن أتم قاطعتني:

- من أي بلد أنت؟!

- من السعودية.. مسلم والحمد لله!!

- إني أحبك.. والله يحبك أيضاً!

قالوها ثلاثتهم.. ولكني كنت أحسبهم لايعنوني هذه المرة، لأنهم قالوها وهم يتبادلون نظرات غامضة، أخذت تبدي لي فيهم تحوطات حذرة.

كنا لا نزال وقوفاً في الدهليز، وقد مضى الآن أكثر من نصف ساعة ونحن على هذا الوضع.. التفتُ إلى مايك:

- هل يمكنني الآن مقابلة المسؤول، أو أحد المسؤولين عنكم هنا؟!

كان الانزعاج يبدو جلياً واضحاً على قسمات وجهي. فهمت فيما بعد أنه لابد من أخذ موعد لتنظيم لقاء مع أحد المسؤولين، أو مع بعض أفراد الأسرة. اليوم هو الجمعة.. فأعطاني مايك موعداً في يوم الاثنين

المقبل، الثالثة والنصف بعد الظهر، وكتب اسمي، ويوم الموعد وساعته في مذكرة صغيرة كان يحملها في يده لمثل هذه الأمور.

حتى الآن لم يحاول أحد من هؤلاء الواقفين حولي أن يدعوني للجلوس في أحد مكاتب البناية، أو في إحدى صالاتها، بل استمر الحديث معهم في مدخل العمارة "وقّافي".

عرفت أنهم يعيشون هنا في شكل جماعي.. يقتسمون كل شيء.. شركاء في كل شيء.. لديهم حضانة للأطفال يتعهدها فريق منهم.

الأطفال أطفالهم، إذ إن بعضهم متزوج ولديه أطفال.. يأكلون سوياً، ويشربون سوياً، في ساعات معينة. وكل منهم منضم إلى أحد نشاطات الأسرة.. كالغناء، والموسيقى، والرقص، والرسم.

- ولكن من يمول هذه "المنظمة" في مدينة شرهة كباريس؟ الحياة المعيشية فيها أصبحت أكثر غلاء من نيويورك أو طوكيو أو أي بلد آخر؟!

هذا السؤال أزعج مايك رجل الاستقبال، لم يجب، فقلت له بأنني لا أطمح إلى تحديدات قد تحرج أحداً.. ولكني فقط أريد أن أعرف هل الذي يعولكم ويصرف عليكم شخص معين؟! أو جمعية دينية؟! أو منظمة سياسية؟! أو ماذا؟! قال يحذرني من عدم معاودة طرح هذا السؤال:

- الإجابة على هذا السؤال ليست من اختصاصي، ثم إنها لا تهمك بقدر ما تهمك رسالة الأسرة!

لم ألح في طلب الجواب.. مع أنني كنت أريد أن يعلم مايك بأن الرغبة في معرفة الإجابة على السؤال قد أصبحت بالنسبة لي ضرورية، لأن الريبة أخذت تأكل كل دواعي الاطمئنان في نفسي. إنني أعترف بأنه قبل مجيئي إلى هنا، وقبل أن أتحدث إلى هؤلاء، كنت أعتقد بأن هذه "الفرقة" لا تعدو أن تكون، بكل بساطة، إحدى فرق الشباب المولع بالموضة، وبالتقليعات الجديدة، على الرغم من بعض الإشارات الدينية التي تتخلل منتجاتها.. أما الآن فقد بدأت أشم فيها روائح أخرى. ولهذا فقد بدأت أبحث عن معرفة كل شيء عنها. والرغبة في معرفة

كل ذلك، كان يحرضها في ذاتي الحذر الشديد الذي بدأ يرتسم بوضوح على وجوه هؤلاء الثلاثة!

كأن ميرسي أرادت أن تشوفني.. أو ربما أنها كانت تتوقع ذلك عندما "زحفت" إلي في ثقل تقول:

- تعلم أننا نطبع كتيبات صغيرة نوزعها على الناس في الشوارع مقابل قيمة معينة، وكذلك نشترك في بعض برامج المنوعات في التلفزيون والإذاعات، وهذا يقدم لنا ما يمكن أن نعيش به.

ضحكت وأنا أنظر إليها.. أقول:

- قيمة كل كتيب لا تتجاوز الفرنك الواحد.. وأكثر الناس لايشترون.. هذا واقع؟!

- صحيح.

- اشتراككم في التلفزيون والإذاعة لا يشكل دخلاً كبيراً.. فهل تريدين أن تقولي بأن هذه الأشياء يمكن لها أن تسد نفقات أكثر من ثلاثمائة شخص يعيشون في أكثر مدن العالم غلاءً معيشياً.. هي باريس!

- تأتينا مساعدات وصدقات.

- من أين؟!

- هذا لا يهمك!

سكت.. لم أقل شيئاً.

بل إن هذا يهمني، ولكن ليس من حقي أن أُكره أحداً على أن يقول لي ما يهمني. إن إيجار الشقة الواحدة في الحي الذي يسكنه هؤلاء، يزيد على ألفين يورو في الشهر الواحد، فما بالكم بعمارة كبيرة من أكثر من أربعة طوابق؟!

تقول ميرسي بأنهم كانوا يسكنون بناية خارج باريس في إحدى الضواحي. وعلى الرغم انخفاض إيجارها، إلا أنها كانت مرهقة التكاليف بالنسبة لدخل "الفرقة".. هكذا؟!.. عفوياً!.. تحكي.. توالي قصتها:

- في ليلة من الليالي جلسنا كلنا ندعو الله، ونصلي، بأن يهيئ لنا سكناً أكثر ملاءمة في باريس.. فكان فريق منّا يعبر هذا الحي ليجد نفسه، بقدرة الله! أمام هذه البناية. كانت خالية وغير مسكونة، فسألوا عن صاحبها؟! ولكن لا أحد يعرفه.. والقانون الفرنسي يبيح للناس أن يسكنوا أو يحلوا في أي مكان مجاناً إذا كان

صاحبه غير معروف"!!" بل إن للساكن حق امتلاك المكان.. وهكذا جئنا، إلى هنا، ونزلنا العمارة مجاناً. فنحن لا ندفع إيجاراً!

احتد كل شيء في داخلي.. لم أعد أحتمل كل هذا الهراء فانفجرت:

- أنت تظنين بأنني سأصدق هذا التخريف!! في باريس؟!.. هكذا ؟! عمارة جميلة نظيفة كبيرة متروكة بدون مالك أو راع، لكي تجيئوا أنتم وتسكنوها مجاناً؟! هل هذا معقول؟!.. وإذا افترضنا أنها كانت مهملة مهدرة، وهذا لا يصدقه عقل، وخاصة في باريس، لماذا لم يعثر عليها غيركم قبلكم في هذه المدينة المحشورة بالناس، المدينة التي تشتكي دائماً أزمة سكانية حادة؟!...

قرأت سريعاً في عيني ميرسي الغليظتين كل إمارات الحنق والنزق، وهي تقول لي مصافحة:

- اعذرني.. سأذهب لأصلي وأستمع إلى الموسيقى.

ناولتها يدي محملاً نظراتي المصلوبة نحو هيكلها البدين لعنات الأولين والآخرين.. أدارت ظهرها نحونا، وتقدمت نحو سلّم العمارة المقابل خطوتين أو ثلاث ولكنها التفتت سريعاً نحونا:

- مايك!.. تعال!

تركني مايك أقف مع ديفيد ليلحق بميرسي تشاوره.. لا أدري في أي شيء.. ربما كنت أنا "موضوع" المشاورة؟!

- سألني ديفيد ليشغلني عن النظر إليهما:

- هل أنت مؤمن بالله؟!

أجبته محولاً نظري عن عينيه السوداوين البجيحتين أتفحص كل ما حولي:

- سبق أن قلت لك بأنني مسلم!. وهذا يعني أنني أؤمن بالله، وبأن محمداً عبده ورسوله، سيد المرسلين وخاتم النبيين.

ودعت ديفيد ومايك مؤكداً بأننا سنلتقي يوم الاثنين المقبل في الثالثة والنصف بعد الظهر.. حيث سيكون النقاش مع مسؤول إداري وبعض أفراد الأسرة.

ابتسمت تأدباً، ولكن قبل أن أخرج طلبت بعض الكتيبات التي ينشرونها ويوزعونها بين الناس، وخاصة التي لم أطلع عليها. حملها إلى ديفيد، وأنا أمد يدي

نحوه بورقة نقدية ذات عشرة فرنكات. ثم حملت الكتب، وخرجت..!

سأقرأ الكتيبات.. وسأعود يوم الاثنين للقاء هؤلاء "الشياطين" من جديد!!

بالفعل حضرت في اليوم الموعود، يوم الاثنين، للمرة الثانية، لمقابلة "أولاد الشيطان"! وقبل الموعد المحدد بنصف ساعة كنت أحتل مقعداً في إحدى عربات الميترو في الطريق إليهم.. نصف ساعة تقريباً هي مسافة الطريق إلى الحي الذي يسكنونه!

قرأت وتصفحت أكثر الكتب التي أعطوني إياها.. كانت عن الموسيقى.. عن الفن.. عن قضايا فكرية وسياسية معاصرة.. عن مشكلة "تشيلي" مثلاً.. كنت أتساءل وأنا أقرأ هذه الكتب: هل أنا أمام منظمة سياسية أو فكرية أو دينية.. أو أنها كل هذه الأشياء مجتمعة؟! في كل ما قرأت، لم أستطع أن أحدد بطريقة واضحة هويتها. ربما توصلت إلى ذلك في لقائي بهم بعد لحظات؟!

كنت أثق في شيء واحد!.. هو أنني أمام "منظمة" مؤسسها يهودي، هو "موسى داود".. وممولة من جيوب يهودية، وأكثر أعضائها والمنتمين إليها هم من اليهود..

أزعم بأن هناك درجة من الخوف كانت تجتاح كل من يحاول، مثلي، أن يقترب من العمارة رقم "1"، شارع "ليون كلادل" في الحي التاسع.

خلف الباب الحديدي الأسود، كان يقف دائماً مايك الذي استقبلني في المرة الأولى.. لم يتركني هذه المرة في الدهليز، بل أخذني إلى المكتب ذي الباب الزجاجي والستار الأبيض، ثم طلب إليّ بأعذب عبارة أن "أنتظر!".

انتظرت!

بعد لحظات انفرج الباب.. فظننت أنه من أجلي ينفرج!..

شاب .. ياباني؟!.. صيني؟! فيتنامي؟ .. يدخل الغرفة متأبطاً "قيثارة".. كان مايك خلفه، يزفه كزائر رقم "2" إلى غرفة الانتظار.. هذه الغرفة التي كان الدخول

إليها في المرة الأولى محظوراً أو شبه محظور.. يقول مايك:

- السبب أن هذه الغرفة، في المرة الأولى، لم تكن نظيفة، أو مهيأة لاستقبال "زوار".

كان الشاب يابانياً. بعد حديثي معه، عرفت بأنه ضحية جديدة ستفترسها هذه الشرذمة، فهو قادم من لندن ومعه عنوان "أولاد الشيطان".. يريد أن ينضم إلى أسرة باريس. وقبل أن أصل معه في الحديث إلى أبعد من ذلك، كانت تسد فتحة الباب ميرسي:

- بونجور.. إنني أحبك.. الله يحبك أيضاً!

ثم أردفت مشيرة إلى خارج الغرفة:

- تفضل!

قادتني إلى غرفة أخرى مجاورة بها ثلاث كنبات فقط.. لم يكن الممر الذي عبرناه خالياً من "أولاد الشيطان" الذين يشفعون كل سلام لهم بأنهم "يحبونك" وبأن "الله يحبك".

جثت ميرسي على إحدى الكنبات، وأنا على الثانية.. وقبل أن أقول لها شيئاً، كان مايك يقف على رؤوسنا،

وبجانبه فتاة في حوالي العشرين، أكثر ملاحة، وأخف وزناً ودماً من ميرسي.. وعلى الرغم من صغر سنها إلا أن أمارات الإنهاك والسهر المزمن كانت ترتسم حروفاً غليظة تحت عينيها..

قدمها مايك:

- هذه سوزان.. مغنية.. وإحدى أفراد الأسرة!

احتلت سوزان الكنبة الثالثة.. ثم استوت في جلستها على صوت مايك يقول لي:

- لم أستطع أن أهيئ لك كل ما طلبت، فأكثر أفراد الأسرة في إجازة اليوم.. وليس هناك أي مسؤول إداري أو مشرف يمكنك مقابلته.. آسف!.

- أستطيع أن أعود في يوم آخر إن أحببت؟!

قلت ذلك وأنا ألتفت لا شعورياً نحو ميرسي.. فضحكت وهي تقول:

- بإمكانك أن تتحدث معنا نحن الآن، وسنعطيك كل ما نعرف من معلومات ممكنة.. مايك لايستطيع أن يعطيك موعداً آخر!

ثم رفعت رأسها نحو مايك تقول:

- أليس كذلك ؟!

مايك المسكين هز رأسه بالنفي، ثم خرج ويده توصد الباب خلفه.. بدأ يتأكد لي بأن ميرسي ليست معلمة رقص فقط، ولكنها من "القادة" أيضاً.. حسناً.. التفت إلى سوزان التي انفرج فمها الصغير لأول مرة منذ أن دخلت إلى هذه الغرفة عن العبارة المعتادة:

- إني أحبك.. الله يحبك أيضاً!

- شكراً.. ولكن من أنت؟!

- مغنية أمريكية الجنسية.. مسيحية.. مطلقة.. وعندي طفل!

- لقد كانت لغتها الفرنسية أحسن بكثير من فرنسية ميرسي.

عدت أسألها:

- لماذا رغبت في الانتساب إلى أسرة موسى هذه؟!

أجابت وهي تنظر إلى ميرسي كأنها تستأذنها للحديث:

- هذه قصة تطول!.. هاكها باختصار: بدأت أشعر بالضياع في سن الرابعة عشرة.. لم أذهب إلى الكنيسة في يوم من الأيام.. وفي هذه "المدينة" القاهرة الشحيحة القاسية كنت أعيش فراغاً.. تعرفت على فريق من الهبيين الأمريكيين، عرفت أغرب صور الإباحية المتطرفة، وتعاطيت كل أنواع المخدرات وبالذات الحشيش.. كانت الأزمة تزداد اتساعاً، فقطعت كلياً الاتصال بأسرتي، ولم يعد يربطني بها أي رابط حتى سن الثامنة عشرة، إذ فقدت الثقة في كل شيء حتى في "الحب".. كانت الرغبة في الانتحار تدنو نحوي من يوم لآخر!!

ذهبت وحيدة إلى كاليفورنيا.. وهناك التقيت ببعض الشباب الذين يدعون إلى الإيمان بالمسيح.. ولكن بطريقة جديدة. يدعون إلى الكنيسة ولكنها كنيسة جديدة.. أو أنه في الواقع لم يكن هناك أي كنيسة إطلاقاً.. حدثوني عن الله كثيراً وبطريقة عصرية.

- هيه.. حسناً.. ولكن من هم هؤلاء الشباب الذين حدثوك عن المسيح؟!

- لقد كانوا من أعضاء الأسرة.

- ثم ماذا؟!

- منذ ذلك الحين وأنا معهم سعيدة.. فقد وجدت الطريق.. وجدت نفسي!!

سوزان وأمثالها من شباب الإباحية والمخدرات، هم مجرد آلات بدون إرادة في يد "موسى داود" المزعوم وأمثاله؛ إن أكثر أفراد هذه الأسرة هم من أبناء الهيبية المتطرفة، أو من "الفاغابون" الذين أكلهم الجوع والتشرد، وعدم الاستقرار، وفقدان الثقة في كل شيء.. شباب يأس وقنوط، يتعلق بكل ما يمكن أن يبعده عن واقعه السيء ومصيره الأسوأ..

- من هو موسى داود.. بالنسبة لك؟!

قبل أن تجيب تحرك "الفيل" الذي كان يربض على يميني.. أعني ميرسي.. تقول:

- إنه نبينا، وهو حلقة الوصل بيننا وبين الله.

التفت نحوها ساخراً:

- هاه!.. ومن الذي أرسله لكم يا ترى؟!

- الله!

- هل سبق أن رأيته؟!
- لا!
- وأنت يا سوزان؟!
- لا!
- هل سبق أن رآه أحد غيركما من أفراد الأسرة؟!

قالت ميرسي:

- لا يمكن لأحد أن يراه أو يجتمع به.

قلت:

- ولكن ما الذي يؤكد لكما وجوده؟! قد تقولون ما يكتب من رسائل وكتيبات، ولكن لماذا لا تفترضان بأن موسى داود، هو اسم تتستر وراءه عصابة تصدر منشوراتها وكتيباتها بهذا الاسم المنتحل؟! إذ إنه لا يوجد أي دليل مادي يثبت وجود شخص معين يحمل هذا الاسم!

كانت تصمت سوزان، أما ميرسي فقد ردت بوحشية وباختصار:

- نحن لا يهمنا التحقق من هويته، بقدر ما تهمنا أفكاره ودعوته.. ثم أنت هل جئت بقصد التشكيك في موسى أم بقصد الحديث معنا؟!

التفت إلى سوزان أسألها:

- هذه الأسرة التي تنتمين إليها.. هل هي دينية أو سياسية أو فكرية؟ أو ماذا؟.. وموسى المزعوم هل هو شيوعي؟! اشتراكي؟! صهيوني؟!.

- ميرسي لم تترك لسوزان فرصة الإجابة:

- نحن لا تهمنا السياسة.. نحن فرقة دينية نحب الله والله يحبنا .

- قلت:

- ولكن موسى هذا أصدر أكثر من كتيب، وأكثر من منشور سياسي ضد نظم سياسية معينة.. هذا يعني أن له اهتمامات سياسية!

أجابت:

- هذا لا يهمنا!!

تحدثنا بعد ذلك في جو مفعم بالجدل والمناهضة في كل شيء حول موسى داود المزعوم وحول نوايا مثل هذه المنظمة..

أذكر هنا بأن الحركة بدأت عام 1968م في الولايات المتحدة الأمريكية وبالذات في كاليفورنيا.. الآن لها مراكز في شتى أنحاء أوروبا وبالذات في لندن، وباريس،

وجنيف، وبروكسل، وروما عدا بلدان العالم الأخرى.. إذ إن مجموع البلدان التي تنتشر فيها فروع هذه الجمعية حوالي مائة بلد.. وعدد مراكزها بصفة إجمالية لا يقل عن مائتي مركز.

النشاطات الفنية التي تقوم بها هذه الجمعية، إنما هي وسيلة لجذب الناس إليها تقول ميرسي نفسها:

- نحن نركز على الموسيقى والغناء في باريس؛ لأن الفرنسيين يحبون الموسيقى. وفي إيطاليا نهتم برعاية الأطفال والاعتناء بهم لأن الإيطاليين يحبون الأطفال. وفي لندن نولي المسرح درجة كبيرة من العناية؛ لأن الإنجليز يحبون المسرح.. فنحن لسنا فنانين محترفين، بل هواة نستخدم أي وسيلة من شأنها تبليغ رسالتنا.

كنت أريد أن يستمر النقاش، لولا أن الساعة كانت تقترب من الخامسة والنصف بعد الظهر، وهذه الساعة هي التي "تصلي!" فيها ميرسي وتسمع موسيقاها.. استأذنت هي، ولكن قبل أن تخرج طلبت إلي سوزان أن ترافقها.. كنت أود أن تبقى سوزان، ولكن إلحاح ميرسي ألجأ المسكينة إلى أن تستأذن هي الأخرى.

جمعت أطرافي.. وخرجت..

"أولاد الشيطان" كثيرون.. سخرهم فراغهم الروحي لأن يكونوا كذلك..

لا أعرف كيف يمكن الملاءمة بين "عقلانيات" الغرب وظهور مثل هذه المنظمات والجماعات التي لا عقل لها. هل هو فشل التعليم؟! هل هي قسوة الحياة في مجتمعات "الندرة" واللهاث؟! هل هي المخدرات، أو هو الفقر الروحي والخواء الوجداني اللذان يسهمان في ضبط توازن الإنسان هل هو الفشل في بناء علاقات سوية مع الناس والمجتمع وشروط الحياة الجديدة وتحدياتها؟! هل هو افتنان الإنسان بالبحث الدائم عن "الغائب" أو "المفقود" الغامض، الملتبس، الذي لا يكشف دائماً عن "ماهيته" وربما كان من المناسب أن يبقى كذلك؟! المهم إن هناك منتفعين أو مستفيدين من مثل هذه الملتبسات: ليس فقط الشباب الذين يجدون فيها الخلاص، بل كذلك الذين يهيئون لهم المائدة!.

وتلح عليّ تساؤلات أخرى: هل يكتب لمثل هذه الجماعات والتنظيمات الصمود والاستمرار؟! وهل يزداد مريدوها والمنتسبون إليها؟ إن وجودها في الأصل هو للطعن في العلم، وللدحض في الدين الذين ينظم العلاقة بين الكون والحياة والأشياء من جهة، والإنسان من جهة أخرى.

العمى الثقافي

الإنسان لغة!.. فالناس كلهم يشتركون في "التضاريس الفيزيولوجية"، فكلهم لهم أيد، ولهم أرجل، ولهم رؤوس، وآذان، وعيون، وأفواه، لكنهم يختلفون عن بعضهم البعض عندما يتكلمون، أي عندما يفكرون، وعندما يتصرفون..

الإنسان إذن ليس هو ذلك الوجود الحسي من اللحم والعظم، بقدر ما هو الذكاء، والفكر، وكوامن الإبداع.. أي، باختصار، اللغة.

الإنسان هو إذن لغة!

وبالمقياس نفسه.. فالمكان هو – حتماً – ذاكرة!

والمكان الذي ليس له ذاكرة، أو أنه بلا تاريخ، "هو لامكان!"

المكان هو مفهوم مقيد بالزمان.. أي بأحداث أو تطورات، فهي التي تحدد قيمته وتبين أهميته. وبدون تلك الأحداث أو التطورات، يكون المكان بلا ملامح، وبلا وجه، وبلا هوية، فهو كأي مكان بلا حدود، بلا جدران!.. بلا أسقف.. فهو مجرد امتداد لامتناه لليابسة.. هو لا مكان!

ويكون المكان هكذا بلا وهج، لأن أضواء التاريخ مصوبة نحو جهة أخرى، أو مكان آخر.

دارت بخاطري هذه الملاحظات وأنا أتصفح ملامح "المكان" في مطعم "كلوسري دي ليلاً" على حدود مونبرناس مع الحي اللاتيني في مدينة الثقافة والفن و"الأمكنة".. باريس.

كان الوقت ظهراً، وكنت في معية المرحوم الشاعر الأستاذ محمد الفهد العيسى (والد صديقي الأثير المرحوم أيضاً عبدالوهاب العيسى)، الجدران تتحلى بصور شعراء مثل فيرلين، وبولفور، وأبوللينير.

والجدران نفسها تحمل تواقيع مشاهير آخرين مثل بابلو بيكاسو، وأرنست همنجواي، وفوجيتا، وغيرهم.

الأكل هنا جيد، ولكن ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يميز "المكان"، وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يجئ من أجله الناس إلى مثل هذا المكان.

إنهم يجيئون إلى هنا لاستلهام المكان، ولاستجوابه، ولاستنطاقه، وليقول لهم هو كل ما لديه! وليبوح بما يكتنز من أفكار وإيحاءات، وليفضي بما يختزنه من الأسرار والأخبار.

الفرنسيون تحديداً يحبون هذا "المكان"، وهم حافظوا عليه، وصانوه وحموه، منذ حوالي قرن ونصف من الزمان.

بني هذا المقهى في العام 1847م، يوم كان مجرد مقهى على حدود باريس القديمة، فيخرج إليه الباريسيون في إجازات نهاية الأسبوع للترويح والمتعة.

يقول عنه همنجواي: "كان من أجمل مقاهي باريس، كان دفئاً في الشتاء.. أما في الربيع والخريف، فليس هناك أليق بالمرء من أن يتخذ له مكاناً في ساحته،

متظللاً بامتداد الأشجار من جهة اللوكسمبورغ، ومن جهة تمثال الماريشال "ناي".

الفرنسيون يبحونه أيضاً لأنه كان "ملتقى الرسامين والشعراء والفنانين"، كما يذكر عنه الشاعر أبوللينير.

هذه المطعم (اليوم) لا يختلف في مستوى الخدمات عن أي مطعم آخر من مطاعم باريس الأنيقة، لكنه حتماً يختلف عنها جميعاً من حيث إن له "ذاكرته" الخاصة، وله أسراره الخاصة، وله موحياته الخاصة، فهنا قرن ونصف من الزمان، وهنا تراث هائل من الوجوه، والسحنات، والخبرات، والحنين.

ذاكرة "المكان" هي التي جعلت شاعراً، مثل محمد الفهد العيسى يشعر بأنه ليس بالغريب تماماً على المكان، فهناك ملامح فن، وهناك ملامح شعر، وهذه الوجوه والتواقيع التي تحتل الجدران، هي وجوه نعرف سحناتها أو لعلنا نحسها، أو ندرك بعض ما تريد أن تفضي به عبر هذه المساحات المربعة أو المستطيلة فوق "الجص" الذي لايختلف عن أي "جص" أو فوق الخشب الذي لا يختلف عن أي خشب.

نحن لم نترب على احترام ذاكرة المكان، فكل مكان عندنا هو ليس بالمكان، وقد أعطانا الله موهبة، واستعداداً فطرياً خاصاً لتحطيم كل "مكان" قادر على الكلام، وعلى البوح، وعلى الإفضاء بالأخبار، والكشف عن الأسرار.

معظم الآثار عندنا ذهبت أدراج الرياح، الغاءً وتدميراً، بذريعة الحرب على الوثنية، أو نتيجة الجهل التام بلغة الأمكنة وأحاديثها الشيقة المثيرة التي لا يجيدها سواها، ولا يغني عنها سواها.

الفرنسيون يحتفظون بمقهى "مجرد مقهى" تحول إلى مطعم، عمره قرن ونصف القرن. لقد احتفظوا به لأن لديه ما يقوله، أما نحن فإننا "نخرس" كل يوم أماكن كثيرة بلا إكتراث، على الرغم من أنه قد يكون لديها أشياء كثيرة تريد قولها.

أتذكر دائماً كم من معالم التاريخ والحضارة حذفناها وألغينا وجودها لغير ما أسباب ذات منطق. إنها دائماً أسباب بليدة لا تعرف ماذا تترك من أثر قاتل على الحياة، والحضارة، والتاريخ.. نحن نظن أن تلك الأماكن

مجرد جماد غير قادر على الكلام. إنها تتكلم فعلاً، ولكننا نحن المصابون بالصمم، بل بالعمى الثقافي الذي لا يرى في الفضاء الممتد أمامه أو خلفه إلاّ الظلام! والفراغ!

لدينا قدرة هائلة على إسكات البشر والمدر والحجر.. فمن مثلنا؟!

اتشحي بالسيف..
لا تهملي الحب!

حين تتزين العاصمة يتبختر الوطن كله، وحين تفرح العاصمة يزغرد الوطن أجمعه، يزغرد بكل ما أوتي من صوت، ومن جبروت!

حين تبكي العاصمة تتشقق ضلوع الوطن كله، وحين تغتمّ العاصمة يئن الوطن بكل ما فيه، استجابةً لمكامن الوجع والحزن والدموع. فلهذه الأسباب سميت العاصمة عاصمة، ولهذه الأسباب أيضاً كانت العاصمة هي القلب الذي ينبض، والعين التي تبصر، والأذن التي تسمع، واليد التي تلوّح بالحب، والتدفق، والوعود التي لا تخيب.

العاصمة هي عنوان البلد، وهي مفتاحه إلى قلوب الناس. والعاصمة هي دائماً العقل الذي يفكر، والذهن الذي يدرك، والحس الذي يلتمع، والعزم الذي يفصل ويقرر.

ألم تروا أن فرنسا ترتبك حين تستيقظ باريس في كسل؟ وأن اليابان يرتفع فيها منسوب الزلزال حين تنام طوكيو على وجل؟ وأن أسبانيا تصفق الأرض بكامل قوتها في رقصة مجنونة من الفلامنكو لأن مدريد الجميلة قد ضحكت، أو غنت، أو أعطت موعداً لعشقها الجديد؟!

أما تلك البلدان التي ضيقت مساحات الحب والإبداع في عواصمها فقد خرجت للناس بلا وجه، وبلا ملامح. وبلا ودَ. فما هي واشنطن "قرية البيت الأبيض الكبيرة" مقارنة بنيويورك، ولوس أنجلس، وسان فرانسيسكو، وشيكاغو، وغيرها؟ وما مدينة بون أمام ميونيخ، أو فرانكفورت، أو برلين، وغيرها من المدن الألمانية التي تتدفق خيلاءً وشعراً وصبابة؟ الناس ينفرون من العواصم التي تتشح بالسيوف والخطابات، وتهمل الحب والفكر والفن، والناس أيضاً يتساءلون هل ازدهرت القاهرة في

ذاكرة الجماهير بغير الجمال واختراع الثقافة والفرح؟، وهل ارتقت بغداد ودمشق وروما بغير الأنوار التي غطتها، والأضواء التي انبثقت منها؟ لقد كانت –كلها– عواصم بأذرعة، وعيون، ورؤوس، ووجوه تتميز بزهو شرس على صفحات التاريخ.

ومنذ مدة ونحن نرقب وَثْبَ الرياض بكثير من الشوق، وكثير من التطلع، فهي عنوان الوطن، وهي وجهه وهي هيبته. ولقد كانت قلوبنا تخفق مع كل حجر يضاف إلى البناء، وكانت تتمدد الابتسامة على مساحة الوجه مع كل زهرة تتغطرس في النمو و"التعملق" والتحدي. ولقد بقيت الرياض – لنا وللناس – هي الترمومتر الذي نقيس به حرارة الحب في هذا الوطن، وهي القصيدة التي يشترك في نظمها كل شباب الوطن، وهي الحلية التي تتزين بها نساؤنا في كل أعياد الوطن، وهي الرمح الذي يهزه في يديه رجالنا حيثما كانوا، وأينما وجدوا، وكلما تذكروا رموز العز في هذا الوطن. والشمس عندما تشرق على الرياض زاهية بهية، نخرج جميعاً إلى ساحة البيت نغنى ولا نملّ، ونضحك ولا نكلّ.. والمطر حين

يهمي عليها، وهي تغتسل فيه بحشمة وكبرياء يتدفق القلب، وتشرق العين، ويتصبب النشيد من الحناجر، كحبات الياقوت، أو كثمر الياسمين.

لقد عجبنا لحركة التاريخ حين جاءت النتيجة على هذا النحو الكريم. فقد أصبحت الرياض عاصمة "ضخمة" تجمع في يديها، وتضم إلى صدرها الفاره، كل مدن الوطن، وكل قراه وهجره، وكل سهوله ووديانه، وسواحله، وجباله، وصحاريه. لقد أصبحت الرياض عاصمة "عظيمة" توزع الحب والقوة والخيلاء في جميع سماوات البلاد، وتجعله ينهمر على كل حبة رمل فيها، وعلى كل نبتة حية في مجاهيلها.. ولقد تخلقت الرياض وتشكلت من قلوب "أهل المملكة" حتى أصبحت على هذا النحو من الرواء، وعلى هذا النحو من الرشاقة والحيوية والامتلاء. إن رجحان هذه العاصمة لا يأتي فقط من القيمة السياسية والثقل الاقتصادي اللذين أدتهما وتؤديهما تأثيراً وحسماً منذ أن توحدت جهات الجزيرة "الحديثة" تحت لواء واحد، لكن رجحان هذه العاصمة يدعمه - الآن - الحجم الحضاري الذي تجسده على

خارطة العرب والمسلمين، وبالتالي على الاعتبار الذي بدأت تتقلده في محافل الإنجازات الإنسانية، فهذه الرياض، بكل الهدوء والرسوخ والثقة، مازالت هي عاصمة التأثير والحسم، ولهذا فقد سُميَّت "بيت العرب"، فهي مازالت تتمسك بدورها العريق، وهو أن تحتضن في أحشائها كل العرب. وهذه الرياض، بكل التواضع والعزة والشموخ، يأتي إليها كل من أراد أن يناقش أو يبحث في مسائل العرب، فهي مازالت على رسالتها القديمة، تلكم هي مسؤولية حضارة العرب وتاريخهم. والرياض ليست هذا فقط، بل هي الآن ضوء ممتد يعانق السماء، فقد لفظت الجهل الذي كان يغلف وجهها الجميل، وهي مرقت من قبضة الجوع الذي كان يسكب الشحوب على جسدها الغض، وهي نفذت من ساعد المرض الذي كان يأسرها حد الضعف.. حد الموت. لقد أضحت الرياض الآن حجماً حضارياً باذخاً يزهو بالبناء، ولكن – فوق ذلك – يزهو بالعلم والوعي والثقافة والبصيرة. ويكفي المدينة التي كان فيها "المطوع" هو النموذج الأوحد والمتفرد في الواجهة الثقافية، أنها تضم وحدها – الآن – عدداً من الجامعات، وعدداً من الكليات والمعاهد العليا

المتخصصة. ويكفي أن المدينة التي كانت تضمر فيها المنابر الثقافية إلى حد التلاشي والعدم، أنها الآن تحتشد بالمناسبات العلمية والثقافية الكبرى، التي يتحدث عنها العالم في كل مكان: (جوائز الملك فيصل، احتفالات الجنادرية. ومعارض الكتاب، ومعارض الرسم، وعدد من المؤتمرات العلمية في تخصصات مختلفة).

كان هناك يوم قد ولى، لم يكن في مقدور الرياض أن تستوعب فيه كل هذا الضوء، أو أن تتطاول فيه إلى كل هذا الشموخ، فلا مساحة القلب كانت تكفي، ولا فسحة العقل والفكر والإبداع كانت تسمح. فالمدينة كانت صغيرة، بل ربما كانت تجد حرجاً بالغاً حينما يسمونها "مدينة". وسكان الرياض كانت تصطك عليهم الجدران فلا يدرون ماذا كان يتفاعل خارج حدود العارض. إن الذين عاشوا تلك الأيام. هم الذين يعيشون اليوم الغبطة حتى حدودها القصوى. فهم الذين تتهيأ لهم المقارنة بكامل مفاجآتها، وجيلنا – نحن – مازال يذكر كيف كانت هذه الرياض قبل خمسة عشر عاماً فقط، وكيف أصبحت الآن.

إن الاحتفال بزهو العاصمة، هو احتفال بزهو الوطن كله، وما تحقق هنا هو عينة لما تحقق في كل مكان من هذا البلد الجميل. إنه الجميل في عيون أهله وشبابه. هؤلاء الذين يغنون اليوم لعاصمتهم ولا يملون، والذين أودعوها قلوبهم؛ كي تزداد كبرياء وسمواً، وكي تضع اليد في اليد.. وتمضي.. نحو المجد.. نحو الخلد.

الغندرة.. وحوار العصافير!

في أدنبره كنا على موعد مع "بدوي" آخر كان قد أقسم، هو من جهته، بأن يفسح له في مجالس الحضر مكاناً!

كان يجيء من هناك.. من أقصى الأرض.. من أمريكا.. ومعه خنجر صقلية، قطع على نفسه أن يسندها إلى صدر أحلى عشيقاته، وتلك أروع صور الحب، بل إنها أنبل أشكال الاستئثار بأنفاس الحبيب وروحه!

سبحان الله!.. كانت رأسه لاتزال تمتلئ بتفاصيل ودقائق أعراس التاريخ النابه في بلاده!.. وكان قلبه المتوثب لايزال يتجرع في اطمئنان كبرياء الميراث في مكة والمدينة.

لما اجتمعنا هنا قررنا أن "نعبث" منذ اليوم الأول باستكانة العاصمة الاسكتلندية.. قررنا أن نمزق ثيابها.. أن "نخربش" خدها!.. أن نلطمها حتى تبكي أو تصيح.. كانت "غارة" مجنونة كاسحة عكرت في نفوس الاسكتلنديين بعض ما طاب!

لا تخافوا.. ففي الأيام الأخرى، وبعد أن عدنا إلى قواعدنا سالمين، كانوا كلهم يدعوننا "جنتلمن"؛ فهم كانوا يتذكرون أننا في يوم "الغارة" كنا خصوماً شرفاء!.. لا نطعن إلا في الوجه!

شكوت إلى صديقنا القادم من أمريكا حال رفيق الرحلة الذي أعادنا إلى مقر إقامته في أدنبره .. قلت له:

- يا عزيزي، إنه مستهام!.. فقد قتلنا شعراً حتى كرهنا الشعر!

قشع عن رأسه القبعة "التكساسية" وأزاح عن قدمه "بوط" رعاة البقر، ثم أخذ يطلب النجدة في صور وهاد بلاده وجبالها، لينشئ هذه الأبيات التي وضعها بين يدي صاحبنا، يلقمه بها حجراً. ليسكت.. فيريحنا ويستريح:

ياللي تغني بالهوى وأنت معلول
لا انتـــه بحي ولا انت ميت نواريه
عنيــت نفســك بالهــوى، أنت مهبــول
لا انتـــــه ببياعــه ولا انته بشاريه
ما كل من جانـــا يزامـــر مثل أبا الهول
وإلا كمـــــــا عنتر بعيده مراميــه
درب الهوى يا أهل الهوى سيف مسلول
لازم علـــى راعيـــه لازم يداريـــه
اسمع كلامـي يـــوم أقولـــه بمدلـــول
قـــاري ولا يحتاج لـه من يقريــه.

أؤكد لكم أن هذا المقصود أعلاه لم ينظم بعدها بيتاً واحداً.. فشكرنا الله على "رحمته" وإنعامه!!

لقـد سـكت رغـم أن أدنبـره الخضـراء، ذات الطبيعـة الضاحكة ظلت، خلال قرون طويلة، إلهاماً شعرياً وفنياً لكثير من أصحاب صناعة الخيال، فكثير من الشعراء غنوا شخصيتها الأخاذة، ومناظرها الاستثنائية.. وهي بالنسبة لأحدهم: "ذكرى يجب أن نحتفظ بها فوق الأخريات!"

ثم هناك أحد أصحاب الإنشاء الموسيقي، واسمه مينديلش، يؤكد أنه وجد بداية أشهر سيمفونياته في أدنبره.

وليس هذا فحسب.. فقد كانت هذه المدينة، في القرن الثامن عشر بالذات، عاصمة أدبية وثقافية كبرى، إذ كانت مجمع الأدباء والشعراء والفلاسفة أمثال ستيفنسن الروائي والشاعر.. وديفيد هيوم الفيلسوف والمؤرخ.. وهنري ما كنزي مؤلف "الرجل العاطفي".. وآدم سميث مؤلف "أبحاث على طبيعة ثروات الأمم وأسبابها".. وأوليفر غولدسميث الذي قضي فيها عامين لدراسة الطب، وغير هؤلاء آخرون ولدوا أو عاشوا في أدنبره، وكانت لهم وحياً وإلهاماً.

أغرب ما في البعث الثقافي الذي عرفته عاصمة الأسكوتلنديين في القرن الثامن عشر وما بعده إنما تحقق أول ما تحقق على يد "حلاق".. أجل حلاق!.. فقد أصبح هذا الحلاق في يوم ما صاحب مكتبة، وشاعراً، وجامع أغان، وأهم المشتغلين بالمسرح في المدينة. اسمه الآن رامساي، ووفاء لأريحيته العريضة، فقد أقاموا له تمثالاً زاهياً في أجمل حدائق المدينة:

"ويست برانسس ستريت".. لكن تمثاله لم يكن الأشهر، ولا الأكبر، ولا الأجمل، في أدنبره.. فلقد استأثر عنه بكل هذه الصفات تمثال آخر لرجل آخر، جاء بعد رامساي، ليأخذ في عهدته شوطاً جديداً من أشواط المسار الثقافي والعمراني في المدينة.

كان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر، عندما جاء وولتر سكوت، وهذا هو اسمه، يمحو في أذهان الاسكوتلنديين كل أثر لمقلة أدنبرة الأوحد، آنذاك، الشاعر بيرنس. قضى وولتر سكوت هذا كل حياته يسفح على مناكب مدينته الصغيرة الوادعة طموحه وتوقه ليس برواياته وأشعاره فقط، ولكن أيضاً بما حققه لها من انتصارات مدنية وحضارية؛ بفضل عمله بصفته محامياً ولكونه رئيساً للمقاطعة كلها.. لقد كان كذلك هو مَنْ ينظم زيارات الملك جورج الرابع لأدنبره فيما بعد.. أي في العشرينيات من القرن التاسع عشر. وعلى يديه أصبحت هذه العاصمة الهادئة "قرة" عين بريطانيا العظمى كلها، ولهذا كان يستأثر بأشهر النصب التذكارية فيها.

كنت أثناء إقامتي في أدنبره أصر على عيادة ثلاثة أشياء لو أعطوني مكانها القمر: الأول: برودي كلوز، حيث كان يعيش إنسان غريب، اتخذه الكاتب الروائي ستيفينس "موديلاً" لبطل إحدى رواياته المعروفة، التي تعد أحد الأعمال الفنية البارزة في ميدان أدب الرعب.. وعنوانها: "الدكتور جيكل والسيد هيد".. هذا الـ "بني آدم" الذي كان يعيش هنا اسمه وليام برودي، وقصة اشتهاره، وأخذه كإيحاء فني لعمل أدبي بارز، هي أنه كان رئيساً للمجلس البلدي في أدنبره، رمزاً للاستقامة، والمواطنة الصالحة في الظاهر، ولكن في الليل، عندما ينام الناس، كان يقوم متنكراً بشن أشنع عمليات اللصوصية وقطع الطريق في المدينة نفسها. لقد كان أحد علامات الخوف والإرهاب والسلب في المدينة التي يرأس مجلسها البلدي. اكتشفوه فيما بعد، فألقوا عليه القبض، ثم علقوه في حبل طويل متين اسمه المشنقة.

الثاني: المكتبة المركزية.. و.. المكتبة الإسكوتلندية.. وهذه الأخيرة تعد واحدة من المكتبات

الأربع الكبرى المهمة في المملكة المتحدة. بنيت العام 1682م (تأمل في التاريخ).. وقد بنتها كلية الحقوق في جامعة أدنبرة، وفيها أكثر من ثلاثة آلاف عنوان، وعدد كبير جداً من المخطوطات.. أما المكتبة الأولى، فقد لا تصل إلى مستوى الثانية، وبها صالة كاملة اسمها أدنبره روم.. وتحوي عدداً من الرسوم، والنحوت، والصور، والكتب، وقصاصات المجلات، والجرائد التي تحكي بشكل ما بعض التطورات التاريخية والحضارية المختلفة لمدينة أدنبره نفسها.. في المكتبة أيضاً مختارات شيقة من الموسيقى والفنون الجميلة الأخرى.

الثالث: جامعة أدنبره.. هذه الجامعة التي تأسست العام 1582م (لاحظوا التاريخ هذا القرن السادس عشر..). إن في أوربا جامعات أعرق وأكبر منها، وحتى في المملكة المتحدة نفسها هناك جامعات تطغى سمعتها على سمعة جامعة أدنبره، ولكن كلية الطب في هذه الجامعة هي التي حشدت حولها قدراً ليس يسيراً من السمعة والشهرة بجديتها وبقوتها، ثم بالانتصارات

العلمية التي حُقِّقت بين جدرانها. ففيها حقق جيمس سيميسن اكتشافاً أساسياً حول استعمال المخدر أو الـ"كلورو فورم" في العمليات الجراحية وعمليات الولادة.. ثم جاء بعده اللورد لستير ينقذ حياة أعداد كثيرة من البشر باكتشافاته الجيدة في حقل المطهرات. وإن مجرد وجود أساتذة على هذا المستوى في كلية ما، يكفي وحده لتكثيف قدر لا بأس به من وقار العلم حول الكلية..

هذه الأشياء الثلاثة، على الرغم من تعلقنا بها، لم تكن لتستأثر بكل تطلعنا نحو أدنبره، ففي هذه المدينة أشياء أخرى احتلت من نفوسنا مواطن مكينة من الإعجاب. وحتى متاحفها ومراكزها الفنية الغنية بكثير من الأعمال التي تولّد الإكبار في عيون قاصدي العاصمة الإسكوتلندية، لم تأخذ منا هي الأخرى كل الاهتمام؛ لأننا رأينا مثلها وأحسن. ربما كان هناك شيء لم نره من قبل، وبالتأكيد لم يره أحد ممن لم يأتوا إلى هذه المدينة، لأنه لا يوجد إلا فيها أعني "متحف الطفولة" وهو يضم مجموعة كبيرة وقديمة

جداً من ألعاب الأطفال، والكتب، والبدل، والعرائس، واللوحات الصغيرة، مما يتلعق بحياة الصغار في الماضي.

أدنبره إلى جانب هذا الزخم الثقافي الجيد، هي، ومنذ العام 1947م، مقر لعدد من المهرجانات العالمية، أهمها: "مهرجان الموسيقى والفنون الدرامية" كالمسرح.

لا تستكثروا ذلك على مدينة لها من الأهمية التاريخية والسياسية ما لإدنبره، فهذه المدينة بالرغم من الوحدة القائمة بين انجلترا وإسكوتلندا منذ العام 1707م لا تزال تحافظ على بقائها عاصمة للإسكوتلنديين تاريخياً وثقافياً وإدارياً.

إسكوتلندا تشكل القسم الثالث من المملكة المتحدة إلى جانب إنجلترا وشمال أيرلندا، وعلى الرغم من هذه الوحدة التي يشارف عمرها على نهاية قرنه الثالث فإن الأسكوتلنديين مازالوا يصرون باعتزاز على الإبقاء على تراثهم القومي، وفلكلورهم الخاص.

كل الناس في شتى أنحاء الدنيا يعرفون اللباس الوطني الإسكوتلندي، ويعرفون أيضاً الموسيقى الأسكوتلندية الـ "بيبروك" وهي تتخذ آلات "موسيقى القرب" المعروفة أدوات رئيسية للعزف.

بالمناسبة الموسيقى الإسكوتلندية أقرب أنواع الموسيقى الغربية إلى الأذن الشرقية.. ويوجد لون من هذا النوع من الموسيقى في الأجزاء الغربية من فرنسا.. وبالتحديد في مدينة "راين" وما حولها.

ربما وجدنا تفسيراً تاريخياً للقربى الناشئة بين موسيقى بعض مناطق غرب فرنسا والموسيقى الإسكوتلندنية، وهذا التفسير هو أن الإسكوتلنديين ينحدرون من أربعة أصول، هي: ستوك، واسكندناف.. وجيرمن.. وسيلتيك، والغالبية منهم تنحدر من هذا الأخير.. ومنه أيضاً، وهذا هو المهم، تنحدر القبائل القديمة التي عاشت وتعيش في غرب فرنسا.

اسمحوا لنا – غفر الله لكم ! – هذا الاستطراد التاريخي! واعلموا أننا قضينا في هذه المدينة أياماً

ماتعة بحق.. لن نحدثكم عن دواعي "الفتنة" التي ترقص في عيون أهلها بتحدٍّ سافر.. اتركوا هذه الأشياء التي تمثل بحق أحد المصادر الهائلة لـ "غَنْدرة" أدنبرة.. أو "أثنيا الشمال" كما يسمونها أحياناً.. وقد سموها كذلك لطراز بيوتها المعماري القديم المأخوذ عن الأغريق.. وأول من سماها بهذا الاسم فنان يوناني اسمه "وليامز الأغريقي".

اتركوا هذه الأشياء الآن، وتعالوا أبوح لكم بسر كان لي كالنجوى.. لقد كنت في أحايين مختلفة انسحب بهدوء من غرفتي في الفندق، وأذهب دون أن يعلم أحد!، إلى بينتلاند هيلز حيث لا حوار في هذه المنطقة سوى مع العصافير والشجر.. لا تنسوا أن في أدنبره أكثر من تسعمائة ألف شجرة، أي ربما ضعف سكانها من البشر.

كنت أريح خيالي في هذه المنطقة إلى أحلام لها أجنحة لا تحصى، كما أن لها امتداداً لا يعرف النهاية! كان يعاودني فيها "طيف" أحد الرجال الذين كانوا

يجيئون إليها للبحث عن عرائس أفكارهم، وشذرات خواطرهم وعواطفهم.. أعني روبيرت ستيفينسن، الشاعر؛ صاحب حديقة قصائد للأطفال.. والكاتب أيضاً صاحب الأعمال الخالدة، مثل سد هيرمستن.

ستيفنسن هذا.. كان يجيء إلى هنا.. إلى بينتلاند هليز.. كلما رغب في تسطيح مشاعره! رفعت يدي محتجاً في وجهه أكثر من مرة؛ لأنه رأى يوماً أن يترك هذه المنطقة، بل أدنبره كلها، بحثاً عن مكان آخر، ربما وجد فيه هواء أكثر نقاء، ونسيماً أكثر نضجاً.. ولكني كنت أرخي يدي خجلاً في كل مرة، فالرجل ما هجر المكان الساحر إلا لأنه كان مريضاً، فقد كانت رئتاه تعمران بثقوب كثيرة كثقوب المنخل، فهو كان مصاباً بمرض السل، قبل أن يعثروا لآفة الصدر هذه على علاج ناجع. كان لابد أن يضرب في كل اتجاه، بحثاً عن "العافية". وانعتاقاً من الموت المحقق، كان لابد أن يتعلق بكل أسباب الصحة. وأنا أثق أنه لولا "السل" لما ترك

ستيفينسن أدنبره والبيتنلاند هليز، ليذهب إلى تاهيتي وهنولولو.. وغيرهما. أحياناً كنت أؤيد فيه تلك الهجرة المتواصلة من بلد إلى بلد، ليس فقط لأنها كانت وسيلته الوحيدة للتشبث بالأمل في البرء من السل.. ولكن، فوق ذلك، لأنها استدرت من فؤاده المترف أعمالاً أدبية هائلة، مثل "رحلة خلال الأرض".. و"رحلة على حمار عبر جبال ستفين".

لا تقولوا إنني مجنون!.. ولكن قولوا إن في طبعي شيئاً يسيراً من طبع ستيفينسن وأقرانه!

لقد ضحكت من نفسي عندما وصلت إلى لندن، تاركاً خلفي العاصمة الاسكوتلندية.. ضحكت لأنني كنت أطعن رغبتي في الصميم.

لندن هذه.. مدينة "قذرة!".. مهترئة.. ثقيلة. لا تستطيع أن تحدد فيها نفسك.. وهي أيضاً مومس عجوز لا تحسن تقليد الفتيات اللاتي ينبثق الشباب من أذرعهنّ العارية كالنار أو كالسعير!

اختلفت إليها مرات كثيرات، وفي كل مرة تزداد في نفسي الثقة بأنه لا يمكن أن تنشأ بيننا أي صورة من صور الألفة.. قبحها الله!

في هجاء الميترو

بدوي مثلي.. عاش موزعاً بين جبال ووهاد سحيقة وبلا نهايات، كان يخط بأقدامه الحافلة بالشقوق قصائد عشق للصحراء، وللجماعة، وللفكرة، ها هو يجد نفسه ضائعاً ووحيداً حتى وإن كثر الناس من حوله، فهم يظهرون دائماً في جماعات أنانية لا تنشط، جسدياً وعقلياً وعاطفياً، إلا على شكل أفراد.. وكل فرد إنما هو في الحقيقة "مشغول" بنفسه..

بدوي مثلي قد يعرف حب "القبيلة" التي تضخمت مع "الفكرة" فأصبحت "أمة"، ها هو يفقد شيئاً غالياً وضرورياً لحياته: حرارة الناس من حوله، الحرارة التي تتجسد في شعورهم بالانشداد نحوه، وتتجسد أيضاً في شعوره هو بالانشداد نحوهم.

"العلاقة" في الجماعة الأنانية مفقودة.. ويردد الفرنسيون هنا بسخرية واستهزاء قول أحد الشعراء "أريد أن أكون دمعة أولد في عينيك.. وأعيش على وجنتيك.. لأموت على شفتيك" إنهم يرونه على غير منطق!.. أنانية في المعاش.. وأنانية في الفكرة.. وأنانية في العاطفة. قد يذهب المهتمون بالدراسات الاجتماعية في تفسير ذلك وتعليله مذاهب عدة، ولكنهم، حتماً، سيلتقون في شيء واحد وأساسي، وهو أن تضخم الجماعة، تعداداً، بما يفوق نسبة ساحة امتداد النشاط اليومي في التحرك والمعاش، هو وحده الذي يخلق الأنانية اليومية.. بل قد تصل المشكلة إلى حد التطرف، فتنشأ هكذا عناصر بسيطة، تشكل في مجموعها هذه المشكلة الاجتماعية المعقدة.. ومن هذه العناصر: الضيق وتزاحم الناس في كل مكان، وفي كل شيء، إنه تزاحمهم في "أماكن" ممارسة النشاط.. وتزاحمهم في "عملية" ممارسة النشاط نفسها.. ولهذا كله أجدني شديد الإعجاب بما قاله أحد المفجوعين بالجماعات الأنانية:

عندما أجد إنساناً ينتحر فلن أقول له سأساعدك، ولكن سأقول له إني "أفهمك" جيداً.. نعم هذا هو البير كامو نفسه الذي كان يفكر أن ليس هناك طريق للخروج من هذه الحياة المشكلة في الجماعات الأنانية إلا طريق الانتحار.

والحركة الهيبية إنما نشأت بحثاً عن جماعة مثالية، ولهذا دعت إلى "الحب" والعيش الجماعي. الحركة الهيبية كانت ردة فعل اجتماعية قبل كل شيء..

الآن.. هناك شيء جديد يبحث عنه الشباب، هناك كتب ودعايات وحتى أغاني وأناشيد، يرددها الشباب في الأماكن العامة والمنتديات.. تهدف إلى إعادة إحياء "الدين".

وسائل عدّة قامت لمحاربة "الزحمة" وللتخفيف من حدتها، تعاطفاً مع الإنسان الذي يفقد في عنفوانها أريحيته، نتيجة لفقدانه، سلفاً، صبره ومنفعته.. فكان أن أنشئت، في مجال المواصلات العامة مثلاً، في المدن الكبرى، المتفجرة بالناس، أعني المدن التي تعاني من "التخمة" السكانية، أنشئت وسيلة حديثة وفعالة للتخفيف

من الزحام، ورعاية للمنفعة. وسيلة اسمها "ميترو". وقد أنشئ هذا الشيء للتخفيف من الضغط السكاني على وجه الأرض، ليتحول بعض من هذا الضغط إلى تحت الأرض.

الميترو في واقع الأمر لم يزد هذه المجتمعات إلا تعقيداً، وضيقاً بالناس وبالحياة.

في المرة الأولى التي شاهدت فيها الميترو.. ذهلت تماماً لأنني، وللمرة الأولى أيضاً، اكتشف أن هناك مدناً في هذا الكون المحتشد، تتكون من عدة طوابق، تحت الأرض، وأن الناس الذين ينتشرون في الأقبية والأنفاق ربما يفوق عددهم الناس الذين يدبون فوق السطح، في الشوارع والميادين الكبيرة والصغيرة. كل المدن التي عرفتها قبل باريس كان الناس فيها يمشون فوق الأرض.. تحت الشمس.. هكذا في العراء إن صح التعبير. تلكم كانت الصدمة الأولى، أما الصدمة الثانية فهي الموحيات التي ترسخها ظاهرة الميترو: الزحمة، الاختناق، اللهاث، المزاج العكر، الغموض، الإيحاء أو الإيهام بالخوف، ثم الجريمة بكل أنواعها.. يااااه كم كانت حياتي بسيطة بدون باريس!.. وبدون الميترو!

سلفادرو دالي يقول: "الرجل الذي يركب الميترو بعد سن الأربعين حمار!" وهو يقصد أن ذلك هو الشاهد على فشله في أن يخلق عالمه "فوق الأرض"..

هل يعني هذا الذي يقوله سلفادور دالي أن كل مَنْ هم "تحت الأرض" ممن تجاوزوا سن الأربعين هم "حمير!" فعلاً.. ربما كان فيما قال دالي بعض الإحجاف لأن الباريسيين يفرّون إلى الميترو هرباً من ازدحام السيارات، وتخلصاً من البحث المضني عن مواقف للمركبات.. ثم إن مديريهم لا يخفون متعتهم عند تأنيبهم على التأخر في مباشرة أعمالهم في أوقاتها المبكرة!

الناس الذين يحبون باريس، ويختلفون إليها، يعرفون باريس "فوق الأرض" لكنهم لا يعرفون باريس "تحت الأرض".. إن كل ما ينزل إلى الميترو من "فوق الأرض" يصبح بالضرورة تحت "أرضي" أي عيون جاحظة.. أنفاس متقطعة.. ورغبة في النهش.

هنا في باريس ثلاث كلمات فرنسية تشرح لكم حياة الباريسيين في مدينتهم المعقدة: "ميترو.. بولو.. دودو".. وهي تعني: "ميترو.. عمل.. نوم" فالميترو في الحياة الحديثة "مشكلة" وهو الذي وجد ليكون

حلاً.. لقد أنشئ نتيجة لضرورة عصرية، فأصبح هو نفسه مشكلة عصرية تحتاج إلى حل. فالباريسي لا "يقول" تلك الكلمات الثلاث السابقة بارتياح بل إنه "يدحرجها" بعنف ونزق. إنه يصف حياته بالجفاف، والرتابة، واللهاث، وانحسار الفرص في التنوع والاختيار، وهذا على الرغم من أنه يعيش في أكثر عواصم العالم شوقاً وإثارة.. وكل ذلك إنما يحدث بسبب هذا الميترو اللعين، وبسبب ما يمثله من ثقافة شوهاء.

باريس تفيد من شبكة ميترو كبيرة جداً.. وواسعة جداً.. وتربط كل أطرافها إلا أن الذهاب إلى العمل، والعودة منه بالميترو تعني للباريسي معركة حامية الوطيس من الزحام الخانق تحت الأرض، في السلالم، في الممرات، وداخل عربات الميترو نفسها.

سكان الإقليم الباريسي يزيدون عن 11مليون نسمة، ونسبة كبيرة من الناس الذين يعملون في باريس المدينة يبيتون خارجها.. أي في إحدى ضواحيها مثلاً.. وهم بطبيعة الحال من مستخدمي الميترو، هذا "الثعبان" المتلوِّي المليء بالملل وبالموت والسموم.

هذه الملايين من البشر بعضها يملك سيارات.. ولكن أكثرهم لا يستعملها خصوصاً في الذهاب إلى العمل داخل باريس؛ لأن ذلك يكاد يكون مستحيلاً، لزحام الناس وتعرقل سير السيارات "فوق الأرض".

بعض محطات الميترو في باريس تتكون من أربع أو خمس طبقات "تحت الأرض"، ولكي يخرج الناس إلى "وجه الأرض" فإنه يوجد في بعض هذه المحطات مصاعد ضخمة، ترقى بهم إلى الأدوار الأعلى. الناس هنا يعانون دائماً من مشكلة الناس.. أي البشر المتراكم، المتكدّس كأكياس الدقيق أو الرز: أنفاس ملوثة، وروائح لا قبل لأحد بها، وأمزجة من البارود، ومن ريح جهنم! والحال في المدن الأخرى الكبرى في العالم كالحال في باريس. نيويورك مثلاً.. سكانها يزيدون عن عشرة ملايين نسمة.. وبين هؤلاء أربعة ملايين على الأقل يستخدمون الميترو اللعين يومياً..

سألت يوماً أحد الأصدقاء الباريسيين، وقد بدا نزقاً: كيف أنت اليوم؟ فأجاب: هذا الميترو يزيد في نفسي كل يوم الرغبة في "قتل" كل هؤلاء الناس الذين يحتشدون في هذه المدينة.

وسألت آخر:

ما هو الميترو بالنسبة لك؟

فقال باختصار:

إنه الجحيم!.

وسألت ثالث فقال:

هو مقبرة محشوّة بالأجساد الميتة.. البائسة.. العفنة!

يعني الميترو للباريسي القذارة والعفونة: الممرات لا تخلو من أقدام الناس وبقاياهم، ثم إن هذه الممرات هي ملجأ "العاطلين" والمشردين، فهم يأتون إلى ممرات الميترو للراحة والنوم في الليل وفي النهار. كما أن الميترو يعدّ مكاناً للسطو، أو الاغتصاب أو الشذوذ والمخدرات. الميترو هو "العالم السفلي" للمدينة الكبرى، ففيه تتم الصفقات المشبوهة، وفيه تلتئم اللقاءات المريبة الخارجة على القانون، المارقة على كل التوقعات.

عندما تصعد إلى إحدى عربات الميترو ستجد فتاة متلفّعة بشال داكن اللون، تدفن رأسها في إحدى روايات "كافكا".. إنها في واقع الأمر لا تقرأ، بل إنها تلتجأ إلى

عوالم "كافكا" هرباً من وجوه ركاب الميترو المعفرة بالخوف وبالتربص وبانتظار المفاجآت.

وعندما تصعد إلى إحدى عربات الميترو ستقع عينيك على كهل قاتم البشرة، قادم من أفريقيا، لبيع الفرنسيين تماثيل خشبية تافهة، إنما تجسد بؤس القارة السوداء، وهو لم ينجز طوال اليوم سوى الجزء اليسير من المهمة التي جاء من أجلها إلى عاصمة الدنيا. إن لديه الرغبة المشهودة الآن في أن يلعن كل من يشاركه هذه العربة، أو ربما أنه يشتهي أن يبصق في وجهه! بكل بساطة.

قد تواجه عندما تصعد إلى عربة الميترو السيد مولود بن عبدالجبار (لا تهتم الآن بموضوع الاسم أو يكون الشخصية حقيقية أو وهمية) وهو مطرود من عمله إذْ رفع صوته على صاحب المقهى الذي يعمل به، فقد اكتشف الأخير أن مولوداً بن عبدالجبار هذا كان يتحرش بزوجته (لا تهتم الآن بموضوع القصة إن كان صحيحاً أو متوهماً!) ومولود أدرك، بعد وقوع الفأس في الرأس، أن ليس لديه ما يدفعه للعجوز التي تؤجره الغرفة المفردة في سطح البناية!.. وهو لا بد من أن يُغير على أحد الركاب

عندما يترجل من العربة في أحد الممرات المظلمة، ليسلبه بعض المال، أي يجرده من نقوده بكل بساطة!..

هكذا يتحدث الإعلام الفرنسي عن مولود بن عبدالجبار وبني جنسه..

لاشك أن الميترو عالم وحده!

ياااه!..

إن للميترو ثقافته وأنفاسه المزعجة!!

ومن أهم تأثيرات الميترو على الباريسيين الضيق، والانعزال، والرغبة في الهرب من الناس.. ولهذا فإن الباريسيين لا يرغبون، عادة، في ارتياد الأماكن العامة، أو الأماكن التي يكثر فيها الناس..

يحدث أن تسأل أحدهم مثلاً: كم الساعة؟ فلا يوليك حتى مجرد نظرة اهتمام، وعليك أن لا تكرر السؤال وإلا فإنك ستسمع ما لا يرضيك.

في فرنسا أنشأوا الميترو في مدينتين أخريين غير باريس.. هما: ليون ومارسيليا.

في مكسيكو عاصمة الميكسيك، التي يزيد سكانها عن ثمانية ملايين نسمة، أنشأوا الميترو بقروض وخبرات

فرنسية.. خبرات الميترو فيما يجري "تحت الأرض" في باريس لا تضاهيها كل "همجيات" المكسيكيين، ربما لهذا السبب استعانوا بالفرنسيين لتحسين خبراتهم في ثقافة ما يجري "تحت الأرض"، إنهم يريدون حلّ مشكلة المواصلات ولكن أيضاً تطوير فكر الجريمة في مكسيكوستي. والطريف.. أنه لضخامة المدينة، ولكثرة تعدد محطات الميترو فيها، فقد وضعوا في كل محطة ميترو نوعاً خاصاً من الموسيقى، أو الرسم، أو التماثيل؛ ليستطيع الناس بذلك التفريق بين محطات الميترو، إذ إن تسمية المحطات لا يفيد منها بعضهم.. فلا يزال في هذه العاصمة الكبيرة مواطنون لا يعرفون القراءة والكتابة.

الفرنسيون يعرفون كيف يسوقون خبراتهم!!

أول مدينة في العالم استعمل فيها الميترو، هي لندن.. وبعدها بوسطن.. وبعدها نيويورك.. ولكن الميترو الأكثر نظاماً، هو ميترو نيويورك.. حتى إن له بوليس خاص به.

الميترو ضرورة.. والميترو مشكلة في المجتمعات الحديثة.

الميترو هو عالم ما "تحت الأرض"، ولما تحت الأرض ثقافته وظواهره وتحدياته حتى وإن كان مرتادوه من سكان ما "فوق الأرض".

موسيقى حتى الموت!

استقرت أقدامي على أرض دهليز "القبو" القاتم.

كان الدهليز يمتد أمامي كحية رمادية لعينة يفصل مؤخرتها عن رأسها مسافة طويلة من التعرجات والسموم والعظام الصغيرة البيضاء..

تلفت حولي.. كانت تحيطني من اليمين ومن الشمال جدران حجرية كابية ملطخة بالوحدة وبالوحشة، التفت إلى الخلف أرفع رأسي إلى المدخل الذي أصبح الآن بعيداً.. لقد كان بالفعل موحشاً.. الساعة هي الخامسة والنصف بعد الظهر.. وفي نهاية هذا القبو كانت تنبعث آخر إشارات النهار الشتائي القصير.. ومن نهايته أيضاً كنت ألمح عبقرية الفضاء.. والحرية..

كدت أعود إلى الخارج من جديد لمعانقة الناس واحتضانهم، بعد أن أبتلعني هذا "القبو" خطوة بعد خطوة.. كنت أمشي بأقدام أثقل من تلك التي ترجلت بها السلم!

في سقف الدهليز المنخفض تتدلى مصابيح كهربائية صغيرة، تشع منها أضواء خافتة، تخنقها بلا رحمة كميات لا تهون من الغبار والكسل!

عندما توسطت الدهليز – أو هكذا ظننت – كانت أذناي الباردتان تستقبلان بوجل صوت موسيقى "فالس" خافتة.. ربما لم تكن خافتة ولكن لعله البعد الذي يجعلها تبدو كذلك!

.. فالس؟!

لقد بدأت أشعر بشيء من الألفة وأنا أتقدم نحو الصوت.. بل لقد أصبحت خطاي أكثر رشاقة!

لم أكن أرقص هنا وحيداً.. فقد أغمضت عيني، وما بين لفّة واستدارة، وجدتني أقف أمام الباب ذي اللون الداكن، الباب الذي سأجد خلفه الطرف الآخر في لقاء أرجو أن يكون "شيقاً".

قطعت المسافة الطويلة!.. الطويلة!.. إلى هذا الباب في حلم.. أو في سرحة!.. أو في غيبوبة!.. أخذتني أجنحة الـ"فالس" الرقراقة إلى هنا في"طرفة عين".. كدت أقول بأنني لست غريباً.. فقد وجدت صوتاً أعرفه ويعرفني.. صحبتنا ليست وثيقة، فنحن من ثقافتين متباعدتين، ولكني تعلَّمت!.. وصرت أرقص "الفالس" وأرقص غيره، وربما أن الموسيقى ذاتها قد أسهمت في تبديد نسبة لا بأس بها من وحشة المكان!

طرقت الباب بخفة كأي زائر يستعجل الدخول.. وحين انفرج الباب عن العالم الذي يقبع خلفه كان هناك وجه امرأة.. كانت عجوزاً في حوالي السبعين.. لم أجفل!.. ولم أتراجع!.. فقد كنت مهيئاً مسبقاً لمصافحة مثل هذا الكف المجعد، ذي الجلدة الغليظة البيضاء الحافلة بنقط بنيّة كثيرة!

أعلم بأنني لن أقابل هنا سوى "عجائز" في سن هذه المرأة وأكثر!.. فهذا النادي هو نادي عجائز، وأول شرط في الانضمام إليه، هو بلوغ أكثر من الستين.

كانت كف هذه العجوز بين كفي، حين قلت لها بصوت خجول تحية المساء.

ردت التحية بـ"مثلها" تفترش وجهها ابتسامة باردة كالحة وهي تستعيد كفها من قبضة يدي.

- هل أدلك على باب الخروج؟! (قالت لي).

فأكدت لها بأنني حتى الآن أبحث عن باب الدخول، ولن أتأخر عن طلب مساعدتها، عندما أجمع أطرافي من أجل الانطلاق إلى الشارع من جديد!

قدمت لها نفسي وشرحت لها غرضي، فأدخلتني من الباب تزفني بالابتسامة نفسها التي ألقتها في وجهي عندما فتحت الباب.

أدخلت رأسي أولاً!.. كأنني كنت أخشى أن يكون طريق الهروب من هذه "المغارة" غير ميسّرة.. تهافتت عيناي على أكثر من ثلاثين عجوز في سن جدتي رحمها الله! بل أن فيهن من هي أكثر منها "طعوناً" في السن!.. لقد كن يرقصن كلهن!!

عندما تكاملت كل أعضائي خلف الباب بين الجدران الأربعة التي تحتوي هذا الحشد الصغير من عجائز لندن، وقفت أسند ظهري إلى الباب الذي أوصدته خلفي السيدة "إليسن" ذلك الوجه الأول الذي كان لي معه أول حوار صامت أو شبه صامت.

سألتها:

- مدام إليسن.. من أنت؟

قالت:

- أنا إحدى عضوات النادي.. مديرة مكتب للسياحة سابقاً.. زوجي برلماني سابق، وهو متقاعد الآن.. عمري ثلاثة وسبعون عاماً، وزوجي يكبرني بخمس سنوات.

كنت أقرأ على جبهة هذه العجوز إشارات واضحة للفرحة، والنشاط، وحب الحياة، على الرغم من تقدمها في السن.. كانت دائماً مبتسمة، وكانت تبدو رشيقة.

عدت أسألها

- أين أنا الآن؟!

أجابت وهي تربت على ذراعي:

- أنت في نادي للعجائز.. كل النساء اللاتي تراهُنَّ أمامك الآن، ليس فيهن من عمرها أقل من الستين؛ لأن من هنّ أقل من ذلك غير مقبولات في هذا النادي. فبعض هؤلاء أمامك بلغن الثمانين وأكثر.. خذ مثلاً السيدة "شيلا".. إن عمرها اليوم اثنان وثمانون عاماً بالتمام

والكمال!.. وقبل أسبوع واحد فقط احتفلنا بعيد ميلادها.. تعال لتحيتها ومباركة عيد ميلادها.. ستكون مسرورة لذلك، وليتك تقول لها كلمتين عن جمالها ورشاقتها، ستكون في غاية السعادة، أما إن دعوتها إلى رقصة "فالس" أو "تانغو" فإن ذلك سيصبح الحدث الأهم في يومها!

لم أعد أعرف هل السيدة إليسن كانت تجاملني أم هي تجامل صديقتها "شيلا" ولكني تقدمت إلى شيلا وباركت لها عيد ميلادها.. ثم رقصنا!.. فشعرت كأن السيدة شيلا قد عادت خمسين سنة إلى الوراء.. خطوة.. خطوة.. خطوتين! كم هي رشيقة شيلا!

التفت أنظر إلى المجموعة التي بدأت تنشغل بوصلة جديدة من الـ"كاري".. كنّ يرقصنّ - كلهنّ- كفتيات في سن العشرين.. جرعات ليست هينة من الفرحة والنغم.. تأملتهن وكأنني بدأت أدرك بأن الشيخوخة مرحلة قاسية من عمر الإنسان، ولابد من التغلب عليها بأي نوع من نشاطات الفرح.

الموسيقى التي كانت تنبعث من آلة التسجيل الضخمة التي تحتل أحد أركان المكان.. كان يرافقها قرع ضحكات

ساخنة، تنطلق من قلب إحدى أفراد هذه المجموعة التي كانت تموج وتمور وتدور أمامي على وقع الـ"كاري".

برغبة لم أعرف معناها، أخذت أفتش عن صاحبة الصوت.. وجدتها أخيراً: عجوز مسنة بدينة نوعاً ما.. ترتدي فستاناً ملوناً يصل منها إلى منتصف الساق.. والنصف الآخر يغطيه عنق حذائها الجلدي الطويل.السيدة "إليسن" هي التي أخبرتني بأن هي نفسها السيدة شيلا.. ذات الاثنين والثمانين عاماً.. شكرت السيدة "إليسن" التي قدمت لي السيدة "شيلا".

وما هي إلا غمضة وانتباهة، حتى كانت السيدة "شيلا" تقذف في وجهي إحدى ضحكاتها العالية.. ثم تقول:

- هاه!.. تريد أن تطلب يدي (تخطبني)؟

قالتها وهي تقترب مني..

- قلت لها:

- ماذا يعني الرقص بالنسبة لك؟

جرت أحد الكراسي الخشبية التي كانت تتراص واحداً بعد الآخر إلى كل جوانب الجدران الأربعة، ثم دفعته بأناة نحوي وهي تقول:

- اجلس أولاً!

جلست وأخذت أستمع إليها:

- لما كنت شابة، كانت لي هوايات، مثل لعبة التنس، والتزحلق على الجليد، وركوب الخيل.. لم أكن أرقص سوى مع زوجي في الحفلات وفي الأعياد.. الآن وقد تقدمت بي السن ولم أعد أستطيع التزحلق على الجليد، أو ركوب الخيل.. أي لم يعد في مقدوري أن أمارس أيّا من هواياتي القديمة.. فاتخذت الرقص وسيلة رياضية وترفيهية، وهو إحدى وسائل التعبير الملفتة.. لغة الإيقاع.. والجسد الحرّ.. ثم إنني.. أقطع به كثيراً من وقت فراغي.. وأنت تعلم أن للموسيقى دوراً فعالاً في تهذيب الأرواح، مادامت موسيقى جيدة.

ثم أضافت:

- اسمع!.. لا علاقة للسن بهذا الموضوع.. وكثيرون لا يفهمون أن "المزاج" لا عمر له .

انضمت إلينا بعد لحظة السيدة "مارجريت": (عمرها سبعة وستون عاماً). وزوجة كولونيل إنجليزي سابق.. لديها ثلاث بنات وولد، كلهم متزوجون ولديهم أطفال.. السيدة "مارجريت" طويلة (1.75متر).. شعر أشقر طويل.. فستان طويل.. ماكياج هادئ يحاول بصعوبة أن يخفي شيئاً من آثار الزمن المديد.. قلت لها وهي تقف بجانبي تلوك بعض نغمات الـ "بولكا" الذي بدأ يرتفع صوته:-

وأنت يا سيدة مارجريت، ماذا يعني الرقص بالنسبة لك؟!

أجابت:

- الرقص يذكرني بـ "مارجريت" الشابة، يذكرني بنفسي يوم كنت أطلب إلى أبي، ثم إلى زوجي فيما بعد، بأن يأخذني إلى حفلة راقصة.

قفز إلى ذهني سؤال، كنت قد نسيته السيدات الثلاث:

- ولكن أزواجكن "الشيوخ" لماذا لا يرافقونكن هنا في الرقص، إذ إن رقصكم غالباً ما يتطلب ثنائي: رجل وامرأة وأنا لا أرى هنا معكن أي رجل؟!

ضحكن ثلاثتهن، ولكن التي أجابت هي السيدة أليسن:

- العواجيز الرجال لا يحبون الرقص غالباً.. وهم دائماً كسولون.. يقطعون أوقاتهم إما بالنوم، أو بحل الكلمات المتقاطعة، أو بالدردشة مع أصدقائهم أو مع الغرباء في المقاهي.

- سألت:

- هذا النادي مفتوح طوال أيام الأسبوع؟!

قالت السيدة شيلا:

- مرة واحدة فقط.. يوم الخميس بعد الظهر ابتداءً من الساعة الثانية والنصف حتى السابعة والنصف تقريباً.

ثم فجأة لمحت أن أحد الكراسي أصبح مشغولاً بـ"فتاة!" شابة في أقل من الثلاثين.. وقبل أن أفكر فيما سأقول وجدتني أرمي السيدة أليسن بهذه الكلمات:

- لن تستطيعي أن تقولي بأن عمر هذه السيدة الجالسة هناك تبلغ من العمر أكثر من ستين عاماً؟!

- قالت:

- هذه السيدة ليست عضواً في النادي.. إنها ومعلمة رقص.. وهي موجودة هنا لتعلمنا الرقصات التي لانعرفها.

علمت من هذه المعلمة نفسها فيما بعد أن أسمها "ماري".. وأن عمرها ثلاثون عاماً.. متزوجة وأم لطفلين.. تعمل معلمة رقص في أكثر من نادٍ في لندن.. إنها تأتي إلى نادي"العجائز" هذا مرة واحدة في الأسبوع؛ لتعليم هؤلاء الرقصات التي لا يعرفنها.. أخبرتني "ماري" بأن هذا النادي عليه إشراف من الحكومة!.

قالت لي عن شعورها وهي تقضي، أسبوعياً، خمس ساعات على الأقل بين عجائز تمتلئ قلوبهن بالإصرار على الرقص. قالت:

- إنهن مليئات بالطاقة والأدب.. ويعاملنني كابنة لهن، وهذا بالنسبة لي شيء رائع، ولاسيما أنني قد فقدت أمي وأنا في سن السابعة.. إنني سعيدة جداً بقضاء هذه الساعات معهن.. وتأكد أن فيهن نشوة وابتسامة وانفتاح على الحياة، لا يتوفر أحياناً في كثير ممن هم في مثل سنك.. يكفي فقط أنهن يخصصن شيئاً من وقتهن للموسيقى والرياضة وهذا شيء رائع.

السيدة "مارغريت" لم تكن بعيدة عنا عندما تناولت "حبل" الكلام من فم معلمتها الصغيرة، لتؤكد لي بأنها تزاول كل صباح بعد الإفاقة من النوم عدداً لا بأس به من تمارين الـ "جيمناستيك".

مع انطفاءة آخر كلمة في فم السيدة "مارغريت" انطفأت آلة التسجيل التي تنشر الموسيقى في أرجاء

المكان معلنة انتهاء "حصة" ذلك اليوم في رقصات الفالس.. والتانقو.. والكاري.. والبولكا.. تلك الرقصات التي أكدت لي المعلمة "ماري" بأن هؤلاء العجائز يجدن أكثرها!

عدت أذرع الدهليز الكابي الطويل طلباً لباب الخروج.. ولكني هذه المرة كنت محفوفاً عن اليمين وعن الشمال بـ"كوكبة" من العجائز الإنجليزيات اللاتي أخذن يتسلقن السلم المؤدية إلى الشارع بشيء يشبه الرشاقة!

أشهد بأنه قد أخذ يتملكني في تلك اللحظة شعور جديد نحوهن ونحو رقتهن.. شعور جديد نحو الحياة التي من حقنا أن نضحك عليها ومنها، قبل أن تضحك منا وعلينا.

كانت صور "عجائز" لندن في صباح اليوم الثاني تلاحقني بين مقاعد الـ"دي.. سي.. ناين"، التي أعادتني إلى باريس.. لقد عجز أزيز هذه الطائرة عن

أن يحجب عن أذني صدى ضحكاتهن، ووقع كلماتهن المثخنة بكل أشياء الحياة.

طفل المغرب الأول

هـذا الموضـوع الـذي تقرأونـه الآن، كـان لابـد أن يسمح لنا بكتابته "ملك".. هذا الملك هو الحسن الثاني، رجل المملكة المغربية الأول رحمه الله.

وأيضاً هذا الموضوع الذي تقرأونه الآن، هو حديث عن أمير، ابن ملك. هذا الأمير هو سيدي محمد، كما يـدعوه المغاربـة، ولـي العهـد، ورجـل المملكـة المغربيـة المنتظر يومها! (الملك اليوم).

شـرفان حظيـت بهمـا.. الأول موافقـة الملـك، والثـاني الحديث إلى ابن الملك!

جـاءت الموافقـة مـن القصـر فـي مـراكش وجـرى الحـديث فـي المدرسـة المولويـة فـي الربـاط. دلفـت بـاب

حجرة دراسية صغيرة، فكان يجلس أمامي اثنا عشر شبلاً صغيراً لا يزيد عمر أكبرهم عن أربعة عشر عاماً.. كان علي أن أبحث بينهم عن أمل المغرب القادم ورجله المنتظر.. كان لابد أن أضع يدي بسرعة في يد سيدي محمد.

هذه المهمة لم تكن عسيرة!

كان الدرس – ساعتها – في قواعد اللغة العربية "النحو".. والموضوع هو: "الحال"

- ما هو الحال؟!

سأل الشيخ ذو الجلباب الأبيض، الذي عرفت فيما بعد أنه كان، يوماً ما، أستاذ الملك الحسن الثاني نفسه، في هذه المادة نفسها.. واسمه "البرنوصي".

ارتفعت كل الأيدي الصغيرة إلى أعلى تعلن حاجتها البريئة إلى إثبات أنها موجودة!.. فأشار الشيخ الذي كان لا ينقصه أبداً وقار العلماء إلى أحدهم!

كان عمره ثلاثة عشر عاماً فقط!

منتهى البساطة.. بنطلون أزرق.. وكنزة زرقاء.. فوق قميص أبيض.. لم يكن يميزه هذا التلميذ عن

زملائه الأحد عشر الآخرين، سوى أنفه، وفمه، واستدارة وجهه، التي انتزعها قسراً من أبيه جلالة الملك!

ما كدت أطمئن نفسي بالعثور على ولي عهد المغرب، حتى عاد هذا الشيخ يزعزع هذا الاطمئنان في داخلي: لقد أخذ "ينهر!" تلميذه الصغير، ويأمره بأن يلقي إجابته واقفاً!

أين حرمة ملوك المستقبل أيها الشيخ؟! نسيت لحظتها أن حرمة العلم والدرس هي فوق كل حرمة.. وأنه في مثل هذا المجلس يستوي الملك والأمير وابن الشعب.. فالكلمة الأولى هي دائماً للعلم.. وللأدب!

بنظرة خجولة مؤدبة مليئة بالرغبة في التماس العذر، قام الملك القادم يجيب على السؤال.. كان يحفظ ألفية ابن مالك!

لم يدهشني ما رأيت.. لقد سمعت كثيراً عن ذكائه، وسرعة تلقيه، وشدة أبيه ومدرسيه في تربيته وتعليمه.

التفتُّ إلى الشيخ أسأله، وسمو الأمير يسمع:

أنت كنت مدرس أبيه الملك.. سأضعك في موقف حرج وهو: يوم كان الحسن الثاني في مثل سن سيدي محمد الآن، هل كان له المستوى نفسه في مادة النحو؟!

قال وهو يبتسم:

- عن أي موقف حرج تتحدث يا هذا؟! ففي مجالس العلم الألقاب لا تقدم ولا تؤخر.. ويوم كان الحسن الثاني تلميذي، لم أكن أجد أي حرج في تقديم بعض زملائه عليه عندما يستحقون ذلك بجدارتهم.. خذ الجواب: الحسن كان في مادة النحو أقوى من ابنه الذي يقف أمامك الآن!

- هذه مجاملة للملك! أو خوفاً منه!

- بل هي الحقيقة والجميع يعلمون ذلك.

كلام الشيخ هذا ذكرني بأنني سمعت بالفعل بأن باب منافسة الملك الحسن كان مفتوحاً لأقرانه من المغاربة الصغار!.. كل المقربين إليه يحدثوني عن "الحرب العلمية" التي كان لا يهمد أوارها بينه وبين السيد أحمد عصمان (رئيس وزراء المغرب فيما بعد) يوم كانا تلميذين صغيرين في مثل سن سمو الأمير محمد الآن!.. كانا يتخاطفان بشراسة العلماء المرتبة الأولى بين زملائهما الصغار.. وكان المرحوم الملك محمد الخامس يلهب هذا الحماس وهذا التنافس؛ لأنه كان يريد أن يخلق من خليفته إماماً عالماً، مثقفاً، واعياً، تماماً كما

يفعل الحسن الثاني نفسه الآن مع ابنه وخليفته الأمير محمد.

استمر درس النحو في باب الحال.. وكان الاثنا عشر صغيراً ينشرون أصواتهم الرقيقة في أرجاء الحجرة الصغيرة، كزقزقة العصافير أو كغناء النسيم!

كلهم يبحثون عن الإجابة.. وكلهم يتحينون فرص التدليل على أنهم "أذكياء" وعلماء صغار!

لولا أنني كنت أدرك أنه كان وراء حماسهم هذا، شيء من الغيرة البريئة وطموح الصبا، لنهضت آخذ العصا من يد الشيخ البرنوصي، وأكتب على سبورة الفصل: "إني أحتج!"أحتج!.. لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى تكبد كل هذا العناء في البرهنة على ذكائهم ونبوغهم!.. إنه يكفي أن نحدق في عيونهم، لتبدأ شحنات الذكاء الواضح الفاضح تتدفق بسخاء على رموشهم وأهدابهم!

هؤلاء الصغار، وأنا أنظر إلى عيونهم الذكية، كانوا يبعثون في داخلي شيئاً من الخجل، وكثيراً من التواضع! يكفي أن تعلموا أنهم بعددهم القليل هذا، هم كل طلاب

المدرسة المولوية بحالها.. اختيروا من أنحاء مختلفة من المملكة المغربية، كأحسن تلاميذ هذا البلد وأذكاهم.. أي أن اختيارهم لم يخضع لأي اعتبار اجتماعي أو سياسي، بل كان الاعتبار الأول والأخير، هو الذكاء والفطنة والتبريز في التحصيل، والجلد على الدرس.. أي أنهم نخبة أطفال المغرب العربي على الإطلاق.. وبينهم ابن الفلاح.. وابن العامل.. وابن التاجر.. وابن الموظف.. وابن الملك!وهم إنما اختيروا من أجل منافسة ولي العهد ومطارحته.. لكي يشتد عوده!

قال لي الأستاذ محمد شفيق، مدير المدرسة الذي كان يرافقنا في الحجرة الدراسية: ولي العهد بين هؤلاء هو من الثلاثة الأوائل دائماً!.

قبل أن أجيء إلى المغرب، كنت أخطط للقاء ولي العهد! سمعت وقرأت عنه.. فقد كان في فترات متلاحقة حديث أجهزة الإعلام الأوربية وغير الأوربية.. حياته وطريقة تربيته التي يشرف عليها ويتابعها والده بنفسه، كان كل ما في حياته يثير الدهشة، ويحرك في نفوس الناس فضولاً للرغبة في الاقتراب منها، ومتابعتها، وربما الكتابة عنها مثل ما أفعل أنا الآن!

رآه العالم كله وهو بين السادات والأسد والملك حسين وغيرهم من القادة العرب، يمثل والده ومملكته في الوفد الذي قدم واجب العزاء في وفاة المرحوم جلالة الملك فيصل! ورآه العالم أيضاً وهو بين نيكسون وبريجنيف، للتعزية في وفاة الرئيس الفرنسي الراحل جورج بومبيدو!..ورأيناه كذلك في مراسم تنصيب الملك خوان كارلوس ملك أسبانيا.. وفي مناسبات عالمية أخرى على المستوى نفسه من الأهمية!.. وهو في كل هذه المناسبات ليس في حاجة إلى مترجمين، أو أناس يتحدثون عنه، فهو يتكلم الأسبانية، والفرنسية، والإنجليزية، إلى جانب العربية.. كما أنه من الناحية العلمية والقانونية يجيد اللاتينية!

وفي هذا المجال، قال لي الأستاذ محمد شقيق: إنّ هناك دروساً إضافية تعطي لزملائه ليتمكنوا من اللحاق به وبلوغ مستواه!

برنامجه الدراسي واليومي يسترعي الانتباه لدقتة وحيويته.. وهذا البرنامج محدد من قبل مشرفين تربويين، وغير قابل للتغيير أو التبديل.

يستيقظ يومياً في السادسة صباحاً.. ويتناول طعام الإفطار في السادسة والنصف، ثم يبدأ عمله الدراسي في السابعة.. يبدأ يومه دائماً بمادة "القرآن الكريم" لمدة ساعة.. وهذا العمل الدراسي لا يقطعه سوى فترة تناول طعام الغداء، وصلاة الظهر في مسجد المدرسة.. ينام في العاشرة مساء.. ولا يذهب إلى القصر إلا بعد ظهر الجمعة ويوم الأحد فقط.

أمّا المدرسة المولوية فقد أسسها جلالة المرحوم محمد الخامس، حين بلغ ولي عهده –يومذاك – الأمير الحسن الثاني المرحلة الثانوية.. وظل بها حتى انتقل إلى الجامعة.. ثم بعد الاستقلال، تحولت إلى مقر للمجلس الأعلى للقضاء.. وقبل شهور – أي في يناير الماضي– أعاد العاهل المغربي تدشين هذه المدرسة لتحتضن ولي عهد المغرب الجديد.

وهي لا تمنح دبلوماً أو شهادة.. بل تعد تلاميذها الاثنى عشر لامتحانات الشهادات العامة كبقية تلاميذ المغرب.. وولي العهد نفسه ينتقل، أيام الامتحانات، إلى أي صالة في أي مدرسة في الرباط مع بقية المغاربة الصغار.

كل ما يميز هذه المدرسة عن المدارس الأخرى، هو هدفها في إعداد ولي العهد للحكم خلفاً لأبيه، وهي بالإضافة لذلك تنفرد ببعض الساعات والمواد عن المدارس الأخرى العادية.

الأستاذ محمد شفيق يفلسف هذه المزية على النحو التالي:

- ولي العهد ليس مسلماً فقط، ولكنه فوق ذلك سيكون يوماً ما أميراً للمؤمنين، وقدوة لهم، ولهذا توجب التركيز على الناحية الدينية بصورة أوسع منها في المدارس الأخرى.. ومن هذا الاعتبار كانت مادة القرآن الكريم، هي فاتحة كل أيام سموه الدراسية.. هذا إلى جانب ما يشمله برنامج المرحلة من مواد دينية أخرى.

ثم أضاف ولي العهد سيكون رئيساً للدولة.. إذاً لابد أن يكون رجل قانون ودبلوماسياً.. ومن هنا نبعت ضرورة تدريسه اللاتينية.. فالقانون المعاصر يعتمد فيما يعتمد على كثير من الدراسات اللاتينية في القانون.

ولا تَنسَ أن المملكة المغربية عربية، ولهذا كان لابد أن يكون عاهلها من خيرة من يجيدون لغة هذه الأمة.

والمملكة المغربية هي أيضاً متاخمة لدول تتحدث الأسبانية والفرنسية، ولهذا فلابد لهذا العاهل أن يجيد هاتين اللغتين.. ثم يأتي دور المغرب القيادي وضرورة معرفة مليكه للغة عالمية كالإنجليزية.

وأخيراً فإن الأمير محمد سيكون قائداً أعلى للجيش، ولهذا توجب أن يتدرب على بعض الأمور التي لها علاقة بهذا الميدان، مثل الفروسية والرياضة، وله في هذا برنامج خاص.

لكل هذه الأمور انفردت المدرسة المولوية بأشياء لا توجد في مدارس المغرب الأخرى.. أو أن بعضها موجود ولكن بصفة أقل.

كل ما يحيط بطفل المغرب الأول موجه نحو غاية واحدة، هي إعداده لتولي شؤون الحكم بعد أبيه.. وكل ما في حياته منذ هذه السن المبكرة هو التهيئة للمسؤولية الكبيرة المنتظرة.. وربما كانت هذه الحقيقة، هي أبرز التبريرات لاحتواء قائمة وزراء المملكة المغربية على هذا المسمى النادر في الأنظمة العربية الأخرى: "الوزير المكلف بتربية سمو ولي العهد".. ومع هذا الوزير جهازه المهيأ لهذا الهدف.

أجل!.. وزير بحاله مهمته العناية بتربية ولي عهد المغرب.. ومدير المدرسة المولوية نفسه، هو بمرتبة "كاتب دولة".. أي وكيل وزارة، أو أنه أعلى بقليل.

ومن مدرسي سمو الأمير في هذه المدرسة وزيران: الأول معالي الأستاذ محمد الفاسي "وزير دولة سابق".. والثاني معالي الأستاذ باحنيني، وزير الدولة حينها للشؤون الثقافية، وهو يقوم بمهمته كوزير، ومهمته الأخرى كمدرس لولي العهد في الأدب العربي.

أما الإشراف على سير هذه التربية فهو إحدى مسؤوليات رجل المغرب الأول، وأقرب الناس لولي العهد.. أعني الملك الحسن الثاني..

قال لي الأستاذ محمد شفيق:

- الملك هو الذي حدد العناصر الرئيسة لبرنامج دراسة ولي العهد.. وهو الذي وضع الخطوط العريضة للفلسفة التي ينبغي أن يستلهمها الأساتذة والمشرفون على المدرسة، والمسؤولون عن تربية ولي العهد في كل ما يصدرون.. والملك يتابع بنفسه سير الدراسة.. فيطلع على درجات الأمير في كل أسبوعين مرة.. فهناك كراس

تسجل به درجات ولي العهد وزملائه، ثم يبعث إلى جلالة الملك حيثما كان؛ للإطلاع عليه، ومن ثم إبداء توجيهاته وملاحظاته.. كما أن جلالة الملك يترأس مجلساً خاصاً لأساتذة المدرسة مرة واحدة على الأقل في السنة، ويناقش معهم بحضور الوزير المكلف بتربية ولي العهد كل ما يمكن أن يطرأ من تغيير في البرنامج، أو في السياسة التعليمية.

عن السياسة ومشاكل العالم كان يدور في رأسي أكثر من سؤال قبل أن أخلو إلى ولي عهد المغرب الصغير.. كان يوحي إلى بهذه الأسئلة مركزه ولقبه.. ولكن من حين لآخر، كنت أتذكر أن سموه برغم كل الأدوار التي تناط به نيابة عن أبيه، وعلى الرغم من كل طقوس التعبئة التي يعيش في تربيته فهو لا يزال صغيراً غضاً.. فماذا يمكن أن يقول طفل لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره عن مشاكل القارة الأفريقية.. ومشكلة الشرق الأوسط.. والانتخابات الهندية.. واجتماع الأغنياء السبعة في لندن؟!

كل شيء إلا السياسة!

ربما لأنهم لا يريدون أن يعودوه على أن يقول "أي كلام" في مشاكل مصيرية ومهمة.. لا يريدون أن يهونوا في عينيه أموراً من هذا الطراز، فتكبر معه هذه العادة، وهنا يكون أحد مواطن الخسارة في التعبئة!.. لعلهم، إن كان هذا هو السبب، ينسون أن هذه المثالية قد تحطمت تحت أقدام كثير من الكبار الذين يسوسون عالم اليوم.. فهم يقولون "أي كلام" تندق على أثره أعناق!.. وتحرق شعوب!.. وتهدم ديار!.. ربما أيضاً لأنهم يخشون أن يمنح بعض الانتهازيين الصفة الرسمية كل ما يمكن أن يقوله "ولي عهد" المغرب في أمور لها صلة بعلاقات بلاده مع بعض شعوب الدنيا على الرغم من براءته وصغر سنة!

لم أدقق!.. بل انتحيت بسمو الأمير جانباً في مكتبة المدرسة المولوية.. ثم أخذت "أدردش" معه في كل شيء، إلا في السياسة!

قلت له:

- من هو الحسن الثاني؟!

- إنه أبي وملك المغرب.. بعبارة أخرى: والدي ورئيسي ورئيس كل المغاربة.

كنت أنظر إلى الأمير الصغير وهو يجلس أمامي، أتخيل فيه ملكاً لاحقاً لأرض المغرب وكنت أطوي لحظتها عشرات السنين.. فأتعجل الزمن لأتصور "تاج" الملك على هذا الرأس الوديع الذكي الصغير.. كدت أسأل سمو الأمير هذا السؤال: ما معنى أن تكون ملكاً؟ ولكني رأفت به.. خشيت أن أزجه في الحديث عن "فلسفة الحكم" وهو في مثل هذه السن الغضة، التي لم تكابد بعد وعثاء المسؤولية، وإن كان كل ما أرى هنا إنما وجد من أجل التهيئة لها.. ففضلت أن أترجل هذا الخيال الذي سيتخطى بي وبسمو الأمير سنوات علمها عند الله وحده، فعدت إلى الواقع والساعة الراهنة أسأله:

- تمثيلكم لوالدكم في بعض المناسبات هذا الوطنية والعالمية، ماذا يعني لكم؟

- أن أمثل قائد البلاد في بعض المناسبات شرف وأي شرف!

- بعد تمثيله في هذه المناسبات، هل تتحدثون معه عما يجري فيها؟!

- ليس دائماً.. أحياناً.

- ما هو شعوركم وأنتم تقفون بدلاً من والدكم في هذه المناسبات؟

- أشعر دائماً بالفرح.. وبالفخر.. لأن تمثيل صاحب الجلالة فرصة عظمى.

- هل تذكرون سموكم أول مناسبة وطنية مثلتم والدكم فيها؟

- لا أذكر الآن، فقد كنت صغيراً جداً!

- بمعنى؟!

- كنت في السادسة أو السابعة.

- هل تذكرون أول مناسبة عالمية؟!

- زيارتي لفرنسا رئيساً للوفد المغربي الذي ذهب للتعزية في وفاة الرئيس الفرنسي الراحل جورج بومبيدو.

- هل كانت هذه الزيارة أول زيارة لفرنسا؟!

- بل كانت الثالثة أو الرابعة.

- وكلها كانت رسمية!

- لا.. الثلاث الأول.. كانت خاصة.. للتجول والسياحة.

- وكيف وجدتم فرنسا؟!

- بلاد جميلة.. أعجبتني.

- هل واجهتم حرجاً في أول تمثيل رسمي لجلالة الملك؟!

- أجل!.. فقبل الذهاب للمناسبة التي مثلت فيها جلالة الملك، كنت أشعر بالفرح وبالفخر.. ولكن عندما وصلت إلى هناك داخل الطقوس التي تعرفها، بدأت أشعر بالحرج.

كان علي أن أتذكر دائماً أن ولي عهد المغرب الذي أتحدث إليه الآن، لا يزيد عمره عن الثالثة عشرة.. وهذه السن لا تبيح لي أن آخذ سموه إلى متاهات أسئلة قد يوحي لي بطرحها منصبه كولي عهد ومستقبله كملك.. فمع أنني كنت أثق أن "عقل" سموه يتخطى سنه الزمني، إلا أنني كنت أداري مواطن الحرج.. ربما كان هذا التصور، هو أكبر خطيئات حديثي مع الأمير الصغير.. عدت أسأل سموه:

- البلدان التي زرتموها؟!

- المملكة العربية السعودية.. فرنسا.. وأسبانيا.. والنرويج.. وبريطانيا.

- من البلدان العربية لم تزوروا غير السعودية؟!

- فقط السعودية.

- بين البلدان السابقة التي زرتموها.. أي بلد حظي بإعجابكم الأكبر؟!

- النرويج.. أما السعودية لم أقم بها سوى يوماً واحداً.. إضافة إلى أن المناسبة لم تخدمني بمعرفتها على وجه أكمل.. فقد ذهبت للتعزية في وفاة جلالة المرحوم الملك فيصل.

لم أنس لحظة، أن الهدف الأول للقائي سمو ولي العهد، هو التعرف على الجانب الآخر لملك المغرب القادم، أو أنه الجانب الأكثر وضوحاً وصدقاً لمن هو في مثل سنه.. هذا الجانب الذي لا تتوقف أكثر الصحف وأجهزة الإعلام، خاصة في أوربا، عن الحديث عنه.. ليس فقط لأن ذلك هو جانب لحياة أحد أبناء إحدى الأسر "العليا"، ولكن، أهم من ذلك، لأنه جانب لحياة زعيم قادم، سيحدد بمنطلقاته الشخصية والتربوية والوراثية طبيعة علاقاته وعلاقات دولته بجيرانه وبالعالم.. هذا فضلاً عن أن هذا الجانب لمن هو في مثل سن سموه،

يبعث على الإعجاب والدهشة وتقدير الحظوة الإلهية لبعض أطفال الدنيا الذين لا يميزهم عن غيرهم سوى طبيعة أدوارهم ومواقعهم من التاريخ.. مضينا في اكتشاف هذا الجانب الآخر سألت سموه:

- أنواع الرياضة التي تمارسونها؟!

- الفروسية.. والسباحة.. وأمارس كل يوم مع بعض أصدقائي بعض أنواع الرياضة الأخرى بإشراف أستاذ متخصص.

- وكرة القدم؟!

- أحب مشاهدتها ولا أحب ممارستها!

- والكراتيه.. مثلاً؟!

- مثل كرة القدم.

- نوعية قراءاتكم؟!

- القصص أولاً

- بأي اللغات؟!

- بالعربية.. والفرنسية.

- ألا تقرؤون بالأسبانية؟!

- الأسبانية أسهل اللغات الأجنبية عندي.. ولكن قراءاتي فيها قليلة!

- هل لكم كاتب عربي مفضل؟!

- ابن جلون وهو كاتب مغربي، أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان "في الطفولة"، وهو يحكي فيه قصة طفولته.

- وشاعركم المفضل؟!

- المتنبي.

- ومن المحدثين؟!

- أفضل قراءة الشعر القديم.

- والصحافة؟!

- صحيفة "المسيرة الخضراء".

- والصحافة السعودية؟!

- لا أعرفها فهي لا تأتي إلى المغرب.

- هل تتابعون الأحداث السياسية في الإذاعة والتليفزيون مثلاً؟!

- قليلاً.. فوقت دراستي لا يمكنني من ذلك.. ولكني شديد الحرص على عدم تفويت بعض النشرات

الإخبارية.. وأحياناً عندما يتوفر لدي شيء من الوقت للترفيه، أذهب للنادي مع بعض أصدقائي لمزاولة بعض هوياتي الأخرى، مثل "البلياردو" وتنس الطاولة!

- كم عدد مرات ذهابكم إلى هذا النادي أسبوعياً؟!

أربع مرات.

- والموسيقى؟!

- أحب العصرية.. وبعض الكلاسيكية!

- مثل من في الموسيقى العصرية؟!

- جو داسان.. وهو فرنسي.

- وغيره؟!

- جيرار لونورمو.. وهو فرنسي أيضاً.

- ومن الإنجليز؟!

- البيتلز.

- ومن العرب؟!

- أحب عبدالحليم حافظ.

- هل هو مفضلكم؟!

- أحد الذين أفضلهم.

- والسينما؟!

-- البوليسية.

- آخر ما شاهدتم؟!

- "غريزلي"، وهو اسم حيوان نادر يعيش في أمريكا الشمالية وكندا.

- العادة المغربية التي تحبها؟!

- كل عادات المغاربة أحبها.

- والتقليد الذي تود الإبقاء عليه؟!

- اللباس المغربي.

- أحب المواد الدراسية لكم؟!

- العلوم الطبيعية.. واللغات الأجنبية.

الأمير محمد، هذا الطفل الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة، يعيش بين أطفال في مثل سنه. وكل فرص الغرور والغطرسة مبسوطة أمامه، بما تهيأ له من اعتبار "ملوكي" فهو ابن ملك، وولي عهد، وصاحب ميراث ضخم، وتاريخ بدأ ولم ينته بعد.. ولكن مع هذا كله، وعلى الرغم من عمره الزمني الغض، كان يوحي إلى بأنه

التواضع يمشي على قدمين.. ولو لم يتحقق، حتى الآن، من أهداف تربيته سوى هذا الهدف، لحكم كل الناس بنجاح هذه التربية، وبمدى توفيق القائمين عليها.

كان يحدثني الأستاذ محمد شفيق عن طريقة معاملته لتلميذه الأمير.. فكان يؤكد أنه يعاقبه حين يستحق العقاب، ويثيبه حين يستحق الثواب، تماماً كبقية زملائه الصغار، وهم من مختلف الطبقات الاجتماعية.. وهذا السلوك التربوي السليم، يتبعه معه كل أساتذته ومدرسيه بتوجيه من أبيه جلالة الملك.. ومن غاياته إشعار رجل المغرب القادم بأنه يستوي مع أي مغربي آخر في الثواب والعقاب، وأن اسمه ولقبه وكل حظواته لن تشفع له في تقصيره.. أردت أن أطمئن نفسي أكثر عن ثبوت هذا التواضع في داخل ولي عهد المغرب، وبالذات فيما يخص علاقته بزملائه الصغار في المدرسة.. فقلت!:

- هل تتعاملون مع زملائكم في المدرسة من منطلق أنكم ابن ملك وولي للعهد؟!

أجاب وهو ينظر إلى بعينين مليئتين بالاستنكار والمفاجأة:

- إنني أتعامل مع زملائي كأصدقاء.. فأنا تلميذ عادي هنا!

ثم سكت.. وتركني أحاسب نفسي على عدم التريث في طرح هذا السؤال.. ولكن بطريقة ميكانيكية وجدتني – بعد لحظة – أطرح سؤالاً آخر مقابلاً:

- زملاؤكم.. هل يتعاملون معكم كولي عهد وابن ملك؟

- إنني بالنسبة لهم، لست أكثر من صديق وزميل دراسة.

قالها بالنظرة الاستنكارية نفسها التي رماني بها مع إجابته على السؤال السابق.. ولكن مادام طفل المغرب الأول يصر على تجريد نفسه في بعض المواقف من اسمه ولقبه ومركزه، لماذا لا أستبيح لنفسي – أنا – أن أتصوره الآن مواطن مغربي عادي.. وهذا الابن العادي ترى في أي ميدان كان سيستغل ذكاءه وفطنته؟!

قلت لسموه:

- لو لم تكونوا ولياً للعهد.. هل هناك مهنة بعينها كنتم ستطمحون إلى ممارستها؟!

- أجل.. الطب

- قلت أمازحه:

- ألا تود أن تكون صحفياً؟!

- قال وهو يضحك:

- أبداً.

- لماذا؟

- لأن لديهم دائماً أسئلة كثيرة.

- أي بمعنى آخر أنهم مزعجون؟!

- نعم!

ولكن على الرغم من هذا الاحتجاج الصارخ من سموه، كان يبقى في رأسي بضع أسئلة لم أفكر في تركه قبل أن يجيب عليها.

- هل يتيسر لكم مقابلة والدكم متى شئتم؟!

- أنا طالب داخلي، ولا تتيسر لي مقابلة والدي سوى مرتين في الأسبوع، في يومي الإجازة الأسبوعية.. وهذا عندما يكون جلالته معنا في الرباط.. أما عندما يكون في مكان آخر، فإنها تمر فترة طويلة دون أن

أقابله.. مثلاً هو الآن في مدينة مراكش، وقد مضى أكثر من شهر دون أن أراه.. ولكن عندما لا نلتقي، يكلمني هو تليفونياً مرة أو مرتين في الأسبوع.

- منْ هم الزعماء والملوك الذين قابلتهم حتى الآن؟!

- الملك خالد.. وسمو الأمير فهد بن عبدالعزيز (لم يصبح بعد ملكاً يومها).. وجيسكار ديستان.. وملكة بريطانيا.. وملك النرويج.. وملك أسبانيا خوان كارلوس وزوجته الملكة صوفيا.

الأمير محمد تربطه زمالة وصداقة بأقرانه في المدرسة المولوية بالرباط، وعددهم أحد عشر طفلاً، ليس فيهم أمير أو ابن أمير.. هل هذه هي كل حصيلة الأمير الصغير من الأصدقاء، خصوصاً وأنه قد قابل أكثر من زعيم، وقد ولج أبواب أكثر من بيت ملكي؟! ألا تربطه صداقات ود ببعض الأمراء الصغار في بعض أنحاء المعمورة؟!

قال يجيب:

- لي صديق أمير واحد.. هو أمير إيران.. أكاتبه ويكاتبني.. ونتبادل التهاني بعيدي ميلادنا.

- هل قابلتموه؟!

- أجل!.. وسيأتي لزيارتي في شهر أغسطس القادم.. وسبق أن زرته في إيران.

- هل هو في مثل سنكم؟!

- يكبرني بثلاث أو أربع سنوات.

أخذت أشعر أن الأمير الصغير قد "احتملني" بما فيه الكفاية!.. كما شعرت أن فرصة جديدة قد تهيأت لسموه ليؤكد لي مرة أخرى: أن الصحفيين مزعجون!

الإجازة

ها هو بنطلون "الجينز" أو القميص "نص كم"، أو الحقيبة العريضة المصنوعة من السعف أو القماش، ها هي تحتشد بها، منذ مطلع أيام الصيف الأولى، شوارع باريس، وساحاتها العامة، ومقاهيها، ومطاعمها، ونواديها، ومنتزهاتها.

في الشانزليزيه، ومونمارتر، والأوبرا، ومونبرناس، وكليشي، والحي اللاتيني، نرصد وقفة مسترخية من وقفات الإنسان الذي لهث طوال أيام الشتاء، ليسترخي بعض أيام الصيف. لهث أكثر من ثلاثة أرباع السنة في مدينة تشكو من "الصمم" ومن "انسدادات" خطيرة في الجيوب الأنفية، ليجد – أخيراً – أنه في حاجة إلى أن

يستمع إلى صوته هو فقط.. بعيداً عن "الناس" وعن الوجوه والعيون التي تصدمه كل يوم. إنه في حاجة إلى أن "يستنشق" ملء رئتيه رائحة الشمس، والشاطئ، والبحر، وأخشاش الريف، والجبال الشاهقة، بعد أن "نهلت" تلك الرئة، طوال شهور عديدة، من روائح عجلات السيارات.. وسراديب الميترو، ورطوبة العرق المتصبب بغزارة من الجباه العريضة في عنف الزحام.

بنطلون الـ "جين" والقميص "نص كم".. وحقيبة السعف أو القماش العريضة، بدأت تحشر كل زاوية في وجه. في الصيف فقط تشعر أن "الشياكة" وربطات العنق، عبء ثقيل وممل وبليد. أنت في أمس الحاجة إلى أن تقذف كل هذه الأشياء وراءك وتمضي في "التشرد".. والبوهيمية المنضبطة.. أو حتى غير المنضبطة!

الذين لايزالون "يمسدون" كل صباح برفق وأناة كرفتاتهم الجميلة، وهم يترجلون عربات الميترو، في الطريق إلى المكتب، هم أناس تعساء.. لأن "محكوميتهم" بمواصلة إرتداء الكرافتة، وبالاستمرار في ركوب الميترو في ساعات مبكرة صباح كل يوم مازالت

تمتد وتمتد إلى أعلى كذؤابة برج إيفل.. أو تغوص وتغوص إلى أسفل كأعماق نهر السين..

"الكرافتة" ليست دليلاً أو مظهراً من مظاهر "الشياكة" بقدر ما هي الآن "أداة" من أدوات الانضباط و"وقار" المكتب والعمل.. إنها ظاهرة من مظاهر "الجدية" التي يجب أن يتحلى بها العاملون.. والناس في حاجة، من حين إلى حين، إلى التخلي عن "جديتهم".. فهي ليست ضرورية دائماً.. لا بل إنها مزعجة في الكثير من الأحيان.

في "فيترينات" متاجر الألبسة اختفت هذه الأيام الكرافتات ذات الألوان البراقة، واختفت أيضاً بدلات الـ"بلومارين"، لتحل محلها بنطلونات الـ"الجينز" والأقمصة "نص كم". فالناس سيبدلون ملابسهم: ملابس العمل والشتاء.. يريدون الانتقال إلى ثقافة الصيف والبحر والشمس والحب!.

الفرنسيون في باريس وخارجها يشغلهم طوال أيام السنة شيئان: الأول: العمل.. والعمل.. والعمل.. في محاولة لحشو الفم الفاغر. أو في محاولة للتغلب على قسوة الغلاء المعيشي. الثاني: الإجازة.. فمنذ أن تبدأ

إجازة هذا العام – مثلاً – في سحب خطاها عنهم، مؤذنة ببدء مشوار جديد من العمل، إذ يمتد هذا المشوار إلى أكثر من ثلاثة أرباع السنة، يبدأون هم بقلق وبلهفة في تخطيط برامج الإجازة القادمة.

الفرنسيون معروفون "بحب الأكل.. وحب الإجازة.. وحب العمل أحياناً"، وحب العمل يتولد فيهم نتيجة لحب "الأكل.. والإجازة".. فبالعمل يتوفر المال.. وحين يتوفر المال يتوفر تبعاً لذلك الأكل الجيد.. كما تتوفر إمكانية التمتع بالإجازة.. والإجازة عندهم لا تعني فقط "الراحة" من العمل.. فهناك شيوخ متقاعدون لا يعملون، ونساء لا يعملن؛ ومع هذا فلا بد من أن الـ"إجازة". إذ ينطلقون بحثاً عن البحر والشمس.. والحب أيضاً.

الإجازة هي كذلك ترك مكان الإقامة.. وأكثر الأماكن التي تشد الفرنسيين لقضاء الإجازة، داخل فرنسا، هي الشواطئ (في الجنوب مثلاً) أو باريس إن كانوا من غير المقيمين فيها.. فباريس "عشيقة" ودودة، ولكنها "زوجة" شرسة، عاقة، مسرفة، ثقيلة الظل. وأكثر الأقطار الأجنبية التي تشد الفرنسيين لزيارتها، هي

البلدان البسيطة، الأقل تعقيداً من مدنهم، البلدان الزاخرة بالبحار والشواطئ والتراث والفلكور. ولهذا فكثيراً ما يرحلون – مثلاً – إلى دول أمريكا اللاتينية، ومصر وتركيا، والهند، ودول شمال أفريقيا، ولو قدمت لأحدهم تذكرتي سفر إحداهما إلى نيويورك – مثلاً – والأخرى إلى مدينة "ليما" في أمريكا الجنوبية.. أو القاهرة في مصر، فإنه فوراً سيأخذ بأي خيار غير نيويورك وسيقول لك: أنه سيرى في نيويورك ما يراه هنا في باريس، سيشم الروائح نفسها.. وسيزاحم الأكتاف ذاتها!

بعضهم لا يحبون الرحلات الطويلة.. ولكنهم حتماً ممن يحبون أن يمدوا أجسادهم فوق الرمال الناعمة.. تحت "جفن" الشمس على حوافي أحد شاطئ البحر وصخبه..

الشمس هي الحياة، والضوء، والنقاء، والفرح.. والشمس هي ابتسامة أوربا بعد أن تكون قد استغرقت في البكاء طول أيام العام، والشمس.. هي وهج الشرق الذي يضرم في قلوب الشرقيين العشق والسخاء.

أسبانيا.. واليونان.. من أهم منتجعات الأوربيين والفرنسيين.. ودائماً بحثاً عن الشمس والبحر.

الذين يسكنون باريس يضيقون بها، وهم ينتظرون أيام الصيف كما ينتظر السجين اليوم المشرق الذي سيعلن فيه إطلاق سراحه. يفرون منها إلى الريف.. أو إلى الشمس والبحر والحب!

"الإجازة عندي هي محاولة نسيان باريس.. والهروب منها ولو إلى الجحيم.."

يقولها أحد الباريسيين وهو يحزم حقائب السفر.. ولا أتطرف عندما أقول إن أكثر من ثلاثة أرباع الباريسيين لا يبقون في هذه المدينة أكثر أيام الصيف..

يخرج من باريس كل المكروبين بها.. ليفد إليها مَنْ لاتزال فتنتها تعصف بقلوبهم.

على جوانب الطرق خارج المدن، يقف شبان وفتيات يشدون حقائبهم الصغيرة إلى ظهورهم.. وفي أيديهم "لافتات" مكتوب عليها أسماء المدن أو البلدان التي يريدون الرحيل إليها لقضاء إجازتهم.. هذا هو "الأوتوستوب".. فهم في الغالب من الشباب الذين ليس لديهم ما يُمكنهم من شراء تذاكر السفر، لا بالقطار ولا

بالطائرة، فيقفون على جوانب الطرقات يتوسلون من ينقلهم مجاناً إلى وجهاتهم.

هؤلاء قد يكونون طلاباً، وقد يكونون عاطلين ومشردين. وهؤلاء كثيراً ما يهددون أمن الطرقات: حوادث قتل واغتيال كثيرة حدثت نتيجة لعملية "الأوتوستوب"..

أكثر الدوائر الرسمية والبنوك والمؤسسات التجارية.. والمصالح العامة تغلق أبوابها في الصيف، أو على الأقل تشكو رحيل موظفيها.. بل حتى الإذاعات ومحطات التلفزيون، تختفي أكثر برامجها.. وتودع المستمعين والمشاهدين إلى ما بعد الصيف.. الناس في هذه البلدان مشغولون في الشتاء بالعمل، وبتخطيط برامج الإجازة المقبلة. وهم في الصيف مشغولون بالإجازة، وبترقب شبح العمل الذي يهددهم بالعودة إليه عاجلاً.

الإجازة بحر وشمس وهجرة مؤقتة إلى منتجعات الحب والأحلام، أي إلى هناك.. بعيداً عن "الروتين"، وعن المعتاد، وعن الترتيب، وعن الرتيب، وعن اليومي الذي يبعث على الملل.

في الإجازة يتفتح الخيال لإبداع العوالم المسحورة، واختراع المفاجئات والتربص لها. ولاشك أن العقل والوجدان في حاجة إلى هذه الصدمات الكهربائية لمزيد من الجموح واليقظة استعداداً لإعادة خلق الكون والمستقبل.

ثم تبقى ذكريات الصيف متوهجة في قلوب الراحلين وخيالهم. فهناك دائماً قصص تروي، وهناك قصص أخرى تتوارى في أقصى الذاكرة، ويتم استدعاؤها، من وقت لآخر، لمجرد الحنين وتنشيط خلايا القلب.. نعم!.. إنها قصص الحب.. حب الصيف الذي يغمر الجميع، وهو في الغالب "يتوقف" في نهاية الصيف نسبه، ونادراً ما يستأنف. لعل هذا هو ما ندعوه في ثقافتنا العربية بسحابة الصيف! ما تلبث أن تختفي بعد ظهورها بقليل.. ولكل صيف "حُبّه".. ولكل بحر ذكرياته، ولكل شمس قصصها ورواياتها!.

الهوى والليل..
والكلام السكر

.. الفيزا.. المطارات.. الهوتيلات.. الحقائب.. كاميرات التصوير.. البطاقات الإئتمانية.. العيون المشدودة إلى الأمام.. الأنف الذي يشم رائحة "أخرى!" في كل شيء.. القلب الذي يخفق بالتطلع، حتى لو لم يكن هناك ما يستحق التطلع!

هذه الأشياء هي الدوائر الحمراء التي تضيق وتتسع بلا توقف في رؤوس وأذهان الذين يحبون السفر والرحيل. هي "النقاط" الأكثر بروزاً في شعور كل من يحب أن "يدور" حول "الإنسان":

دعوكم من دوران الأرض حول القمر أو الشمس فالأرض هي الأرض في أي مكان.. الإنسان هو الذي "يختلف".. واختلافه هو الذي يجعل لكل جزء من هذه الأرض طعماً خاصاً، ورائحة خاصة، وملامح خاصة، فحتى أوربا – مثلاً – لو لم يختلف فيها الإنسان من إقليم إلى إقليم لاتفقت، من حيث كونها أرضاً وتراباً، في خصائص واحدة، ومعالم واحدة، ولما استطعنا أن نفرق بين بلدانها، فنعطي كلاً من هذه البلدان هوية معينة، مستقرأة من ثقافة إنسانها نفسه. ومن هنا فقط نشأت الحاجة إلى القول بأن بلجيكا هي غير فرنسا، وفرنسا هي غير بريطانيا، وبريطانيا هي غير هولندا.. وهكذا..

صحيح أن نشاط الإنسان وحركته وتصرفه في هذه الأقاليم، كما في غيرها، أشياء محكومة في شكل ما بخصائص الأرض نفسها.. ولكن يبقى المحور هو "الإنسان" ذاته، فهو الفاعل الأكثر إيجابية في الخلق.. وفي الإبداع. فالتباينات الحضارية والثقافية والأخلاقية بين إقليم وإقليم، إنما جاءت نتائج طبيعية لـ"تصرف" الإنسان.. هذا التصرف الذي يخضع بالضرورة للميراث التاريخي والثقافي الذي أنشأه الإنسان منذ أن كان

"قديماً" إلى أن أصبح "حديثاً" ووصل إلى ما وصل إليه اليوم.

خذ مثلاً الإنشاءات العمرانية في أي بلد من بلدان الدنيا.. هذه الإنشاءات التي تميز أرضاً عن أرض، أو إقليماً عن إقليم، إنما هي الإنسان نفسه في طبعه وطموحه.. ولذا فعندما تقول إنك زرت الصين يحسن بك أن تقول إنك زرت الإنسان الصيني، وبدل أن تقول إنك شاهدت تاج محل في الهند، فمن الأفضل أن تقول إنك رأيت عن كثب أحد إبداعات الهنود الباذخة، أو إحدى مراحل الترف والخرافة عند الإنسان الهندي.

ودعماً للحقيقة السابقة فأنت عندما تنوي السفر من بلد لآخر فإن الأرض ذاتها ليس لها أن تقبلك أو ترفضك، ولكن إنسان تلك الأرض هو في واقع الأمر الذي يمكن أن يمد يده لك، أو أنه يخشاك، ويتجاوزك، وينصرف عنك.

أنت عندما تدخل إلى الأراضي الأمريكية، لا يمكن أن تخلق في هذه الأرض زلزالاً، أو أن تحولها بوجودك فيها إلى أرض غير قابلة للزراعة، ولكن من الممكن جداً أن يشكل وجودك فيها "خطراً" على "أمن" الإنسان الأمريكي نفسه، أو أن تصبح مصدر قلق لأخلاقه وقيمه..

أو ربما تكون تهديداً لذوقه العام، فأمريكا من حيث كونها أرض هي أمريكا "الجامدة"، وهي لا ترفض أي وجود إنساني.. ولكن الإنسان الأمريكي ، في المقابل، هو الذي سيسلط عليك مشاعره السلبية التي ستقذفك إلى خارج اهتمامه، وكذلك خارج "أرضه" إذا احتاج الأمر.

في بعض البلدان يسألونك عندما تطلب "الفيزا" أو الإذن بالدخول إلى أراضيهم عن غرض الزيارة، ومدتها، ومصادرها المالية. وأحياناً – للتثبت – يطالبونك بإبراز تذكرة العودة أو الخروج من بلادهم، ليضمنوا عدم بقائك، إن الأرض لن تضيق بك، ولكن إنسان تلك الأرض هو الذي قد يحمله وجودك معه أوزاراً مختلفة، فأنت ستشدد الخناق عليه، فتزداد خشيته منك، أو من قبولك معه فوق أرضه، ولاسيما كلما اشتدت بينكما الفروقات الثقافية، وفي المقابل ستخف درجة احترازه منك كلما خفت وبهتت تلك الفروقات.

يوما ما في بريطانيا قد ترتفع درجة الخشية منك، فيصعب عليك الحصول على الأذن بالدخول إلى الأراضي البريطانية، ويوماً ما أيضاً في هولندا قد تنخفض درجة

الوجل من وفودك إلى الأراضي الهولندية، فيتساهل الهولنديون، ويبسطون أذرعتهم لاستقبالك. كل ذلك يتوقف على حدوث تحولات جذرية في تقييمك ثقافياً.. وبالتالي سياسياً واقتصادياً.

تحريات "الأمن!" التي يتخذها الإنسان صاحب الأرض في تعامله وصلاته مع الإنسان "الضيف!" أو الوافد، قد تكون طبيعية إلى حد ما.. فسلوك الإنسان عموماً ظل ومنذ بدء الخليقة محكوماً بالخوف، وبالحذر، وبالطمع، وبكل ما تستتليه هذه الأشياء من تناحر، وتنافر، ومراوغة، وتلصص، وإنتهاز. ولهذا فإن الفيزا ليست إحدى سيئات العصور المتأخرة، بقدر ما هي ضرورة من ضرورات "تنظيم" خوف الإنسان القديم.. وحذره القديم.. وطمعه القديم، وهي أيضاً ليست أحد التعبيرات "النابية" لأجهزة الأمن الحديثة، بقدر ما هي تحوير "إداري" صرف، ساخن وقديم جداً، يساعد في تحديد "الغريب".. أو الأجنبي.. أو المختلف، والغرض هو تمييزك عن "المواطنين" أصحاب الأرض.

إن كانت إدارات أمن الدولة في الداخل أو في الخارج ترغمك على أخذ الفيزا؛ فلأنها تحرص على أن

يكون قدومك إلى ديارها منظماً، وإقامتك في تلك الديار منظمة أيضاً، وليكون تعاملك مع أهلها محكوماً بنواميس قانونية معينة. وهي تدرك – سلفاً – أنك ستظل عند كل مواطنيها "غريباً".. أجنبياً.. وهم إن اقتربوا منك، فربما للاكتشاف، أو للتحرش، أو للتعبير عن قلقهم. وهم إن ابتعدوا عنك فإنما لأنك ستبقى جزءاً دخيلاً لا يربطك بهم أي رابط. وفي كلتا الحالتين سيحتفظون لك بمشاعر "مميزة" يستمدونها من حقيبة شعورية معزولة كتب عليها "للغرباء فقط".. ويوجد دائماً في هذه الحقيبة خليط عجيب من الجفوة.. والاشمئزاز.. والتجاهل.. والاحتقار.. والاستعلاء.. والعطف.. والرحمة.. والود، والناس يكيلون لك منها كلها، أو من بعضها، بقدر ما تلهمهم أنت بوجودك معهم من تشابه أو من اختلاف ومن التقاء أو افتراق.

الإنسان في كل نواحي الأرض يأخذ بنصيب وافر من هذه الحقيقة.. أعني حقيقة التمييز بين الإنسان صاحب الأرض والإنسان الطارئ على هذه الأرض.. حتى "الغريب" نفسه لا يمكن أن ينفك من استشعار هذا التمييز.. إذ يستحيل عليه مهما بلغت مثاليته أن يوطّن

– بتشديد الطاء –كل أحاسيسه، وكل مشاعره، وذلك بمجرد معاشرته للإنسان صاحب الأرض بضعة أيام، أو بضعة شهور، أو حتى بضع سنوات أحياناً.

ربما كانت هذه الحقيقة –من جانب آخر– هي إحدى معادن الحلاوة والتشويق والإثارة في الأسفار.. فبعد أن تضيق بإنسانك اليومي العادي في بلادك يشرئب فيك التوق لاكتشاف إنسان جديد.. جديد من حيث مفهوماته، وطبيعته، وثقافته، وحضارته، وتاريخه. ولعل عدم تيسر إشباع هذا "التوق" المقيد بعراقيل مختلفة، لعله كان معدنا من معادن عذوبة السفر.

السفر هو الذي يحول المطارات والموانئ ومحطات القطار إلى مواقف استراحة حانية موحية للحياة، حتى لو لم تدم إقامتك فيها سوى دقائق محدودة.. يكفيك أنك تحلم فيها بلقاء الإنسان "الجديد".. والفضاء الجديد.. والشمس الجديدة.

وبين المطارات والموانئ ومحطات القطار من جهة، والهوتيلات وأماكن الإقامة من الجهة الأخرى، تبقى أنت المسافر أقدم "المشردين".. وأنبل "الضائعين".. وأطهر "المتسكعين".. كاميرا التصوير في يد..

وحقيبتك الصغيرة في يد.. وعيونك الجسورة يخترقها كل شيء دون طلب الإذن منك.

شخصياً.. فإن إحدى رحلاتي شملت بروكسل في بلجيكا، وأمستردام في هولندا.. وادنبره في سكوتلاندا، ولندن في إنجلترا..

بالنسبة لبلجيكا وهولندا فيكفي أن تحصل (تلك الأيام) على فيزا واحدة من إحدى الدولتين؛ لتتمكن من دخولهما كلتيهما. وبالفيزا نفسها يمكنك كذلك دخول دولة ثالثة صغيرة، هي "لوكسبمورغ".. والسبب هو أن هذه البلدان الثلاثة تجمعهم رابطة اقتصادية سياسية واحدة يسمونها "بينيلوكس"، وهذه الرابطة تشكلت بالاتحاد الاقتصادي الذي تم بين الدول الثلاث عام 1958م.

قبل هذا التاريخ كانت – ثلاثتها – تفيد من مشارطات اتحادية في الحدود، ربما كانت هذه المشارطات استعادة لمرحلة تاريخية معينة، يوم كانت بروكسل ولاهاي مقرين رئيسيين لإقامة ملك هولندا في أوائل القرن التاسع عشر، وقبل أن تتفجر ثورة

أغسطس– سبتمبر عام 1830م، والتي أعطت بلجيكا الاستقلال الكامل.

منذ عام 1960م تندمج هذه الدول الثلاث تندمج في تعاون وارتباط وتفاهم تام ليس على المستوى الاقتصادي فحسب، ولكن أيضاً على المستوى "الاجتماعي.. وهذا التفاهم يتم بالرغم من كل المصاعب الناتجة عن السياسة الزراعية لدول السوق المشتركة.. ومع أن بلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ تعد أعضاء في المجموعة الاقتصادية الأوربية، إلا أن ذلك لم يغنها عن تطبيق وتنفيذ اتفاقيات تطويرية تشكل منهم مجموعة صغيرة داخل المجموعة الأوربية الكبيرة "مجموعة التسع يومذاك".

هذا التنظيم السياسي الاقتصادي المتحد له مجلس وزراء.. ومجلس اقتصادي. ومجلس برلماني أيضاً.. وسكرتاريته العامة تتخذ من بروكسل مقراً لها.

قبل أن نأخذ أماكننا في الطائرة التي ستقلنا إلى مدينة تجارة الملابس قديماً (بروكسل) كان على "البيست" بين الطائرات المنتشرة في كل أرجاء المطار طائرة ضخمة جداً.. أسمها "كونكورد".. عرفتها بأنفها

الطويل.. الطويل جداً!.. لعله أطول من أنف الجنرال شارل دوغول.. قلت في نفسي وأنا ألوي وجهي عنها: هذا هو الطموح الفرنسي – البريطاني الذي لم يدم طويلاً، والذي أثار غيرة الجبروت الأمريكي حدّ الغليان!

على الرغم من الضجة الاقتصادية والسياسية التي أثارتها طائرة الكونكورد في كل مكان، لم تدم، أي الطائرة، في خيالي أكثر من الوقت الذي كنت أربط فيه حزام المقعد. بروكسل كانت تشغل كل ذهني، وكان لابد أن أمررها في تصوري قبل أن أصلها.

طلبت إلى إحدى حمائم الايرفرانس (المضيفة) أن تحمل لي كوباً من القهوة ومعه "ابتسامة" عريضة إن أمكن ذلك.. فأماّ كوب القهوة فكان لإيقاظي من خذلان الصبح.. أي بقايا النوم وأعذبه وأحلاه.. وأما الابتسامة العريضة فلاستهلال متعة السفر والتجوال. هذه الحسناء، فعلت كما تفعل عادة كل المضيفات: قدمت لي الابتسامة قبل أن تغادرني للإتيان بالقهوة..

كنت أعلم سلفاً أن بروكسل مركز ثقافي جيد، بجامعاتها، وبدار الأسقفية فيها. وكنت أعلم أيضاً أنها أحد المراكز الاقتصادية والسياسية الضخمة في أوربا

كلها.. فهي مقر اللجنة التنفيذية للمجموعة الاقتصادية الأوربية.. وهي مقر منظمة حلف شمال الأطلنطي.. وكل هذه الأشياء لم تكن تثير تطلعي نحو بروكس، بقدر ما كانت تقيم في داخلي مساحة عريقة من الأمل، بأن هذه المدينة المتعددة المشارب، التي يقطنها أكثر من عشرين جنسية متفاوتة في الطبع.. والذوق، والميراث الحضاري، والتاريخ ستكون فيها خلاصة نفسيات وأخلاق كل هذه النماذج من شعوب الأرض المختلفة.

كنت أحسب أن بروكسل مدينة نشوى.. وكنت أظن أن وجود رجال الأعمال ورجال الدبلوماسية في مدينة ما، يجعل منها فتاة مكتملة تضرب بيدها على الطاولة متى يجب.. وتضحك في "غنج" ودلال متى يجب أيضاً.

كنت أتخيل بروكسل في هيئة فلاحة ريفية تغمس يدها في الوحل والطين طوال النهار، وهي تسقي الزرع، ثم تقبرها في الحنا والعنبر طوال الليل، وهي تكسّر – بتشديد السين – نظراتها فوق ملامح رجلها قرير العين.!

كنت أتخيلها عذبة كالحنين.. فاتنة كالنجوى!

ولكني أخذت أتراجع أمام "تحسباتي" وتصوراتي هذه خطوة خطوة مدة إقامتي فيها، حتى وصلت إلى مستوى الصفر!

مقر السوق الأوروبية موجود.. ومقر منظمة حلف شمال الأطلنطي كان موجوداً أيضاً.. ولكن مثلي لم يأت إلى هنا ليحسب عدد النوافذ أو الأبواب في هاتين البنايتين الكبيرتين.

******

هؤلاء الذين ندعوهم هبيين استطاعوا أن يسجلوا "نقطة" منتصرة على مستوى تعاملهم مع "الفصائل" والأنواع الإنسانية الأخرى، على الرغم مما يقف بينهم وبين تلك الفصائل والأنواع من حواجز فكرية وثقافية واجتماعية. ففي أي بلد غربي، حيث لا يتوقف الإنسان عن قضم أظافره حتى في النوم، قد تجد لدى هؤلاء الهبيين من العون ما لا تجده عند غيرهم.. تسألهم يجيبونك.. تلجأ إليهم فلا يخذلونك، وهذا ما لا يتوفر عند غيرهم في كل حين..

بيننا، الهيبيون وأنا، شقة خلاف أعتقد أنه لم يعد بالإمكان حسرها.. وتفصلنا مسافة عريضة أعتقد أنه بات

من المتعذر قطعها.. وهذه "المسافة" ليست أكثر من مسألة استعداد شخصي لأن أكون هيبياً أولاً أكون!.. أما على مستوى التبادل الإنساني فأنا لا يهمني في شيء أن يكون الطرف الآخر هيبياً أو غير هيبي، ما دام يستطيع أن يتخذ مني مواقف نزيهة، ويتعامل معي ومع الآخرين بشرف.. ولهذا فما وجدت قط حرجاً في أن يكون لي صديق هبي، مقيماً كنت أم مسافراً.

كل دواعي الانفصال والفرقة والشقاق التي حدثت مع من عرفت من الهيبيين، إنما كان مردها الأول والأخير عدم رضاهم عن أفكاري "وسلوكي" الاجتماعي، وعدم اقتناعهم بمدى جدوى فهمي وتقييمي للإنسان وللحضارة وللتاريخ.. فهم يهجرونني.. وأحياناً يرجمونني بالحجارة، ليس فقط لأنني "متعب" ولكن أيضاً لأنني موضوع ميؤوس منه!.. هذا الكلام "السالف" الذي كنت لا أود قوله، الآن على الأقل، ينتزعه من بين أسناني (جوبير)، هذا الهبي الطويل العريض الذي كان يجلس أمامي في القطار.. القطار الذي ينقلنا من مطار بروكسل إلى المدينة نفسها.. كان جوبير يستند إلى "مزودته" الجلدية العتيقة، وهو يملي عليّ ببساطة وبأريحية كل ما

طلبت إليه من معلومات عن بروكسل وعن الناس البلجيكيين.. بل لقد كان جوبير أكثر من ذلك يشعرني بأن من دواعي سروره، أن يعطيني تلك المعلومات، وأن يساعدني، لأنني "غريب".. أو قولوا "متشرد" إلى أجل..

بعد أن وصلنا إلى "لا غار سنترال" أو محطة القطار المركزية في بروكسل، لم يدعني جوبير حتى اطمأن بأنني لم أعد في حاجة إليه.. كان يود أن يذهب معي للبحث عن فندق، لولا أنه كان يتفتق شوقاً للقاء زوجته البلجيكية التي تسكن بروكسل.. فقد "انصرم" عليه عام كامل دون أن يراها، وهذا العام الطويل العريض، قضاه كله محبوساً بين جدران أربعة في أحد سجون أثينا في اليونان.. والسبب هو أنه في مثل هذه الأيام من العام الذي انصرم ألقى عليه البوليس اليوناني القبض، وهو يتعاطى المخدرات مع زوجته أثناء إقامتها لبعض الوقت في العاصمة اليونانية.. فكانت عقوبة الزوجة طردها فوراً من البلاد.. وكانت عقوبته هو السجن لمدة عام، ومن ثم طرده. إن مثل هذه الأمور، هي التي تُعّمق الفجوة بيننا وبين جوبير ومن هم على شاكلته، ولولاها

ولولا غيرها من الانحرافات الأخلاقية، لاستطعنا أن نقيم معهم "ألفة" ملائمة.. في "النقطة" التي يسجلونها على مستوى التعامل، وهي إحراز إنساني قلما تجد له نظيراً عند الغربيين كلهم..

تركني جوبير في الساحة الكبيرة المرتفعة التي تؤدي إليها المحطة المركزية.. واسم هذه الساحة "لوكارفور دو لوروب" .. وهي تطل بخيلاء على القسم القديم من المدينة "لاغراند بلاس" وما حولها..

أخذت أجوب الشوارع الكبيرة الصغيرة المحيطة بالمنطقة، أبحث عن فندق ملائم.. أي متواضع.. فتعتب.. وكان أول احتكاك بإنسان في بروكسل مع جندي المرور الذي يقف مع أحد أصدقائه المدنيين:

- لو سمحت.. "غريب!" يبحث عن هوتيل؟!

قلت له ذلك، وأنا أريح حقيبتي على الرصيف.. أنتظر الجواب! ولكن الكلمات التي رماني بهذا هذا البلجيكي، ذكرتني مباشرة بالفكرة العمومية التي يأخذها الفرنسيون عن البلجيكيين، ويرددونها في أغلب الأحيان، وهي: السذاجة وبطء الفهم وضعف البديهة.. قال:

- أنا لا أعمل هنا دعاية للفنادق!

ولأنني أدركت بأنه لم يفهم، أخذت أشرح:

- ولكن المسألة ليست مسألة دعاية للفنادق.. إنها مساعدة لإنسان لا يعرف المدينة!

تقدم صديقه "المدني" يتدخل.. سألني:

- ولكن ماذا تريد من الفندق؟

هذا السؤال بدأ يؤيد في ذهني التعميم الذي يطلقه الفرنسيون على البلجيكيين.. إنه هو الآخر لم يفهم!..

قلت:

- هل كنت تظن أنني أسأل عن فندق للبيع مثلاً.. يا سيدي، أريد أن أنام.. أريد أن أستأجر غرفة للنوم.

وفي فندق "لا غراند كلوش" المطل على ساحة "أوروب" في وسط المدينة استطعت في غرفتي الصغيرة أن أعيد "تنظيم" مشاعري وملابسي.. وأن أستعد لغزو بروكسل بعد قليل كانت الساعة تقترب من السادسة مساء.. فخرجت..

سكان بروكسل لا يزيدون عن المليون نسمة.. وتلك الشوارع الكبيرة الخالية الراكدة المهجورة كانت توحي لي

بأن بروكسل كانت تعيش ما يشبه ساعات "حظر التجول".

في ساحة "بروكير" وهي إحدى الساحات الكبيرة في المدينة، كانت بروكسل تجد صعوبة بالغة في شد أجفانها عن النوم.. كانت رأسها الثقيلة المحشوة بالنعاس تتدلى من بين كتفيها، كالدلو الطافح بالماء والطين.

كان لا يتورع عن "نخزها" في خواصرها العدد القليل من السياح الذين يرتادونها. وهم غالباً ما يرتادونها من أجل شيء واحد مهم، وهو رؤية الساحة الصغيرة "غراند بلاس"، التي تعد بقصورها القديمة التي تكتنفها من كل جانب؛ علامة بارزة من علامات الفن والجمال والحضارة والتاريخ.. هذه الساحة التي يفرشونها – كلها – بالزهور في الأعياد والمناسبات، هي بحق من أروع ما رأيت، ليس في بروكسل فحسب، بل في أكثر العواصم الأوربية الأخرى.

يطل على هذه الساحة الـ"هوتيل دوفيل" أو دار البلديات ببرجها العجيب، الذي ينبثق وسط المدينة كالنور.. ودار البلدية هذه بنيت عام 1400م أي منذ أكثر من ستة قرون!! واكتمل بناؤها من كل الجوانب عام

1705 – 1717م.. ويطل على الساحة أيضاً "لاميزون دو روا دي سباني" أو منزل ملك أسبانيا، وقد أعيد بناؤه عام 1405م (منذ أكثر من ستة قرون أيضاً!!). وقد أعيد بناؤه كذلك عام 1515م، وكانوا سابقاً يدعونه "بيت الخبازين"، لأنه كان مقر نقابة الخبازين.. والدور السفلي منه تحول الآن إلى مقهى أنيق ذي صبغة فولكلورية موحية، يتوسطه "موقد" جميل لا تنطفئ فيه نار الحطب، وكأنك في أحد العصور السحيقة.. يطل على هذه الساحة كذلك "لاميزون دو روا دو بلجيك"، أو منزل ملك بلجيكا.. وهو لم يعد منزل ملوك الآن.. بل تحوّل إلى متحف من أجمل متاحف المدينة وأكبرها.

هذه الساحة الجميلة، خصوصاً من حيث الطراز هي التي ينكب عليها سياح بروكسل القليلون.. فهي الساحة الوحيدة التي لاتزال تحتفظ بروحها وبإيحائها وبمعناها.. زائر بروكسل لا يستطيع أن يحجب عن نفسه الدهشة عندما يراها.. ولا يستطيع أن ينكر على ذاته الارتياح، عندما يتخذ مكاناً في إحدى زواياها.. أو عندما يتنقل في الأزقة الضيقة جداً التي تحيط بها، وهي لا تدخلها السيارات.. والمرصوفة بالحجارة القديمة التي عبثت

بملامحها الأجيال والسنون.. تلك الأزقة كان يزين أركانها وجوانبها مطاعم صغيرة هادئة، تنبثق أضواء الشموع من نوافذها الشحيحة كالنجوم في ليلة صيفية.

أذكر من هذه الأزقة المدهشة "رو دي بوشيه"، و"بوتيت رو دي بوشيه"، ولا أكتمكم أنني قدمت أيام إقامتي في بروكسل قرابين كنت أنحرها على مداخل هذه الأزقة الضيقة.. خاصة بعد أن غسلت يدي من شارع "أفنيو لويز" الذي يزيد طوله عن ميل ونصف.. والذي يعده البلجيكيون "شالنزليزيه" بروكسل، وبعد أن قرأت الفاتحة على أكثر من شارع، وأكثر من ساحة في هذه المدينة، وخاصة تلك الشوارع، وتلك الساحات، التي أضاعت طعمها وروحها في غضون حركة التحديث التي تجتاح – منذ فترة – أكثر أجزاء بروكسل.. مثل ساحة "بلاس دولاموني"، ففي هذه الساحة يرتفع في شموخ "المسرح الملكي دولاموني".. وهو نفسه "الأوبرا الوطنية البلجيكية"، ولكن أمام هذا المسرح تقف كالشيطان في نشاز يثير القشعريرة بناية حديثة جداً هي "لا سيتي أدمينستراتيف".. مليئة بالمكاتب والمتاجر، وتطل من الجانب الآخر على شارع "أنسباك"، أحد

الشوارع الكبيرة في بروكسل.. خذوا أيضاً ساحة رئيسة أخرى قتلوا روحها، هي ساحة "روجييه"، ففي هذه الساحة "المسرح الوطني البلجيكي"، كأثر وطراز جيد ولكنهم نسفوا ما حوله لينشؤوا عدداً من الفنادق الحديثة والمطاعم والمقاهي.

هذا لا يعني إن الإنسان لا يحب الحداثة فـ"رو نوف"، وهو أحد الشوارع الحديثة طرازاً وروحاً في بروكسل، وقد بقيت له في ذهني ذكرى محببة.. لكن الذي يؤذي المشاعر أحياناً.. هو التحديث الذي يقتل الروح في بعض الأماكن الحية بتاريخها وبما توحي به من ثقافة وفن.. أعترف بأنني لا أدري كيف؟ ولكن هذا ما ينتابني من شعور أحياناً.

بروكسل مدينة لها ثقل دولي وسياسي لا يستهان به.. ولكنها تظل من وجهة نظر سياحية مدينة غير شيقة، على الرغم من "لاغراند بلاس" وغيره، وعلى الرغم من عيون صانعات "الدانتيل" وبائعاته.. وعلى الرغم من وجود جماعات الـ "جيل" أو مهرجي الشمال.. الذين يجوبون الشوارع على رؤوسهم الريش..

وفي أحزمتهم الأجراس.. ويرقصون ويوزعون البهجة.. ويحيون بذلك أحد الفلكلورات البلجيكية.

بروكسل مدينة "فاترة".. سمجة.. باهتة.. ينقصها كثير من البهارات والفلافل.. مزاجها ثقيل.. تشبه المرأة التي ظلت عانساً لأنها لم تثر الشوق في قلب أي رجل..

بروكسل محشورة بالعواجيز وبالكلاب.. أما صغارها فالذباب يقيم عروشاً على مداخل أنوفهم وأفواههم!.. لو دخل الفأر في أذن أحدهم لما أحس به!

ضقت ببروكسل.. وضاق بها صديق الرحلة.. فتركناها قبل أن نكمل الأيام التي أدخرناها لها في برنامج الرحلة.

تركناها لنضرب بطون رواحلنا نحو مدينة كالرحيق.. يدعونها: امستردام.

****

.. أيامنا في امستردام كانت "زحمة"، وكانت كالخيال.. مرت كالبهجة..

هذه هي أمستردام الفاتنة الخارجة على نواميس المدن.

.. أمستردام كانت حسناء ريانة مكتنزة بكل عوامل الفتنة.. تشعل الحريق تحت الماء، أو في داخله..

كانت أمستردام "ساحرة" تشحذ في قرون الشيطان أظافرها وبوز حذائها.. ها هي تتخذ من رؤوس الحراب "عشاً" لها.. وكأن الخناجر حول قدها الناعم شهب من شهب جهنم!

كنت أقول للصاحب الذي كان معي:

أنت وأنا من المفتونين بالأشياء الجريئة التي تفلّ جرأتها الحديد..

وكنت أجزم له بأنه لا يوجد في هذه المدينة عواجيز. فكل الناس الذين كنا نراهم كانوا في عمر المغامرة والخطر..

أمستردام أحد مراكز العالم السياحية الكبرى، يتوافد عليها سنوياً أكثر من مليون ونصف المليون من الزوار..وفي الغالب كلهم من الشباب.. ولكن ما الذي يحدث فيهيأ لك أن أهل المدينة أنفسهم لا يوجد بينهم شيوخ؟!..

منذ أن تتخطى البوابة الكبيرة لمحطة القطار الرئيسية في المدينة، بعد أن تترك خلفك مطار "شيفول"

وهو مطار أمستردام، والذي هو أحدث المطارات في الدنيا، منذ أن تتخطى تلك البوابة، دع عنك البحر الآن.. ودع عنك القوارب.. وخذ الشارع "الحفلة" الذي أمامك.. وأسمه "دامراك".. ستجد أن هذه المدينة – فعلاً – لا تأكل ولا تشرب إلا موسيقى وفن وفرح.. هذا الشارع هو أكبر شوارع المدينة على الإطلاق.. وعلى امتداده فوق الرصيف، أنت مدعو لسماع شتى ألوان الغناء والموسيقى الحية، يعزفها شباب من كل مكان. هذا فضلاً عن "الأرغن" الذي يمتد هو الآخر على طول الرصيف، ثم لا يتوانى في الشدو بألحان "تشيل المدينة وتحطّها".

نحن الآن في فترة احتفالات "عيد الميلاد" وأعياد رأس السنة، وهي تبدأ في كل أوربا منذ الرابع والعشرين من ديسمبر أو قبله بقليل.. إلا في أمستردام.. ففيها وحدها تبدأ الأعياد منذ الخامس من ديسمبر.. فمنذ هذا التاريخ يبدأ الهولنديون في إحياء ذكرى دينية بالموسيقى والسرور والهدايا، وهذه الذكرى هي عيد ميلاد القديس "نيكولا"، وتستمر الفرحة حتى عيد ميلاد المسيح وما بعده.

أطفال أمستردام أكثر حظوة من غيرهم من أطفال العالم المسيحي، إذ إنهم يأخذون ككل الأطفال في شتى أنحاء العالم هدايا "بابا نويل"، ولكنهم يتفوقون على غيرهم بأنهم يضمون إليها هدايا "بابا نيكولا" المولود في القرن الرابع بعد المسيح عليه السلام، وله أسطورة في أذهان صغار أمستردام، تتلخص في أنه يمتطي حصانه الأبيض مساء ثالث سبت من شهر نوفمبر، فيمر من على أسطح المنازل، ليلقي من فوهات مداخن المدافئ هداياه الجميلة للصغار، تماماً كما يفعل "بابا نويل"!

وعندما تدخل حي "جوردان".. الذي يزيد عمره على أربعة قرون يدهمك الضوء الرمادي الذي ينبعث من شوارعه الضيقة، ومن شبابيكه، وأبواب حوانيته، ومقاهيه الصغيرة، ربما استبد بك شعور غريب، فحسبت أنك لا تفعل أكثر من استعادة قراءة إحدى القصائد الموحية في ديوان شعري قديم لم تنخذل فيه الروح. وفي هذا الحي أيضاً أنت على موعد مع الفرح والموسيقى والغناء.. في كل ركن.. في كل زاوية.. والناس هنا يقولون إنه حتى إلى ما قبل خمسين عاماً فقط، كان نساء هذا الحي ينزلن إلى الشارع يرقصن في "تنوراتهن" الخشنة حول الأرغن

البربري.. ومعهم رجال الحي أيضاً بشالاتهم الحمر وأحذيتهم المخملية..

أجل.. كل شيء في أمستردام يغني، ويرقص، ويزرع الفرح في قلوب المقيمين والعابرين.

وإذا كان كل ما تقدم يعطي صورة ما عن نشوة هذه المدينة وحيويتها، فإنه بالمناسبة يتيح الفرصة للتأكيد على دور أمستردام الثقافي والفني في أوربا والعالم.. فهذه المدينة، إلى جانب باريس ولندن وروما، تعدُّ مركزاً ثقافياً فنياً عالمياً، فأكثر فناني العالم وشعرائه وكتابه يجدون فيها ملاذاً وملجأ، ويجعلون منها لهم مقاماً ومستقرا وحي "جوردان" نفسه سكنه ويسكنه عدد كبير من الرسامين والنحاتين، والكتاب، والشعراء، من شتى أقطار الأرض.

انقياد هؤلاء الفنانين إلى هذه المدينة لا يعود فقط إلى شاعريتها وجمالها وسحرها، أو إلى مجرد احتفالها بصناعة الخيال، بل إن مَرَدَّ ذلك، فوق كل شيء، إلى أن أمستردام عرفت ومنذ زمن بعيد بأنها المدينة "الصعبة"، لتحررها ومروقها وتمردها على القوانين والحدود التي التقت حولها مدن أخرى لا تقل توثباً وتحفزاً عن

أمستردام إن لم تتفوق عليها، تبدو امستردام إنها مدينة بلا حيطان، وبلا أسقف، وهي لا تعترف بكاميرات المراقبة، أو أجراس الإنذار، ولا تقبل بتدخل البوليس، وترفض تماماً تطفّل"حراس الفضيلة" أما الفنانون عموماً فيعتقدون أن أمستردام توفر لهم الفضاء الأرحب من الحرية من بين جميع مدن العالم. وهي تذهب بعيداً في توسيع "فضاء حريتها" ورفع سقفه، إلى درجة أن المخدرات تتناول في شوارعها ومقاهيها كما يتناول الشاي أو القهوة، وربما لهذا السبب يحتشد في هذه المدينة العدد الأوفر من "حشاشي" العالم.

إن وجود أحد رجال البوليس في زيه الرسمي داخل مكان عام، قد يثير حنق كل الناس في امستردام.

وهذا "المناخ" هو الذي جعل من العاصمة الهولندية ملجأ "المجانين" من فنانين وشعراء ومفكرين وهو في الوقت ذاته الذي جعل منها موئلاً للشباب العاطل الضائع.

تلفت قليلاً حول الـ"دام" وسترى النصب التذكاري الوطني للهولنديين، سترى هؤلاء الشباب وهم يسندون رؤوسهم المثقلة بالحشيش، وبكل أنواع المخدرات، إلى

أعتاب هذا النصب طوال الليل، وطوال النهار، وبالذات في أيام الصيف.

هذه المدينة المزروعة في الماء لم يكن دورها الثقافي والفني هو المصدر الوحيد لأهميتها، فهناك دورها التجاري وإستراتيجيتها البحرية. ولا تنسوا أن الهولنديين كانوا يعرفون بـ"غيلان البحر" منذ أن أخذوا بمقود التجارة البحرية في بحر البالتيك والبحر المتوسط.. أي منذ القرن الخامس الميلادي وما بعده.. وعلى الرغم من أن أمستردام ليست سوى الميناء الثاني في هولندا "بعد روتردام أول الموانئ الهولندية، بل الأوربية على الإطلاق" إلا أن هذه المدينة هي التي تحتل بجسارة واجهة التاريخ، بصفتها مركز له أهمية عالمية في تجارة الشاي، والتبغ، والتوابل، والجواهر إلخ.. إلى جانب وجود بعض الصناعات المهمة مثل صناعة السفن، والمواد الغذائية والكيماوية والميكانيكية والإلكترونية.. وبرغم أن لاهاي هي العاصمة الإدارية، إذ تستأثر باحتضان جهاز الدولة، إلا أن أمستردام ظلت العاصمة السياسية التي ينافس بها الهولنديون النجوم والقمر.

أصبحت أمستردام اليوم، كما كانوا يريدون لها أن تكون، من أهم حلقات الإتصال في العالم.. ففي مطارها الحديث جداً اثنتان وثلاثون شركة طيران، تربط هولندا بمائة وعشر مدن في سبعين دولة مختلفة.. ومحطة القطار الرئيسية فيها ينطلق منها يومياً أربعون قطاراً دولياً، تربط أمستردام بمختلف المدن الأوربية الأخرى. سكانها لا يزيدون عن المليون، ومع هذا فهي تعاني من "أزمة سكن".. ربما كان لبيوتها الصغيرة جداً المتلاصقة بالآلاف، والتي لا يزيد البيت الواحد منها عن غرفتين أو ثلاث، تدخل في نشوء هذه الأزمة واستفحالها.. فكثير من أهل أمستردام يصرون على الإبقاء على الأحياء القديمة – كحي جوردان – وذلك لقيمتها التاريخية، ولكنهم لا يجدون حرجاً في أن تقام أحياء جديدة حديثة بعيداً عن معالم المدينة القديمة.. ففي جنوب أمستردام أقيم ما يسمى بـ"أمستردام الجديدة" وهناك من سكان العاصمة الهولندية من يتخذون من القوارب القديمة سكناً لهم داخل الماء. لا تستغرب أبداً إن وجدت على شاطئ النهر في الأحياء القديمة سفينة صغيرة، قد حولوها إلى "بيت" تسكنه عائلة بكاملها..

وبمناسبة القوارب القديمة، فهناك في إحدى نواحي المدينة سفينة كبيرة حولوها إلى "ملجأ" لحفظ القطط المتوحشة (ممنوع القتل!) فأمستردام معروفة بانتشار القطط.

عندما رأيت المعبد اليهودي البرتغالي المبني عام 1675م (منذ أربعة قرون) الذي مازال الهولنديون، أو بالأحرى اليهود في هولندا، يصرون على الإبقاء عليه رحت أستعيد بعض سطور التاريخ، فلليهود قصة طويلة مع هولندا، تبدأ منذ قرون طويلة، عندما تركوا أسبانيا والبرتغال وفرنسا، أو أنهم طردوا منها، وجاؤوا إلى أمستردام يحيونها بتجارتهم وبأموالهم، حتى جعلوا منها مركزاً تجارياً ضخماً، وميناء كبيراً لا يستهان به. وهذا يعني أن كثرتهم ليست السبب الوحيد في تعاطف الهولنديين معهم، ولكن، أهم من ذلك، ما قدموه للمدينة ولهولندا من انتعاش اقتصادي استطاعوا به ومن خلاله أن يثبتوا أقدامهم في البلاد. وأن يبيدوا أي امتعاض يمكن أن تقابل به هجرة اليهود الآخرين "الفقراء" القادمين من أوروبا الشرقية للإقامة في هولندا.

ولم تكن الناحية الاقتصادية هي كل شيء في خلق "الود" الهولندي لليهود، تذكروا قتلى الحرب العالمية الثانية، فلقد كان في أمستردام ثمانون ألف يهودي لم يعد منهم من معسكرات التجمع سوى ستة آلاف فقط، أما الآلاف الأربعة والسبعون الآخرون فقد قتلوا كلهم على أثر أعنف "إبادة" للجنس اليهودي. وهذا ما يجعل الرابع من مايو في التقليد الهولندي يكون يوم حداد وطني، ويكون ذكرى سنوية لمباركة أرواح هؤلاء القتلى. ففي هذا اليوم تقوم الملكة بوضع أكليل من الزهور عند أقدام النصب التذكاري الوطني الـ "دام"، وفي كل أقطار البلاد يقوم الهولنديون بـ"التزام الصمت" الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه، ولما لا يقل عن دقيقتين تحية لهؤلاء "الشهداء".

وقبل إسرائيل كانت تظهر صور التعاطف الهولندي اليهودي في أشكال مختلفة.. أهمها أنه في المدن الأوربية، كان هناك ما يسمى بـ"الغيتو" وهو اصطلاح يطلق على الحي "الإجباري" الذي يعيش فيه اليهود، بحيث تفرض عليهم فيه العزلة عن سكان المدينة الآخرين. في أمستردام الحال تختلف الحال، فليس فيها "غيتو" لليهود.

تظل أمستردام مدينة شيقة.. ليس لأنها جميلة فقط.. ولكن لأنها، زيادة على ذلك، مثيرة، وهي لا تخلو من المفارقات والمفاجئات.

سوق الورد.. أو "سنجل ماركت"، ليست سوى واحدة من الذكريات التي ستبقى محفورة في صدري لمدة ستطول..

وشارع "كالفرسترات" شارع التجارة و"العصاري" التي تغص بريقها ليس سوى نقطة واحدة في "دفتر" أنيق مكتوب بماء العين.

تركتها بعد إقامة ثمانية أيام مرت كأنها الطيف.. أو كأنها المفاجأة.

******

.. الهوى.. هل رأيتموه قط "يشهق!" وهو يشنق جلدة جبهته إلى أعلى..

.. الهوى.. هل رأيتموه قط يقضم أظافره.. وعيونه تنشدّ من بين حواجبه كأنها الخوف!.. أو كأنها الحيرة؟ إن الهوى هنا "يترقب!". أجل!.. يترقب أولئك الذين يمكن أن تسكن إلى صدورهم خصل الشعر الأسود، أو

الأشقر، في اطمئنان.. تلك الخصل التي تود أن تبقى كأعشاش العناكب تثيرها مخاتلات النسيم، وهي لا تخاف لأنها تسكن إلى "صدور" متوثبة وليس إلى أقفاص تهاوية وخاوية.

الهوى وجدته "يترقب في أمستردام!

انتبهوا!.. يبدو لي أن هذا "البدوى" سيقول كلاماً محظوراً.. سأضربه على أصابعه.. سأعرك أنفه حتى يحمر، وسأجبره أو أكرهه على أن يقول الكلام "اللائق" فقط!.. ثم إن عليه يقف واقفاً على رجليه عندما يتحدث عن الهوى.. والحب!

منذ أن دخلنا أمستردام أخذ يبشرني الصاحب الذي كان معي بأن الهوى في هذه المدينة "الدافئة" بصحة جيدة، فطلبت إليه فوراً أن يسكت؛ لأن ما يفسد الهوى هو الحديث "عنه".. أما أن نتحدث "إليه".. أن نصفعه.. أن نعضّه حتى يحمر خده.. فهذا كله يجوزه، الذي لا يجوز هو أن نحوله إلى درس، أو محاضرة، أو مزايدة.. وتأكدوا أن الذين يجيدون الحديث "عن" الحب هم عشاق فاشلون.. أما الذين يعرفون كيف

يتحدثون إلى الحب نفسه، فهؤلاء هم الذين يجب أن يجدوا من الخشية ما يستحقون..

هذا البدوي لا يريد أن يسكت.. ولا يريد أن يستقر في مكان.. كأنه كان يرى الحب "يشهق" للمرة الأولى.. قال لي وهو يدفع يدي عن وجهه، إذ أردت أن أصفعه!

- اسمع يا شيخ!.. هل ترى هذه العيون الشعلاوات.

قلت:

- أولاً الناس هنا يقولون "زرقاوات!" وليس "شعلاوات".. وثانياً أحذر على نفسك الخطر، فكل هذه العيون الزرقاوات مليئة بـ"الكمائن!".. وكل كمين أول ما يصيب منك الكبرياء، وغالباً ما يخيب ظن "الهوى" في الفرسان الملفعين بأثواب الحرية، المؤزرين بسيوف الذهب، أولئك الذين يجيئون إلى هنا بحماس، ولكنهم عندما يرحلون ينسون وراءهم قفافيزهم التي كانت تحمي كفوفهم "اللينة" من الغبار والصقيع! إنهم يتهاوون.. يبتذلون.. وبدل أن يتصدروا الصوالين في رحاب "عبله" وهم يدقون أنف كل التحديات التي تطرح في طريقهم، فإنهم يتحولون إلى طباخين ومنظفي

اصطبلات.. هل تريد أن تتحول إلى طباخ.. أو منظف اصطبلات يا وغد؟

قال وهو يدع يدي!.. يطلقها من يده!

- والله ماني داري!.. اصفعني بقوة لو سمحت!

فصفعته، ثم أخذت أقول له!

- إن الصفعة القادمة لن تكون بيدي!

يوم أن دخلنا أحد المربعات التي يبوح فيها دعاة الهوى بكل ما لديهم، فيتحولون إلى مهرجين وأطفال صغار تتلوث أيديهم وستراتهم البيضاء بالشوكالاته التي لا يعرفون كيف يأكلونها.. قال لي:

- هيه!.. شوف "أم الأحمر"

التفت إليه أشده من أذنه!

- أحمر في عينك يا حمار!.. ألم نتفق على أن تشاهد دون أن "تدهش" أو تتكلم؟

طلب إلي أن أصفعه ثانية.. ففعلت.. لم يلتفت إلينا أحد.. لقد أتعبني يومها.. لست أدري لماذا أخذت أؤكد له بأن الخجل في النساء مزية، تزيد في أنوثتهن، وتلهب مشاعر الرجال نحوهن.. أما الخجل في الرجال فهو آفة

تشبه الجبن.. وهو أول إنذارات الهزيمة، وأبرز مؤشرات خسران المعركة، فقلت له:

- يكذبون أولئك الذين يقولون إن النساء لا يحببن "الأجلاف".. إن أردت الصدق، فهن لا يحببن سوى الأجلاف، لأنهن يعلمن أن هؤلاء أكثر مضاءً من الرجال "الزبدة"، وهم أكثر إثارة للشوق من الرجال ذوي "التربية" الحسنة، المرأة ، في حقيقتها، لا تحب الرجال ذوي التربية الحسنة يا سيدي!.. المرأة يستفزها الرجل "المنشار" الذي يقطع في الذهاب وفي الإياب، والمرأة يثير فضولها الرجل "المتوحش" الذي ينكب على وجبته بأسنانه وبيديه الاثنتين معاً، ثم يشرب حتى يرتوي من فم الدلو أو القربة، أي من دون كؤوس زجاجية أو مناديل ناعمة.. يمسح يديه في الحائط بعد الأكل وقبل أن يذهب لينام!.. أين بوهيمية البدو فيك يا جبان؟ هل شاهدت مثل بوهيمية البدو؟!

كأني أثرت في هذا اللعين ضغينة القبيلة كلها وحقدها، فانتفض في مكانه، ثم طلب إلى أن أمد له خدي.. قلت..

- لماذا؟

قال:

- لأصفعك، وإلا فإنني سأحطم كل شيء في المكان.

أجبته:

- ولكن قبل ذلك.. هل فكرت في ماذا يمكن أن تقول عنك "أم الأحمر" لو فعلت ذلك في هذا الجمع من الناس؟

هذه هي الطريقة الأسلم التي وجدتها لأتلافى الصفعة.

عاد ينظر إلى "أم الأحمر" من جديد.. ولم ألبث أن أخذته بيده.. وخرجنا:

- وأم الأحمر يا شيخ؟

- في الشيطان!..

لم نتوقف إلا في ساحة "ليد سبلين".. كنا في طريقنا نحو "سينتيا هوتيل"، حيث كنا نحتل بطريقة مشروعة جداً غرفتين صغيرتين.. كنت أريد أن "أخفيه" عن الناس تلك الليلة، لعل الله يصلح من شأنه ما شاء.. ولكنه أوقفنا – كرهاً – في هذه الساحة المحشورة بالناس، وكان لابد أن "يغني" ليستريح.. حاولت أن أقتل

فيه هذه الرغبة، ولكنه أبى واستكبر، فارتقى أحد الكراسي الخشبية القديمة الملقاه أمام مقهى "هيت كافيه"، وأخذ ينشد من شعره:

سلام تسليم مع الريح مرسول
مرسول مع نور القمر في مساريه
ما هو لغيرك يا ريش العين مبذول
يا اللي يفز القلب لامر.. طاريه
يا اللي بعد فرقاه يومي كما الحول
وقلبي مضى ما لقى إللي يسليه
يا طول ليلي بعد فرقاه يا طول
ويا دمع عيني يجرح الخد يكويه
تركت قلبي في معاقلك مكبول
وأبكي لجسم حرقة البعد تطويه
ويسير في دربه على العرض والطول
وخطاه يم نهاية الدرب تدنيه

لم يكن يفكر أبداً في التوقف عن هذا الهذيان.. وكنت أجد صعوبة بالغة في اقناعه بضرورة السكوت.

أصر على أن ندخل – ليلتها – كل مقاهي الـ "ليدسبلين" كما لو كنا نبحث عن مفقود.. وفي هذه الساحة الكبيرة مقاهٍ كثيرة بهويات مختلفة، وبأحجام مختلفة، وبأمزجة مختلفة. وهي بحق الساحة الأكثر أُهولاً بالناس حتى ساعة متأخرة من الليل، فهي تعرف بأنها مكان التقاء الغرباء بأهل أمستردام.. وفيها يوجد أكبر مسارح المدينة "ستانس خاو برخ".. وبنايته لا يتعدى عمرها المائة عام!.. ولكن المسرح من حيث هو فن وثقافة تبدأ حكايته مع العاصمة الهولندية منذ عام 1617م (قبل حوالي أربعة قرون فقط!!) حيث أقيم أول مسارح المدينة: "كوستر أكاديمي"، باسم الدكتور صامويل كوستر، أحد أدباء القرن السابع عشر، وكانت هذه الأكاديمية معقلاً من معاقل العلوم والفنون الدرامية بالذات. وللشاعر "فوندل" كان مرتبطاً بهذه الأكاديمية وكان ريع الأكاديمية من إصداراتها وعروضها، يذهب لحساب دار الأيتام ودار العجزة بالمدينة.

بجانب المسرح "ستانسفاو برخ" على الساحة نفسها، يوجد أكبر مقهى – على الإطلاق – في

أمستردام، واسمه "أمريكان" وهو في الوقت نفسه مطعم وفندق.. كل أهل أمستردام يلتقون فيه، وعلى أرصفته الفسيحة وبالذات أيام الصيف.. والمقهى مدهش من حيث أناقته وطرازه.. شدني إليه أن أحد أركانه كان مخصصاً للقراءة، إذ تجد طاولة طويلة مضاءة بالأباجورات، وعليها كل ما تريد من الصحف والمجلات،

وعلى ساحة الـ "ليد سبلين" نفسها مقهى آخر معروف حتى لكثير من الذين لم يزوروا أمستردام.. اسمه "رايندرس".. لا ينقصه إلا الفوانيس أو لمبات الغاز، ليكون فعلاً من مخلفات القرن التاسع عشر كما يقولون عنه.. وشبان أمستردام وفتياتها يسجلون حضوراً متواصلاً في هذا المقهى، الذي تشغل وسطه طاولة خضراء كبيرة محاطة بعدد من الكراسي، يجتمع حولها هؤلاء حتى لو لم يكن بينهم معرفة سابقة.. يتحدثون.. يتناقشون.. في الفن.. في الأدب.. في السياسة.. في الحياة.. في كل شيء.. والموسيقى محظورة هنا لئلا تعرقل سير المناقشات، ولئلا تضايق الزبائن الذين لا يجيئون هنا إلا من أجل الحديث فقط.

الذين يفضلون صوت الموسيقى على الكلام عليهم أن ينتقلوا إلى الرصيف الآخر على الساحة نفسها، حيث مقهى "هيت كافيه"، فهناك إذا أردت أن تتحدث إلى رفيقك، فلن يتسنى لك ذلك إلا باستخدام مكبرات صوت على درجة ليست هينة من القوة.. ستحول بينه وبين سماعك صرخات ميك جايغر، ودافيد بووي، والفيس بريسلي، وغيرهم.

لم يكن بيدي غير أن أرضخ! لرغبة صاحب السفر الذي سحبني إلى مقهى "هوبمان".. منتهى "الشياكة".. ومرتادوه كلهم من الرجال ذوي الجيوب الغليظة ومن حسناوات أمستردام اللاتي لا ينمن إلا في برك من الزئبق، ولا يتخذن وسائد إلا من خيبات أزواجهن.. ثم انطلقنا إلى مقهى "أيلد برس" الذي يضطلع من حين لآخر بتنفيذ مهمات فنية جيدة، كعرض بعض أعمال مرتادي أمستردام من الرسامين وغيرهم.. ثم إلى مقهى "أود خاو برخ"، وهو مقصور عادة على الرجال فقط، حيث لا يرتاده إلا المفتونون بالشطرنج.. وأما النساء عموماً فلا يحببن هذه اللعبة.

دخلت مقاهي أخرى كثيرة تلك الليلة.. نسيت أسماءها الآن، فساحة "ليدسيلين" ساحة مخيفة بناسها، وكثرة مقاهيها، ومطاعمها، وملاهيها، ونواديها الليلية.. وهي ليست الدائرة الوحيدة الحية في هذه المدينة النشوى، ولكنها أكثر مناطق المدينة بهجة واحتفالاً بالليل.. وهي أيضاً أكثر المناطق أهولاً بالشباب.. فإلى جانب أنها المكان الذي يرتاده في أغلب الأحيان شباب أمستردام نفسها، تستطيع أن تلتقي أيضاً بشباب آخر من مختلف أقطار الدنيا.. بعضهم مقيمون.. وبعضهم جاؤوا ينشدون السفر.. وأحياناً الضياع.. إلا أن للعاصمة الهولندية مذاقاً خاصاً وهوية خاصة، فحتى صغرها، بالنسبة للعواصم الأوربية الكبيرة الأخرى، فهو ينشئ في نفس الوافد إليها مناخاً محبباً من الاستكانة واللطف.. ويخيل إليك في أغلب الأحيان أنك لست في مدينة تقاسم المدن الأوربية الأخرى همومها ومشاكلها.. بل لقد تحسب أنك في ناد كبير عامر بالحيوية ونسيان المشكلات.. كأنها لم تعان أي صعوبات من حظر البترول في السبعينات.. وكأن فضيحة "لوكهيد" ليست إحدى

فضائح أميرها برنارد.. وكأن فضيحة رشوة "داسو" صاحب طائرات الميراج الفرنسية أيام المنافسة مع الأمريكيين على صفقة التسليح الجوي لكل من بلجيكا وهولندا والدنمارك؛ ليست من فضائحها.

أما أهل أمستردام فيعرفون أن مدينتهم ليست لهم وحدهم.. بل هي لكل الناس، ومن أي مكان.. فالهولنديون يتكلمون – إلى جانب لغتهم الأصلية – الإنجليزية.. وأكثرهم يتكلمون الألمانية أيضاً.. ثم الفرنسية.. ثم الإيطالية والأسبانية.. وفي معاملتهم للغرباء أريحية، وعلى الرغم من أنها متواضعة إلى حد ما، إلا أن أمستردام تتفوق بها على قريناتها من المدن الأخرى التي يكثر فيها الأجانب والسياح، والتي غالباً ما تجد عند أهلها نوعا من "الانقباض" والنفور كأمر طبيعي إلى حد ما، يتولد من ضيق الإنسان المواطن بالإنسان الوافد.. وهذا الضيق يعود غالباً لعدم قدرة هذا الأخير على التخلق بأخلاق الأول وطباعه. وهذا وحده أمر يكفل درجة جيدة من الفرقة واتساع الهوة.. لأن عدم التكيف هذا، قد يفسر على أنه ضعف ودونية.. أو احتجاج واحتقار واستعلاء.. وفي كل هذه الحالات

الإنسان المواطن لا يقوى على إقامة مستويات حارة من الألفة مع الإنسان السائح أو الغريب.

جنون ساحة الـ"ليدسبلين" وغيرها في أمستردام، لم يكن الباعث الوحيد للحيوية في روح هذه المدينة الملتهبة.. فهناك أيضاً الشوارع الصغيرة.. والجسور والقنوات المائية..

وبالمناسبة أمستردام مدينة مزروعة في الماء.. فهي عبارة عن أكثر من مائة جزيرة صغيرة، يربطها ببعضها أكثر من مائة قناة، وأكثر من ألف جسر.. وكل شوارعها صغيرة، تعبث فيها مياه نهر "ستل" بألوان محببة من الأمواج الودودة الجسورة.

هذه الشوارع.. وهذه الجسور والقنوات المائية، كانت تبعث في نفسي ذكرى سيئة لن أنساها ما عشت، هي "فينسيا" أو البندقية في إيطاليا.. ولعل الناس يحسنون عندما يدعون أمستردام أحياناً: "فينسيا الشمال"، القوارب الصغيرة والبيوت المغروسة في الماء.. كل هذه الأشياء أوشكت أن تخلق مني شاعراً..

الـذي يميـز العاصـمة الهولنديـة عـن فينسـيا، هـو طرازهـا العمرانـي الموحـد المميـز، وخاصـة فـي القسـم القديم من المدينة.. وبناية مثل بناية "مـاريوت هوتيـل"، تخرج على ذوق هذه المدينة الخاص.. وبيت عرضه متر واحـد فقـط، ومـن عـدة طوابـق، والواجهـة كلهـا يشـغلها البـاب الـذي تـأتي فوقـه النوافـذ الواحـدة بعـد الأخـرى، بحسب عدد الطوابق؛ أمر قد لا تصدقونه مع أنه موجود فعلاً في أمستردام.

صـحيح أن الإنشـاءات العمرانيـة القديمـة فـي هـذه المدينة قد تأثرت تأثراً مباشراً بطراز القرن الثامن عشر الفرنسـي الكلاسـيكي ولكنهـا مـع ذلـك انفـردت بشخصـية مميزة قد لا نجدها في فرنسا نفسها.. هذا شعور كاتب، وليست معاينة مهندس معماري.

نسيت أن أكمـل لكـم حكايـة "صـاحب السـفر" الـذي يصر على أن يغني بصوت مرتفع أمـام النـاس في شـوارع أمستردام.. لقد "حرن" يـا عبـاد اللـه علـى مـدخل شـارع "فوند لسترات"، ونحن نعود لننام بعد أن أنهكني مشياً "ومقارعة" تلك الليلة.. حرن وهو يقول:

- "فوندل" هذا الذي سموا الشارع باسمه ألم يكن – يوماً – وشماً بارزاً على خد الشّعر الهولندي؟؟

قلت:

- هذا ما يقوله الهولنديون.

قال:

- فلماذا لا تدعني بالمناسبة "أشعر!" أنا الآخر كما كان يفعل هو؟

ثم صاح:

قال المعنى تهيض خاطري يا زين ونساه.

يا زين ونسى حبيبي بعد ولعني الهموم.

يقوله يا غصون الموز يتمايل به جناه.

إلا استوى في بساتين تمايله النسوم

قبل أن يكمل وضعت يدي على فمه، إذ وقفت إحدى "الشعلاوات" إلى جانبنا تضحك.. لقد كانت تحسبه هذه اللعينة يشتمني.

قلب الأسطوانة فوراً. ثم أخذ يسكب في أذنيها العاريتين شعراً ناعماً بالإنجليزية.. فهو يجيد الإنجليزية كأهلها.. وأكثر..

هربت من البرد إلى داخل الفندق، بعد أن تركتهما على مدخل "فوند لسترات" في مساجلة شعرية سيطلع الصبح قبل أن تنتهي.

سمعتها تقول له وأنا أدير لهما ظهري:

- كنت أعرف أن البدو يعشقون.. ولكني لم أكن أعرف أنهم يجيدون نصب الشراك للفراش الملون حتى بالإنجليزية!

القبيح

لا.. لا تبالغوا.. فهذه ليست صورة شيطان، بل إنها صورة أحد أبنائه!..

هذه الأذن "المفرودة!" طولاً وعرضاً، كأنها "سنّة" محراث، هي أذنه..

وهذه العين المدفونة تحت طبقات غليظة من "اللحم" المنفوخ بالسهر، وبالخطيئة، وبالمخدرات، هي عينه!..

وهذا الفم المأكول بالتبغ وبالحشيش، وبالرذيلة، وباللغة المنحلة، هو فمه!..

هذا الأنف الذي يشبه حافر "حمار" هو أنفه!..

بينه وبين أبسط معاني "الاستقامة"، مثل ما بين النور والظلام من مسافة.

في السينما – فهو ممثل أيضاً – يأخذونه لأدوار القبح والإجرام، كما يأخذون "آلان دولن" للأدوار الدنجوانية والرجولية. هو معروف في العالم كله بأنه أقبح ممثل سينمائي.. مثلما أن "آلان دولن" معروف بأنه الأكثر وسامة بين رجال السينما!

اسمه: سيرج غانزبور.

أصله: يهودي.. روسي.

جنسيته: فرنسية.

نزعته: إسرائيلي صهيوني عنصري.

وضعه العائلي: على الرغم مما هو عليه من قبح، فهو زوج لإحدى النجمات السينمائية والغنائية الفاتنة، اسمها "جين بيركين".

غانزبور.. شهرته السينمائية محدودة إذا ما قيست بشهرته كشاعر وملحن.. ومغن!

أول ما جئت إلى فرنسا، وبدأت أفهم الفرنسية، أحببت موسيقاه، وكنت أجد في إشعاره موهبة ممتازة! لم أكن الوحيد في ذلك، فأكثر الذين يفهمون الفرنسية يقدرون فيه موهبتيه الشعرية والموسيقية الكبيرتين.. الفرنسيون خصوصاً، مع أنهم ينفرون منه، فهم يعدونه من أبرز الشعراء الغنائيين، وهم مأخوذون بإبداعه الفني، وقد تتبعته خطوة خطوة كل الأيام التي عشتها في باريس.. ومع أن "القاعدة" تدعو إلى عدم محاسبة الفنان على سلوكه الشخصي، إلا أنني أؤمن في الوقت نفسه بأن نتاج الفنان، هو جزء من ذاته وتصوره وطبعه.. جزء من أخلاقه وسلوكه وطويته. إعتقادي أكيد بأن نتاج الفنان هو الفنان نفسه.. وبأن الفن لا يمكن أن يخلو من رائحة صانعه، وإلاّ فإنه ليس فناً أصيلاً مصقولاً بصدق العاطفة، وإخلاص التفكير.

بعد أن تكشّف لي غانزبور.. أو قولوا بعد أن عرفت تدريجياً بأن رأسه الغليظة تنحشر بكل ما يمكن أن نتصور، وما لا نتصور من أنواع الرذيلة والإنحلال

والعدوانية، والفكر المريض، لم أهجره فنياً، وإنما استفزني لمتابعته أكثر من السابق، ولكني أخذت أتعامل معه بحذر!.. تماماً كما نتناول بعض الأدوية التي يكون بعض "السم" جزءاً من تركيبها الكيمائي.. إن اتبعنا فيها وصفة الطبيب بانتباه نجونا، وإن خاننا في تناولها "الحذر" فلا مفر من كتابة وصيتنا قبل أن نوكل رؤوسنا لأقرب وسادة من الطين الأبدي!..

أعترف بأنني من "مرضى" الأدب والموسيقى.. وبما أن هذا "المرض"، يعد من الأمراض المستعصية أجاركم الله! فقد كتب عليَّ أن ألتهم كل يوم كل ما يقع تحت يدي!..

من المرغوب فيه، بطبيعة الحال، أن أفتح عيني بانتباه أمام كل العقاقير المطروحة على طاولتي؛ لأميز، ما استطعت، السام منها وغير السام!.. إن تعاطي النوعين "شر" لابد منه للمصابين من أمثالي، ولكن لئلا ينحدر وضعي الصحي إلى حالة "تسمم"حقيقة، كان لا بد أن أكون حذراً جداً في التعامل مع النوع الأول.

غانزبور، في أكثر ما يكتب، يتضح تفكيره المريض، ويبدو حقده على الناس، وعلى أخلاق الناس، وتظهر إباحيته، ودعوته للرذيلة والإنحلال، والجنس المشاع!

هذا الشاعر لا عقلاني.. يؤمن بعدم جدوى التكفير، ويدعو إلى تعطيل القوى العقلية؛ لأنه ليس في حضارة الإنسان، واهتمامات الإنسان، ما يدعو لأن تكون "يقظاً".. ولهذا فهو يتعاطى ويدعو إلى تعاطي كل أنواع المخدرات.

إذا سألته: ما هي أهم أحداث الشهر بالنسبة لك؟!.. أجابك وسيجارة التبغ لا تغادر شفتيه المأكولتين: بالنسبة لي ليس هناك أحداث.. أنا لا أفكر!

ترد عليه السؤال: فيتنام.. ما رأيك فيما جرى هناك؟! يجيبك بتساؤل فاتر: هاه!.. وماذا كان يجري في فيتنام؟!

غانزبور عنصري، ويجاهر بذلك، ويعلن بوضوح بأنه لا يطيق رؤية "العرب"، وأنه كان "يحبهم" فقط يوم

كانوا مستعمرين، أما بعد أن تحرروا فإنه يكرههم، ولو بقوا مستعمرين، فإنه كان سيتمكن من زيارة كل دول الشرق.

غانزبور يهودي صهيوني يقول بأن تربيته فرنسية، ولا يفكر في الذهاب للعيش مع الإسرائيليين في فلسطين، ولكنه لا يستطيع أن يتجرد من أصوله اليهودية، ولا من صهيونيته، ولهذا فكلما اجتاحت إسرائيل أي كارثة، فإنه كالسهم "يهرع" إلى سفارتها في باريس لتقديم "شيك" يحمل مقداراً جيداً من المال، لا يحرك شيئاً في ثروته المترفة!

غانزبور إباحي متهتك.. كان له في بعض ما كتب من إشعار "بطلة" وهمية أو شخصية خيالية يسميها "مالودي نيلسون" حملها كل ما في حمأة الخطيئة والعهر والإنحلال من تهتك وانحراف، وقد استبدلها فيما بعد ببطلة أخرى هي "إيفا براون".

غانزبور يكره المجتمع.. ويعترف بأنه يكره الناس.. كل الناس.. يحب "المذابح"، ويقول بأنها تفرحه أينما

حلت.. يود أن يكون "إرهابياً".. يود أن يقتل، وأن يسفك دماء.. أي دماء.. وأمله الوحيد الذي يتمنى تحقيقه قبل أن يموت، هو تنفيذ عملية "هولد – آب" ناجحة.. بالسطو على أحد البنوك أو أحد متاجر المجوهرات في باريس!

رائحته النتنة تنتشر بوحشية في كل جنبات باريس، كأي عاصمة أوربية أخرى لم تسلم من "تفريخ" أقذر سيئة في التاريخ الإنساني.. أعني الصهيونية!

الفرنسيون يقدرون في غانزبور موهبته الشعرية والفنية، ولكنهم ينفرون منه ومن أخلاقه.. أنه يثير في نفوسهم درجة مرتفعة من "التقزز" والإشمئزاز.. إن في مجرد ذكره لبعضهم دعوة جادة للتقيوء والـ"بصق" كأوسخ خطايا إبليس على الأرض!

هذا لا يعني أن يدي غانزبور كانت فارغة من كل الأوراق الرابحة في أوروبا، فقد كان، مع الأسف، يفيد في استمراريته من الاستحواذ على قاعدة عريضة من الشباب المشرد الضائع، الذي ما نجا من لعبة الفسق والرذيلة

والإباحية.. شباب الحشيش والعيون الغليظة الحمراء في أمستردام، ولندن، واستكهولم، وباريس.

غانزبور كان يمدّ مخالبه إلى نوع فني آخر غير الشعر والموسيقى.. أعني الإخراج السينمائي.. وهو اتخذ هذا النوع الفني وسيلة أخرى لنشر "جرثومة" الفتك في كل مكان.

لقد زكم الدنيا بأوسخ ما يمكن أن يعرض على الشاشة الكبيرة.. كانت أفلامه محملة بكل ما تكتنز به نفسه من حقد.. وخطيئة.. وانحلال.

أخرج للناس "ألبوماً" من شعره وغنائه.. اسمه: Roch around: the bunker ، وقد استقبله الوسط الفني الباريسي بنقد لاذع، لم يكن أهون مما لاقاه الـ"الألبوم" الآخر الذي حمل عنوان:

Je suis venu te dire que je m'en vais

أي: جئت أقول لك بأني راحل. وبالمناسبة فأنا أذكر الآن أن غانزبور تعمد يومها أن "يزين!" غلاف هذا الـ"ألبوم" بصور كثيرة لأنواع مختلفة من القرود،

وبينها صورته هو.. كأنه يقول بذلك للناس: "أعرف بأنني قبيح!".

أجل فهو يعرف بأنه قبيح.. ويعرف أيضاً بأن السينما الفرنسية خصوصاً قد تلقفته منذ سنوات؛ لأنه كان الـ "أقبح!".. فالسينما كأداة تعبيرية، تبحث دائماً في تعبيرها عن الـ"أبلغ"، ليكون التأثير أبعد.. وليكون الوصول إلى الهدف "أقرب.." فتختار مما تحت يدها من ممثلين الأكثر وسامة، والأكثر قبحاً – حسب الأدوار – أما "الدارجون"، فحظهم فيها كحظ أبي لهب في الجنة!

هل نجد لهذه الحقيقة التي يدركها غانزبور نفسه تأثيراً نفسياً آخر في وحشيته، ونقمته على الناس، وعلى أخلاق الناس؟! هل نجد فيها أحد العوامل المهمة التي خلقت في نفسه الرغبة لتدمير كل شيء، وإحراق كل شيء!.. هل نجد في اعتراف غانزبور بهذه الحقيقة، وفي تأكيده عليها في كل مناسبة، نوعاً من التحدي للناس.. لكل الناس؟! هل نجد بالتالي فيما يمارسه من سحق لأعراف الناس نوعاً من الانتقام منهم؟ لأنهم يرتكبون في

حقه خطأين، الأول: أنهم ليسوا قبيحين مثله، والثاني: لأنهم يدركون بأنه قبيح!.. بل إنه الأشد قبحاً!

قد يكون لهذا أثر نفسي في "تسويد" باطن غانزبور، وبالتالي في إذكاء رغبته لهدم كل شيء..!

لكي أكون منصفاً أقول: إنه فنان!

ولكي أكون ناصحاً مخلصاً أقول: احذروه!

الوردة الذابلة!

استقبلها رسمياً، تكريماً لها، في قصر الإليزيه.. كانت ترتدي "بودريه" على الطريقة الألمانية!

ابتسم الجنرال شارل ديغول وهو ينظر إليها بإعجاب.. ثم قال لمن حوله، بعد أن حول نظره إليهم: "ما أروع هذا الجندي وما أجمله!"

إنها بريجيت باردو.

كان الجنرال يدرك تماماً بأن بريجيت باردو "المرأة" وأن باريس "المدينة" تمثلان منطقتين من مناطق "الفتنة" الدنيا!.. في كل الدنيا!..

كان يدرك بأن الناس حين يتكلمون في أنحاء المعمورة عن فرنسا فإنما يتكلمون عن باريس بكل ما تحمل من دواعي "الفتنة" والدهشة! والريادة الفكرية والفنية.. وهم إنما يتكلمون أيضاً عن إحدى "ظواهرها" التي صلبت عيون النساء والرجال في كل بلدان العالم على نظرة مأخوذة بالجمال.. والإثارة.. والتحدي! وهي أمور مجتمعة كلها في هذه الظاهرة التي تسمى: بريجيت باردو.

كان الجنرال يدرك بأن لباريس ولبريجيت نفوذين سحريين ساطعين يسيطران على مئات الملايين في العالم.. إلى درجة أن الناس كانوا يعتقدون بأن فرنسا هي: باريس وبريجيت باردو!!.. لهذا كرّم الجنرال بريجيت، واستقبلها رسمياً في الإليزيه، ولهذا كان اهتمامه بباريس فائقاً إلى درجة أن سكان المدن الفرنسية الأخرى كانوا يعدون ذلك مأخذاً على الجنرال..

باريس بقيت جميلة وفاتنة.. ولم ينسها العالم!

بريجيت.. لم تعد فاتنة.. والعالم لم ينسها، ولكنه انشغل عنها..

بريجيت.. في حوالي الثمانين من عمرها وهي الآن وحيدة من كل شيء.

انثنى وهج الشباب، وانطفأت وقدة الصبا، وانكسر عودها، ولهذا فر الناس من حولها، أو أنهم انشغلوا عنها!.

أصدقاؤها المقربون، والمفتونون بها في العشرينات من عمرها، بعضهم لووا أعناقهم عنها.. وبعضهم. بقوا إلى جانبها ولكن عواجيز مثلها، تشتعل رؤوسهم شيباً، وهم لم يعودوا يرضون بحال غرور المرأة التي كانت فتنة العالم!

بريجيت وحيدة!

فنانة على مستوى عالمي - مثلها - تجد يديها خاليتين من كل شيء هكذا دفعة واحدة: الشباب.. الجمال.. السينما.. المسرح.. الأصدقاء.. لم يبق من هذا الرصيد الذي بنته بتراثها الوافر من الجمال والذكاء والموهبة أي شيء سوى الذكرى.. الذكرى فقط!

هذه النهاية الصعبة لامرأة، كان كل ما حولها يطفح بالرغبة في الإبقاء عليها هو الصدمة الأعنف في طول حياتها وعرضها، وهي التي دفعتها إلى العزلة عن كل شيء.. فذهبت إلى هناك.. في إحدى نواحي "سان تروبيه" في جنوب فرنسا، مع خمس عشرة قطة.. وخمسة عشر كلباً! لا بل إن "سان تروبيه".. المدينة ذاتها.. إنما قامت في الأساس على اسم بريجيت باردو فأصبحت من المصائف المهمة في جنوب فرنسا.

فالمدينة تنمو حول المرأة التي شغلت العالم.

أجل!.. إمرأة كبرجيت ينضح قلبها بعواطف حادة منذ نشأتها، كان لا بد لها أن تعوض جمود الإنسان بوفاء الحيوان.. فاصطحبت معها عدداً من القطط والكلاب، ثم انبرت تهاجم كل من "يفتك" بالحيوانات أو يؤذيها، ولم يسلم من ذلك المسلمون الذين "يجعلون من أحد أعيادهم مذبحة للخراف!!"

في "ليل دو فرانس"، حيث تسكن بريجيت لا يرافقها في بقية العمر الذي بدأ ينحدر، سوى مجموعة

من الكلاب والقطط، تهبها كل ما يطفح به قلبها من حب.. ومن ثم فهي تكل إليها كل ما يعتلج في نفسها من حسرة، ومن خوف لا ينقطع من الشيخوخة.. الشيخوخة التي سرقت جمالها وأضعفت رغبتها في الحياة.

كانت، عندما داهمتها نذر الشيخوخة، تلجأ في الـ"ويك إند" إلى أسرتها (أبيها وأمها وأختها ميجانو)، لتقضي معهم نهاية الأسبوع في "يوفسين" بالقرب من باريس.. تماماً كأي طفلة في مدرسة داخلية كتب عليها أن تبقى بين الجدران الأربعة لـ"الفيللا" مع مجموعة حيوانات (قطط وكلاب)، إلى أن تحين الـ"ويك إند"، فتخرج في "فسحة" لترى الأهل!

عندما تعرفت بريجيت على جاكلين بانيول زوجة الكاتب الروائي والسينمائي والمسرحي المشهور مارسيل بانيول قالت لجاكلين: ليتني عرفت مارسيل قبل أن يموت، لقد كان رجلاً كبيراً، وربما كان يمكن أن يصبح لي صديقاً وفياً حتى مماته.

جاكلين حملت لبريجيت في عيد ميلادها هدية مجموعة كتب وروايات لمارسيل بانيول لتعيش صداقته ورفقته في مماته، بعد أن فاتها أن تظفر بهما في حياته.

لوي باردو.. أبوها.. من أسرة مترفة من أسر الحي السادس عشر في باريس، وعندما جاءته بريجيت ميلاداً حافلاً في عام 1934م لم يكن يتوقع أن ابنته، بجمالها ودلالها وموهبتها، ستشغل العالم كله. بريجيت نفسها كانت تريد أن تكون راقصة جيدة فقط، فأخذت تختلف إلى إحدى مدارس الرقص الباريسية، لكن الطموح الذي كانت تذكيه نظرات عيون الباريسيين نحوها، كان يدفعها إلى محاولات أخرى غير الرقص.. لقد بدأت تكتشف أن لها جسماً يمتلئ رشاقة، فجربت أن تكون "مانكان" عارضة أزياء، ثم فتاة غلاف لأشهر المجلات النسائية الباريسية، ولأشهر مجلات الموضة مثل مجلة "جاردان دي مود". وفي خلال أسابيع فقط بدأ الأمريكيون يصوبون عيونهم نحو باريس، حيث توجد بريجيت، إحدى "ظواهرها" النسائية المدهشة، جاءوا إليها لتصويرها، ولجعلها فتاة غلاف لأشهر مجلاتهم.

ومن هنا بدأت بريجيت تغزو قلوب رجال العالم، وتشحذ غيرة نسائه في كل مكان.

كانت بعض مسارح "سان جرمان دي بريه" والشانزليزيه في باريس مواطن خطاها الأولى نحو الكوميديا.

جميلة. وفاتنة.. وممثلة صغيرة.. بريجيت كانت هكذا عندما التقت وجيه فاديم، الصحفي وكاتب الربيورتاجات في المجلة الشهيرة "باري ماتش".. أخذ فاديم على نفسه أن يبني له كياناً في السينما أيضاً.. وأخذ على نفسه كذلك بأن يقدم للسينما الفرنسية أثمن "هدية" يمكن لباريس أن تفاخر بها كل عواصم الدنيا المشحونة بالنساء، وقد كانت "الهدية" هي بريجيت ولا أحد سواها.. ولكن فاديم قبض مقابل الهدية مقدماً.. لقد "اختطف" قلب بريجيت التي ستصبح فيما بعد حلم المستحيل لكل الأزواج المحتملين. وضعت يدها في يد فاديم، وأعلنت زواجها منه في عام 1952م (كان عمرها

ثمانية عشر ربيعاً فقط) وكان روجيه فاديم أول زواجها، وكان أول من منحها دوراً كبيراً في فيلم مشهور اسمه: "وخلق الله المرأة".. خرج للناس في عام 1956م فأذهلهم!.. أذهلتهم بريجيت باردو!

بريجيت الراقصة وعارضة الأزياء وفتاة الغلاف.. أصبحت الآن نجمة سينمائية كبيرة ينهال الناس عليها بشغف، ليس في باريس فقط وإنما في كل مكان في العالم تعرض فيه أفلامها.. بدأ الناس يفهمون لماذا تمشي فتيات برلين، ونيويورك، ولندن، وطوكيو، وباريس، تحت لواء جديد من ألوية الرشاقة والجمال، هو لواء بريجيت باردو. بدأوا يفهمون لماذا تحولت هذه "الكلبة البكيني اللامعة"، إلى ظاهرة اجتماعية وسينمائية تشغل الخبِر الأكبر في أفئدة كل الناس في كل مكان.

حين ترتدي بريجيت حذاء "باليرينا" فكل بنات العواصم الكبيرة يفعلن كذلك! وحين تضع بريجيت جرابات طويلة، كل الجرابات الطويلة تنفذ سريعاً من الأسواق العالمية! أما تسريحة "ذيل الحصان" فقد

انتشرت في كل بلدان العالم لأن بريجيت كانت تسرح شعرها كذلك!

لوى الناس وجوهم عن أسلوب إليزابيت تايلور وجيلها في التمثيل، وأصبح هناك ما يسمى بـ"مدرسة" بريجيت باردو السينمائية.. أصبحت حركات نجوم السينما في أنحاء الدنيا ترمي في اتجاه باريس وفي اتجاه بريجيت.. كاد الناس أن ينسوا تايلور، إذ احتفظوا بصورها وبأفلامها في خزائنهم.. أما هذه الفاتنة الباريسية، فقد احتفظوا بصورها وبأفلامها في قلوبهم.

إذا أراد أحد أن يدخل السرور إلى قلب حبيبته، فإنه يحاول ألا يكون "تقليدياً"، فيبتعد عن وصفها بالقمر.. أو بالشمس.. أو بالنجمة.. أو بالنسمة.. بل يقول لها بخيال معاصر: "أنت كبريجيت باردو".

الناس يؤكدون اليوم لبريجيت باردو بأنها ستبقى نقطة بارزة في تاريخ السينما الفرنسية، ولكنها برغم ذلك تبكي.. وتخاف!!

كل ما بقي لها في مشوارها الأخير من حياتها عزاء وسلوى: الشمس.. والبحر.. ومجموعة من القطط والكلاب!

دراما باردوا

نهاية هادئة.. ولكنها كابية.

غنّوا لغير الحب

"مأساة الذين يعيشون الوحدة أنهم يحاولون إعداد أنفسهم لمعايشة الآخرين.. أنا هنا أعطي غمزة عين لمقولة جون بول سارتر "الجحيم هم الآخرون!"

"جحيم الذي يعيش الوحدة هو الآخر الذي يريد أن يفسد عليه وحدته!.. يريد أن يلغيها!.. وكل إنسان هو في الواقع وحيد، ولكنه لا يعلم، لأنه لا يستطيع أن يتحمل مضاعفات علمه بذلك. هذه هي كل مأساة المجتمع المعاصر!"

هذه الكلمات السابقة ليست لألبير كامو، ولا لأندريه لمالرو، ولا لأحد من الفلاسفة المتقدمين أو

المتأخرين. إنما هي لشاعر وفنان.. يغنّي.. واسمه: ليو فيريه.. فنان كبير، ومعروف، ومحبوب عند الفرنسيين.. وهو أيضاً شاعر وملحن ويقود أوركسترا. وقد جعلت كلمته هذه افتتاحاً لهذا الموضوع؛ لأن الشيء المهم الذي أردت أن ألج إلى الحديث عنه هو الأغنية الفرنسية أو الأوروبية، لمحاولة التعرف على المستوى العقلي والفكري والعاطفي عند رواد الأغنية في فرنسا.

في الشرق العربي المطرب أو المغني لا يجد وداً من الناس، إلا عندما يكون أداؤه جميلاً وجذاباً، ولأنه كذلك مطرب "عاطفي!" بالدرجة الأولى. وفي كل الأوساط لا يمكن إن نحتج بعقل المطرب ولا بفكره!. ولا أستطيع أن أستثني من هذه النتيجة إلا القليلين من مطربي العرب ومطرباته.

في الغرب.. المطرب يحبه الناس لأن أداءه جميل.. ولأنه يمكنهم أن يحتجوا بعقله وفكره. وهم يستطيعون أن يقرأوا ذلك في أغانيه وفيما يقدم من فن!.. يحبونه لأنه يحمل في رأسه أشياء غير أغنية الحب والشوق والهجر والوصل.. يصهر هذه الأشياء في عقله وقلبه، ثم

يفرغها في شكل أغنية.. ولهذا كثيراً ما تأتي مثقلة بقضية أو قضايا تهمه هو أولاً.. وتهم الناس - أو كثيرين منهم - بعد ذلك. فعملية "خلق كلمات للحن جاهز" ليست السؤال عندهم.. وإنما السؤال: هو "إبداع لحن لكلمات جاهزة"، يتناسب معها ويهيئ لها الطقس المناسب في الأداء والتقبل. ربما يكون هذا هو أحد الأسباب في إن المطرب الغربي هو أحياناً ملحن، ومؤلف كلمات في الوقت نفسه.. فهو يصوغ "شاغره وأفكاره" شعراً.. ثم إنه يصوغ لها القالب الموسيقي المناسب كما يشعر به، وكما يحسه. وعلى هذا النحو يستطيع أن يقدم نفسه للناس كما يفكر.. وكما يشعر.. وكما يعبر عن تفكيره وشعوره.. فأغنيته هي شخصيته.. وهي ذاته المجردة.. كلمات ولحناً وأداءاً.. كأنه عندما يغنيها يقول للناس: "هذا أنا"، وللناس بعد ذلك أن يقبلوه كما هو، أو يرفضوه كما هو.

وفي فرنسا مثلاً المطرب يغني لـ"الحب".. ويغني لغيره من قضايا الإنسان.. فهو يفهم أن دور الأغنية ليس دغدغة العواطف الجنسية فقط.. وأما الجمهور فإن

مقياس جودة الأغنية عنده ليس موضوعها "الغرامي" وإنما هو جودة الفكرة التي تعبر عنها، سواء كانت غرامية أم غير غرامية..

خذوا مثلاً في فرنسا ليو فيريه، الذي قدمت لهذا الموضوع ببعض كلماته، وجورج براسانس، وهو المغني الذي يتمتع بشهرة وبشعبية لايرقى إليها أي مطرب آخر في فرنسا، حتى أنه عندما كان يغني في "بوبينو" في باريس، لا يجد أكثر الناس مقاعد للحجز.. إن أكثر أغاني هذا الرجل (جورج براسانس) سياسية واجتماعية. والأغنية السياسية تختلف كل الاختلاف عن الأناشيد الوطنية والحماسية. وهي فن غير مخدوم لدينا في البلاد العربية. شخصياً لا أعرف أي أغنية غرامية لبراسانس، مع أنني سمعت أكثر أغانيه، إن لم أقل كلها، وهو مع ذلك مطرب محبوب من كل الفئات في فرنسا، إلى جانب أنه شاعر وملحن..

خذوا مثلاً آخر جورج موستاكي، وهو كاتب وشاعر وملحن ومطرب.. صدر له كتاب اسمه "سؤال إلى الأغنية؟" أثار ضجة في الأوساط الأدبية والصحفية..

موستاكي هو الآخر يتمتع بشهرة في عالم الفن، وهي شهرة لا تقل عن شهرة براسانس.. وهو يغني الإنسان في تشرده وفي ماديته وفي مفارقات عصره.. وفي "الحب" أيضاً. إنه يغني الحب كأي "اهتمام" آخر من اهتمامات الإنسان المتعددة، فالمطرب لم يخلق ليغني "الحب" فقط..

خذوا مثلاً "أدمو" غنى حتى في الـ"اوتو ستوب".

خذوا أغاني كثيرة حققت شهرة واسعة في كل بلاد العالم، وترجمت إلى أكثر من لغة لتغنيّ بلحنها الأصلي نفسه للجماهير الأخرى، مع أنه ليس فيها "توجع" حبيب، ولا "هجر" حبيبه!.. أغنية "مامي بلو" وهي معروفة حتى في البلاد العربية، وقد ترجمت من الإنجليزية إلى الفرنسية والاسبانية والألمانية.. إلى غير ذلك من اللغات الأخرى.

"تعال" والمقصود هنا ليس حبيباً، وإنما أبوها الذي هجرها وهجر أمها، وهي للمغنية والممثلة السينمائية الفرنسية الشهيرة: ماري لافوريه.. وقد

ترجمت الأغنية إلى الإنجليزية، وغنتها في الإيطالية المغنية المعروفة داليدا.

"هذا أنت" ترجمت من الإنجليزية إلى الفرنسية، حيث غناها جورج موستاكي.

هذه أمثلة فقط.. لأغاني ترجمت؛ لأنها تحمل موضوعات إنسانية يمكن أن يتعاطف معها أكثر الناس في لغاتهم وأذواقهم الفنية المختلفة.

هذا ماذا يعني؟؟

هذا يعني أن هناك فنانين واعين لهم قضايا ومبادئ إنسانية واجتماعية تهمهم، وتختلج في نفوسهم، فيقدمونها لحناً طروباً.. يقدمونها إلى جمهور له قضايا ومبادئ إنسانية متعددة، ولابد أن تهتم بها "الأغنية"، وإلا فهي أغنية غبية.. إذ إن للأغنية "الذكية" دوراً آخر فوق التطريب وغناء "الحب".. فهي "أداة" تعبير فنية من وظائفها أن تعالج، في حدود إمكانياتها ومواصفاتها كأغنية، مشاكل الجماعة واهتمامات الإنسان. هكذا يفهمونها - مطربين وجمهوراً - ولهذا كان لها رسالة..

وكان لها هدف.. وكان لها دور في حياتهم.. وفي مواقفهم.

جلبير بيكو مطرب مشهور في فرنسا له أغنية غطت سمعتها أكثر بلدان العالم اسمها: "الهندي".. إنه لا يتغزل فيها طبعاً بأي "هندي".. وإنما هي أغنية إنسانية تتحدث عن مشكلة إنسانية.. هي مشكلة الهنود الحمر في أمريكا..

هنري سلفادور.. له أغنية لاقت رواجاً.. تغني اتفاقية السلام الفيتنامية التي عقدت في باريس. فضلاً عن الأغاني الأخرى التي عايشت هذه المشكلة السياسية والإنسانية منذ ولادتها..

أعطوني أغنية عربية واحدة أو مطرباً عربياً واحداً غنى هذه المأساة الإنسانية التي دامت سنوات طويلة أو أي مأساة أخرى مماثلة؟

سيرج ريجياني.. له أغنية اسمها "الذئاب"، وعلى عمرها الطويل فإنه لا يزال الناس يصفقون لها.. وهو لا يتغزل فيها بأي "ذئب" وإنما يغني مشكلة تاريخية فرنسية أهرقت من أجلها فرنسا دماءً كثيرة.

مطربونا – أكثرهم – معزولون عنا.. وعن قضايانا، وعن قضايا الإنسان عموماً، لسببين:

أولاً: لأنهم لا يرون فينا إلا ذلك الجمهور السادر الذي لا يصفق إلاّ لأغنية العشق، فلابد أن يتجاوبوا مع هذه الرغبة فينا، وإلا فإن الحظ لن يحالفهم بالنجاح. وثانياً: أنهم لا يقرأون، ولا يدرون إلى أين يقبل هذا العالم أو إلى أين يدبر. وهذا ليس أشد نكراً من جهلهم المطبق بتاريخهم، وبما يدور في أوطانهم ومجتمعاتهم؛ ولذا فهم لا يستطيعون أن يغنوا قضايا أخرى مهمة؛ لأنهم لا يتعاطفون معها فهم يجهلونها.

ما رأيكم لو ذكرت لكم، إلى جانب المغنين الواعين الذين سبق ذكرهم، مغنياً آخر مشهوراً في فرنسا وهو رئيس تحرير جريدة تصدر في باريس. ففي المساء يلبس بدلة المنصة "المزركشة" وفي النهار بدلة رئيس التحرير الوقورة. اسمه كلود فرانسوا. وهو مَنْ لحن الأغنية الشهيرة جداً "ماي واي My way" التي صدع بها عدد كبير من مطربي العالم وفي مقدمتهم الأمريكي الشهير فرانك سناترا.

.. سألت أصدقاء فرنسيين هذا السؤال: ما هي الموسيقى بالنسبة إليك؟ فلم أعجب عندما جاء جوابهم مختصراً هكذا: الموسيقى هي الحياة .. لم أعجب حتى لالتقائهم في حرفية الجواب. لم أعجب لمفهومهم هذا للموسيقى وكنت أدرك بأنه لابد أن يأتي جوابهم على هذه الشاكلة.. وأما إن جاء على غيرها فهو "مغلوط".

رجل القرية عندنا يزين بيته بسلاحه.. بالسيف .. أو الخنجر .. أو البندقية.. يضعها في واجهة مجلس الرجال عنواناً لرجولته وشدة بأسه.. والرجل الأوروبي ، وربما الفرنسي خصوصاً، يزين بيته ومجلسه بـ"البيانو" عنواناً لذوقه وإحساسه. رجل القرية عندنا ينافس أقرانه في اقتناء "السلاح" الأكثر مضاءً وقوة، والرجل الفرنسي يختار لبيته أجود آلات البيانو، وأكبرها وأغلاها ثمناً بالنظر إلى متوسط دخله. ووجه الشبه بينهما: سريان التقليد والموروث الاجتماعي والتاريخي. فـ"البيانو" والـ"أوكورديون" مثلاً يمثلان قاسماً في حياة الأسرة الفرنسية منذ عهود بعيدة مثل "السلاح" بالنسبة للأسرة القروية عندنا..

في المقهى تخالج قلوب الناس ألوان خافتة أو حتى صاخبة من الموسيقى، في المطعم تتسابق الأنغام، كما يتسابق خرير الماء في الجدول. والشارع الآهل بالناس تغمره الموسيقى .. على "الرصيف" .. على واجهة مقهى أو متجر .. في أي مكان.. هناك دائماً شباب يعزف.. وشباب يغني ..

وعندما يدعوك أحدهم إلى منزله، فليس لـ "شرب الشاي" ولا للأكل غالباً، ولكن لـ "تسمع موسيقى" .. وعندما تستضيف أحدهم في منزلك، فقبل أن تسأله، ماذا يريد أن يشرب، يجب أن تسأله ماذا يريد أن "يسمع".. وأي نوع من الموسيقى يحب؟ ولهذا فلم أعجب عندما جاء جواب كل الذين سألتهم ما الموسيقى بالنسبة إليهم من الفرنسيين هكذا، وكأنهم فم فرد واحد: هي الحياة؟

هم يفهمون الموسيقى.. وفهمها ليس سهلاً.. ولهذا يدركون أنها ضرورة لحياتهم كالماء والهواء..

عندما "تحزن" ينصحونك بأن تسمع موسيقى.. وعندما "تفرح" ينصحونك بأن تسمع موسيقى.. "روشته" جاهزة لكل الأمراض والعلل..

لن تندهش أبداً عندما ترى شيخاً مسناً أو امرأة مسنة تتمايل في تثاقل .. يشارك أو تشارك في رقصة.. فالموسيقى هي مشاعر الكبار والصغار مجسدة في نغم.

هذا الدور الذي تؤديه الموسيقى ينعكس حباً وشغفاً وإكباراً للمغني أو العازف – أي مغن وأي عازف – حتى أنني كنت أقول أحياناً ممازحاً بعض الأصدقاء: لو علقت "قيثارا" في رقبة "حمار" ثم تركته يجول في سان ميشيل أو مونبرناس، لأخذه الجمهور بالأحضان، فهو "فنان".. ويحب الموسيقى ويصنعها، ويشعر بها، ويبذل وقته – أو بعضه – من أجلها.

وبين هذا الصخب الموسيقى الذي يعمر باريس، والآخر القادم من كل أنحاء العالم، الأغنية الفرنسية تقف في الدرجة الثانية بعد الإنجليزية، وذلك لسعة انتشار اللغة الإنجليزية. أما من حيث القيمة الفنية، فهما تقفان على قدم المساواة، إن لم تتفوق الفرنسية بعذوبة التعبير ورقة النغمة، حتى أنه معروف أن الأغنية الإنجليزية للرقص أفضل، والفرنسية للاستماع أرق وأعذب.

أنت تذكر "جاك بريل" وتجوله في فضاء الموسيقى لهفة وشوقاً، فقد اعتزل الغناء فيما بعد وتفرغ للسينما، فهو ممثل كبير في الوقت نفسه. كذلك الحال عندما نذكر "الشوارب الغليظة" لجورج براسانس، أو "اللحية" الكثّة لجورج موستاكي، أو "الصلعة" الوافرة ليو فيريه أو غيرهم.. ولكن أكثر مغنيي فرنسا غزوا للخارج هم: جوني هوليدي .. وميراي ماتيو.. وجاكلين فرانسوا.. فالأول لأنه يحاول أن يقلد المغنين الأمريكيين والإنجليز في طريقه الأداء، وخاصة جيمس براون، وراي تشارلز، وآخرين من مُغَنِّي "روك ان رول" هذا بالإضافة إلى أنه يغني بعض أغانيه في الإنجليزية، وأما الثانية وهي (ماتيو) فلأن رحلاتها للخارج كثيرة وخاصة لانجلترا، وهي تغني أحياناً بالإنجليزية. أما الثالثة (جاكلين فرانسوا) فلأنها تغني دائماً خارج فرنسا، في أكثر بلدان العالم، وهي لهذا تكاد تكون مغمورة داخل فرنسا..

الأغنية الفرنسية تتمتع عالمياً بنكهة خاصة. بلذة روحية، إلى جانب أنها أغنية مثقفة واعية. وهي لأنها كذلك فقد كانت الإغراء لكثير من مغني العالم، تثير في

نفوسهم الشهوة لغزوها واحتلال مقاعد، صغيرة أو كبيرة، في سوق عرضها واستهلاكها، كالسينما الفرنسية وما يفعله فيها بعض الممثلين الأجانب تماماً، فكان هناك غزوات ناجحة حققت انتصارات جيدة لأصحابها.

خذوا - مثلاً- غزوات إيطالية تقودها بنجاح "داليدا" و"هيربير باغاني" وقد حققا في الأغنية الفرنسية نجاحاً لم يحققاه في الأغنية الإيطالية.

خذوا - مثلاً- غزوات يونانية يقف في مقدمتها جورج موستاكي نفسه.. وهو لم يُعرف إلا بالأغنية الفرنسية، حتى أنه أصبح من أبرز واجهاتها محلياً وخارجياً.. بل إن الناس ينسون دائماً أنه إغريقي. وتشاركه في ذلك الفنانة القديرة نانا موسكوري.

خذوا - مثلاً- غزوات إسرائيلية .. فهنا مغنية إسرائيلية اسمها ريكازرائي .. فكل أغانيها في الفرنسية حققت نجاحاً جعل كل الناس يرددون اسمها وأغانيها بإعجاب وفتنة.

خذوا - مثلاً- من الإنجليز بينولا كلارك .. وهناك غازون آخرون أمريكيون وأسبانيون، لا يهمكم أن أعددهم

هنا، فقد يهمنا فقط أن نعرف أين تقع الأغنية الفرنسية في "خريطة" العالم..

يشكو جورج موستاكي باريس، المدينة التي لا تشبع، في كتابه "سؤال إلى الأغنية" فيقول: "يخرج كل يوم عشرات الأغاني. وهناك كل أسبوع مغنٍ جديد، وهناك أكثر من مائة ألف أغنية تخرج في كل سنة في فرنسا، وهذا يتساوى مع الإنتاج الأنجلو – أمريكي كله".. فبين ما يقرب من ستين مطرباً جديداً كل عام، لابد من وجود "أرقام" خاسرة، وهي ليست قليلة.. وبين مائة ألف أغنية كل عام، لابد من وجود "أرقام" خاسرة أيضاً، وهي بالتأكيد كثيرة.. وموستاكي نفسه يقول "بين كل مائة أغنية جديدة هناك أغنيتان فقط ناجحتان تمونان الثماني والتسعين أغنية الفاشلة الأغنية عمرها أقصر من عمر فستان المرأة.. والطريق إلى الموت يقصر من يوم لآخر".

هذه الأرقام الكبيرة في سوق الأغنية الفرنسية تدفع الكثير من المطربين إلى محاولة الإبداع والتفوق في المادة .. مادة الأغنية .. وفي الوسيلة .. وسيلة عرضها

.. ولعل من أهم الظواهر التي بدأت تلفت النظر في مجال إبداع الوسيلة، أن بعض مطربي فرنسا بدأ يتجه إلى الأغنية "المزدوجة" أو الثنائية .. أو إلى الأغنية الجماعية فظاهرة الأغنية الثنائية في فرنسا ليست جديدة.. إذْ يرد في أذهان الناس أول ما يرد، عندما يذكرون الأغنية الثنائية، "أريك شاردن واستون"، وهما زوجان ويغنيان معاً منذ سنوات طويلة.. ولهما أغنية مشهورة اسمها "المغامرة".. ولقد ازداد إقبال المطربين على هذا اللون من الغناء.. فمثلاً.. "شيلا" وزوجها "رنغو"، أصبحا يقدمان أغانيَ ثنائية.. وجوني هوليدي وسيلفي فارتان، وهما أيضاً يتمتعان بشهرة واسعة داخل فرنسا وخارجها، وهما زوجان كذلك، كانا يغنيان منفردين، وكان لكل منهما لونه المميز.

عرفت فرنسا ظاهرة الأغنية الجماعية منذ سنوات فهذه فرقة "الإخوان جاك"، والمكونة من أربعة مطربين وهم لا يغنون إلا سويا.. وقد ظهر أكثر من فرقة جماعية، أهمها وأشهرها –مثلاً- فرقة "لي شارلو" وهي مكونة من أربعة مغنين أيضاً.

تصوروا .. لو أن المائة ألف أغنية التي تنتج في باريس كل سنة كانت كلها عن "الحب" فقط.. أي كأغانينا العربية.. ماذا كان سيحدث.. أجزم بأنه لو حدث هذا لأصبح "الحب" عندنا شيئاً يبعث على الغثيان.. وإن كان قد بدأ البعض فعلاً يلوون وجوههم نحو الحائط، لأنهم بهذا يستطيعون أن يتأكدوا بأنهم لا يرون شيئاً .. وهذا هو المدهش.

هاتوا السلاح

كثيرون هم الذين يخطئون التقدير، فيظنون أن وراء موجة الإرهاب التي تجتاح العالم اليوم شيئاً يدعى: التمييز الطبقي. فالذي يؤكده بعض المثقفين، هو أن "التناقض" يحسم فعلياً أي اصطدام. بينما "التشابه" هو الذي يولّد الالتقاء، ثم التنافس، وهذا التنافس هو الذي يوجد الصراع الذي، بالتالي، يكون الإرهاب أحد مظاهره.. أو إحدى وسائله في التعبير عن نفسه، وفي تقرير البقاء.

لما توافر لإنسان المجتمعات الصناعية المتطورة السبيل الأمثل للتساوي في حيازة الإمكانات الفكرية والعقلية، كان لا بد أن يقوم، على الرغم منه، بتنظيم

النوع الأكثر وقاحة في التصفيات الجسدية التي عرفها التاريخ البشري حتى الآن!

وفضلاً عن النظر إلى الإرهاب الفردي الذي يقوم به بعض المجرمين الهواة أو المحترفين من سرقة، وسطو، وقتل؛ من أجل تحقيق أغراض شخصية صرفة، كالشهرة، والثراء وغيرهما، فهناك الإرهاب "النضالي" المنظم الذي يقوض كل عوامل هدوء إنسان اليوم واستقراره!

الإرهاب الفردي يأخذ مستوى الإرهاب النضالي نفسه، وعياً وتنظيماً وتكتيكاً، ولكن الفرق هو أنه ليس لهذا الأول دوافع "مثالية" فكرية أو سياسية، كما هو الحال بالنسبة إلى الثاني.. فدوافعه عموماً هي خلاصة "إيجابية" لـ "العقد" المعروفة لدى الفرد المعاصر، داخل خلية اجتماعية قانونها "الندرة".

وحين نلقي نظرة "بانورامية" على النشاط الإرهابي بنوعيه الفردي والنضالي، نجد أن إنسان القرن الماضي (العشرين) كان يكابد من الخوف والقلق درجة لم يسمع عنها من قبل.. حتى كأن طوباوية العصر الصناعي التي بشره بها عدد من فلاسفة القرن قد تحولت، بسوء

تقدير، إلى جحيم لا ينذر إلاّ بالدمار.. وإلا بالنهاية المأساوية لكل منجزاته الفاتنة!

في كل ساعة وفي كل لحظة، نحن مدعوون إلى معاينة مشهد دموي إرهابي، وبالذات في الدول الأكثر تقدماً.. كدول أوروبا الغربية.. حتى لقد تحول مثل هذا المشهد إلى فعل عادي يتكرر في اليوم الواحد غير مرة.. وحتى أصبحت صحف الجرائم والفضائح تنتقي بأناة وبيسر موادها التي تحرص أن تكون دائماً مثيرة.. وهذا ما يضعها في بعض الأحيان في حرج بالغ؛ لأن جريمة القتل في ذاتها، لم تعد هي المثيرة.. ولأن عمليات السطو المسلح في ذاتها لم تعد هي الأخرى المثيرة.. ولذا كان لا بد من البحث في الوسيلة.. في البرنامج.. وفي التكتيك الذي تنفذ به العملية.. فهو وحده الذي قد يكون مصدر الإثارة.

دعونا من الإرهاب الفردي الذي نشأ من أجل القضاء عليه ما يسمى بالقانون الجنائي.. وتعالوا نتحدث عما هو أشد خطورة، وهو الإرهاب المنظم الذي يستهدف "التركيب" الاجتماعي بكامله.

فـي هـذا اللـون هنـاك تنظيمـات فلسـفتها حـرب الطبقـات.. وتنظيمـات أخـرى فلسـفتها التحريـر أو الاسـتقلال أو الانفصـال! ومـن الأولـى الجيـوش الحمـر: الألماني، والأسباني، والياباني.. ومن الثانية ما يتوزع في أجزاء مختلفة من العالم، مثل جيوش التحرير الإيرلندية والأريترية والباسكية.. وجيوش أخرى في أفريقيا وأمريكا اللاتينية!

التنظيمات التي تعتمد حرب الطبقات هي تنظيمات، إرهابيـة أيدلوجيـة، وهـي فـي الغالـب يسـارية متطرفـة.. والتنظيمات التحريرية أو الانفصالية، هي مؤسسات تتخذ من الكفاح المسلح وسيلة لتحقيق غايات قومية أو وطنية صرفة. ولا يهمنا الآن البحث في حيفها أو في عدالتها!.. وإنمـا المهـم أن ميـزة كـل منهمـا "التنظـيم"، والتسـلح، والتضـحية، وإلا فكيـف يمكـن تفسـير عمليـة الكاميكـاز الياباني "موسو ياسو ما يرو" عندما ألقي بنفسه مع طائرتـه علـى منـزل السياسـي اليمينـي المتطـرف كوداما، الـذي أتهـم بقبـول الرشـوة فـي قضـية لوكهيـد؟! وكيـف يمكـن فهـم ملابسـات انتحـار "أولـديك مـاينهوف" فـي

زنزانتها عام 1976م، وكذلك زميلتها "غودرين انسلين"، وكلتاهما كانتا تتمكنان من قلب "اندرياس بادرمايهوف"، زعيم الجيش الأحمر الألماني المشهور؟!

مما يلفت النظر مسألة التنظيم بين هذه التنظيمات الإرهابية، والعلاقة والتفاهم المتوطدين بينها.. فعندما اعتقل بادر ماينهوف في أواخر عام 1977م، وجدت معه رسالة بالشيفرة تبين أن فيها معلومات عن اختطاف الزعيم الإيطالي الدومورو.. ولكن فك رموز هذه الشيفرة لم يتم إلا قبل اختطاف رئيس الحزب الديمقراطي المسيحي الإيطالي بأسبوعين فقط.. كما أن الألوية الحمراء الإيطالية تؤكد دائماً على ارتباطها بـ "الخلايا المسلحة للإنتماء الشعبي"، وهي منظمة إرهابية أخرى في فرنسا.

ومسألة التعاون والتنسيق بين حركات التحرير أو الانفصال في شتى أنحاء العالم، أمر لا يحتاج إلى التوقف عنده طويلاً، فعملية مطار (اللد) واشتراك عناصر من الجيش الأحمر الياباني فيها لاتزال عالقة بالأذهان.. لكن لعمليات مثل هذه مبررات وطنية وقومية، كما ذكرنا

سابقاً، وهي قد تتوقف بمجرد حيازة إجابات عادلة لهذه المطالب الوطنية. لكن ما الحيلة مع تنظيمات أيدلوجية يحلم أصحابها بتغيير البنى الاجتماعية والثقافية السائدة أو القائمة والذي يزيدها تعقيداً أنها مؤازرة أحياناً من جانبين: من جانب استخبارات دولية -تمويلاً وتنظيماً- وهي تفيد منها عندما تريد تصفية بعض السياسين في دولة ما.. وعندما تريد أيضاً أن تعمل على زعزعة نظام حكم في بلد ما. كما أنها مؤازرة من زعماء ورؤساء دول يعتقدون أن "التغيير" في جهات الدنيا الأربع عن طريق تموين هذه المنظمات هو تحقيق لجزء كبير من أهدافهم.

ولعبة الإرهاب الدولي لعبة مضحكة.. أو بالأصح لها جانب مضحك!.. فهي في بعض الدول خطر على النظام.. وهي في الوقت نفسه ضرورة له! فهي خطر على النظام من حيث إن هدفها هو تقويضه.. وهي ضرورة له، إذْ أنه هو الذي يثيرها ويدعمها أحياناً، وذلك لكي يعطي للجمهور صورة سيئة لـ"المنشقين"، فيخلق بهذا مبرراً لسحقهم وتدميرهم، ولرفع سقف قوانين وإجراءات القمع والنشاط البوليسي في البلاد.

الإرهابيون أنفسهم لهم استراتيجية ليست بعيدة عن استراتيجية النظام.. وهي تتمثل في إثارة الخوف، وتعميم الفزع، وإظهار عجز السلطة.. وقد تنجر السلطة إلى حبائل اللعبة، فتنشر رجال البوليس في كل مكان.. فترتفع درجة القمع.. فيضيق الناس بهذا النشاط البوليسي.. وبهذا يضمن الإرهابيون تعاطف المواطنين معهم وانضمامهم إليهم ضد السلطة!.. ولهذا فالألوية الحمراء في إيطاليا تردد هذا القول: "علينا أن نجبر الديموقراطية الزائفة في أوروبا على أن تتخلى عن أقنعتها.. وذلك عن طريق استفزازها كل مرة لتمارس القمع خوفاً على نفسها!"..

ولكن هذه الإستراتيجية لا تصدق في كل الأحيان، فالألوية الحمراء وجدت نفسها معزولة تماماً عن تأييد المنظمات الإرهابية الأخرى في عملية اختطاف الدومورو ومحاكمته وقتله.. لأن ما حدث لزعيم أكبر حزب أوروبي مبرر وجيه للسلطة بزيادة نشاطها البوليسي، والشعب الإيطالي والإنساني لا يمكن أن يكون إلا مع السلطة في مثل هذا الجرم! وللمرة الأولى اتخذت تجمعات اليسار المتطرف موقفاً مناقضاً لموقف الألوية الحمراء.. ليس

فـي إيطاليـا فقـط.. ولكـن فـي كـل أنحـاء أوروبـا.. المـاويون.. التروتيسكيون.. الفوضـويون.. اللامنتمـون.. كلهـم كـانوا ضـد إجـراءات الألويـة الحمـراء فيمـا يتعلـق بقضـية الـدومورو، وفلسـفتهم هـي أن مثـل هـذه العمليـة سـتؤدي إلـى تضـييق الحصـار علـى مجموعـات اليسـار المتطـرف، التـي تمـارس عملهـا السياسـي بشـكل علنـي!. كمـا أن العنـف المعـزول عـن الجمـاهير لا يـؤدي إلـى الثـورة.. "المطلـوب دفـع الطبقـات الكادحـة إلـى اعتمـاد العنف، وليس إعطاءها المثل!"

علـى هـذا المسـتوى يـتم التعامـل السياسـي اليـوم فـي جـزء مـن العـالم كـان يعتقـد أنـه باعـث النهضـة الحضـارية الإنسانية المعاصرة.. وكان يعتقد أنه "الوصي" على هذه الحضارة! وعلى المنجز الإنساني.

الاغتيـالات.. خطـف الطـائرات.. زرع المتفجـرات فـي المكاتـب والمؤسسـات الصناعية.. هـذه الأشـياء كلهـا مـن فبركـة المجتمعـات المتحضـرة، فالمنظمـات الإرهابيـة إنمـا تنشـأ أيضـاً فـي بيئتهـا وفـوق ترابهـا.. وقـد اعتـاد عليهـا النـاس كمـا اعتـادوا علـى أخـذ قطـار الصـباح نحـو مقـر العمل.. لم يعد أي شيء منها يثير فضولهم.. أو يحرك دهشتهم.

لقد نجح الغرب بشكل عجيب في إقناع نفسه بأن ما يحدث في العالم الثالث هو وحشية، وأن ما يحدث على أرضه إنما هو مجرد "سوء تصرف" في التدبير النضالي.. فهو لا يرى "الإرهاب" مضخماً إلاً في دول العالم الثالث، ولاسيما عند العرب والمسلمين.

هذا الغرب لا يتردد في حذف الفلسطيني من قوائم التعامل الإنساني لمجرد أن فلسطينياً اختطف طائرة ليوقظ الضمير الإنساني نحو قضيته.. ونحو تشرده.. وجوعه.. وضياع وطنه.. واستلاب هويته.. ولكن الغرب نفسه بالمقابل يتلمس الأعذار النفسية والاجتماعية والاقتصادية للإرهاب الذي يجئ من مثل الآنسة "سوزان البرشت".. التي دخلت على رئيس مجلس إدارة "درسند بنك"، السيد "يورغن بونتو" ومعها باقة ورد.. تهنئه بعيد ميلاده.. وهي لم تغادر مكتبه قبل أن تودع رأسه خمس رصاصات من المسدس الأنيق الذي كانت تخبئه تحت سترتها الداخلية!

في إيرلندا يكون معدل ضحايا الإرهاب عشر ضحايا أسبوعياً.. وهذه نسبة تبعث التفاؤل في نفوس الإيرلنديين مقارنة بنسب مرتفعة أخرى كانت تحدث في

السابق.. بل إن السلطة هناك تقول: إن هذا ليس معدلاً عالياً، فهو أقل بكثير من ضحايا وحوادث السير على الطرقات في عطلة نهاية الأسبوع! فيكاد هكذا يستوي لدى العالم المتحضر القتل بحوادث المرور والقتل الذي يدخل في باب بالإرهاب!

وعلى الرغم من تأكد البوليس في الغرب من فشل كل أنشطته البوليسية والاستخباراتية ضد هذه المنظمات، إلاّ أنه يصر على الاعتقاد بأن الحل، كل الحل، يكمن في التشديد في وسائل العقاب.. وعلى الرغم من تأكده من أن مطاردة الإرهابيين، في بلاده، ليست هي الطريق الأمثل نحو أمان المواطن الأوروبي، إلاّ أنه مفتون بالمطاردة!

ثلاثون ألف شرطي إلى جانب عدد كبير من الخبراء الأجانب، أثبتوا فشلاً ذريعاً في مجرد العثور على "سجن الشعب" الذي كان الدومورو محتجزاً فيه.. أو على "محكمة" الألوية الحمراء، التي كان يحاكم فيها زعيم الحزب الديموقراطي المسيحي، بعد قضاء خمسة وأربعين يوماً في الشوارع، وفي الأحراش الإيطالية!

هذه الخطورة لا تزداد إلاّ تفاقماً.. وهي تهدد كل جزء من أجزاء المعمورة دون توقف!

قيل في أحد التقارير الصحفية:

"لقد أصبحت التصفيات الفردية عمليات إرهابية اعتيادية.. فهل يقدم ذات يوم إرهابي متعطش للموت على تفجير إحدى "القنابل الذرية" فوق مدينة كبرى مكتظة بالسكان؟! وتشير الدراسات التي أجرتها القوات المسلحة الأمريكية الخاصة، إلى أنه ليس من المستحيل سرقة الأسلحة النووية من مستودعاتها أو من مصانعها. فلقد أثبتت هذه التجارب أنه من السهل نسبياً دخول مخازن الأسلحة النووية، على رغم الحراسة المشددة، والحواجز الموضوعة حولها، وأجهزة الإنذار الإلكترونية التي تحميها، وهذا يمكن أن يحدث على يد إحدى المجموعات الإرهابية الشديدة التنظيم!"

******

أوفاليا شقيقة الليدي ماكبث كانت تقول: "تعالي أيتها الأرواح التي تسهر على أفكار الموت.. واقتلعي أعضائي.. وأملئيني بالوحشية المطلقة، أنتم يا وزراء الموت اقطعوا ثديي.. وليتحول الحليب إلى سم زعاف!"

إن اليأس.. مقروناً ببقية العقد العصرية الأيديولجية والاجتماعية، هو الذي دفع المرأة إلى الانضمام إلى منظمات إرهابية. والإشارة إلى حضور المرأة في مثل هذه المنظمات ليست إشارة خجولة مستترة، بل على العكس، فليس هناك حضور أكثر جرأة!

المرأة التي كانت تنام في خيال الشعراء، وعلى أطراف أنامل الفنانين.. المرأة التي كانت تحب الورد والعطر والموسيقى.. تنادي أوليفا شقيقة اللايدي ماكبث: "اقطعوا نهدي.. وليتحول الحليب إلى سم زعاف"! وتردد قول مارتنزيالالي: "عندما نختار الكفاح، لا يمكننا أن نحب عدواً.." ومارتزيالالي تضغط على هذه الكلمات، وهي تخلع من يدها "دبلة" الخطوبة التي كان قد وضعها في أصبعها أحد أعضاء الحزب الديموقراطي المسيحي في إيطاليا.. وهي منذ ذلك الوقت مطلوبة من البوليس لعدة تهم وحوادث..

و"العيد هو القتل" كلمة كانت تقولها "سيلك ماير فيوت"، إحدى المتهمين باختطاف رئيس أرباب العمل الألماني السيد "شلاير".. كما ساهمت في عام 1977م في محاولة نسف مقر المحامين في كارل سروخ..

هناك تبرير آخر لتواجد المرأة الملحوظ داخل المنظمات الإرهابية، وهو أن المرأة عضو فعال وثابت الوجود في المجتمع.. النضال من أجل "الثورة"، ليس امتيازاً للرجال فقط!

وتأتي صورة إمرأة متحجرة المشاعر والعواطف والدموع كخطيبة الكاميكاز الياباني، فتودع زوج المستقبل بعيون من صلصال وهو يأخذ طائرته، منطلقاً ليقذف بها وبنفسه على منزل اليميني المتهم برشوة لوكهيد..

"لا يمر نهار على البوليس الإيطالي دون الإشارة إلى عملية إرهابية قامت بها امرأة!".. وأكثر من ذلك: "أن إيطاليا في العام 1978م واجهت إرهاباً نسائياً مسلحاً لا شفقه فيه ولا رحمة". هذه أقوال لأحد ضباط البوليس الإيطالي..

وفي ألمانيا معظم المطاردين من جماعة بادر ماينهوف هم نساء.. ومن يستطيع أن ينسى "مارا" الأسطورية التي تحتل مكاناً بارزاً في سجل تنظيم الألوية الحمراء.. فعندما سقطت في "معركة" حامية بالرصاص

مع البوليس صاح "الرفاق" حولها: "مارا!.. زهرة الحرية.. آلاف الأيدي تزرع حقلك وتحمل السلاح!".

ومن يستطيع أن ينسى كذلك "الملكة الحمراء"، التي ترأس الجيش الأحمر الياباني.. الذي يعد من أخطر المنظمات الإرهابية في العالم.. "فقد كانت هي التي أرسلت زوجها تسوجوشي أوكيديرا على رأس المجموعة الانتحارية إلى مطار اللد".. أرسلته وهي تعرف أنه لن يعود.. أرسلته وهي تعرف أنه سيموت.. كانت تقول: "حبي الوحيد هو الثورة!"

على مستوى الإرهاب تفوقت سنوات السبعينيات من القرن الماضي، ففي كل أجزاء الكرة الأرضية، وبالذات في الغرب، لم يشهد الإنسان تهديداً مقنناً ومبرمجاً متمثلاً في تصفيات سريعة وكثيرة مثلما شهدته السبعينات.. يقول بعض الباحثين: كانت بداية الإرهاب في أوربا في القرن السادس عشر، حيث ظهرت الحركات الفوضوية الاقتصادية والدينية، وفي أوروبا نفسها ففي نظر هذه الحركات: "السلطة ما هي إلاّ شر لأنها تقف الإنسان والنور الإلهي الموجود داخله".. ولهذا وجب التخلص

من السلطة، كما يعيش الأفراد دون آمر أو ناه.. إخوة يتعايشون بالمحبة وحسن التفاهم".. ومسألة إلغاء السلطة لتحقيق مثل هذا المناخ، قال بها جان جاك روسو.

وجاءت "الجماعة اليسوعية" التي حرمها البابا كليمان الرابع عشر في ذلك القرن نفسه.. وكانت تُسخّر الإرهاب لرد أي تغيير أو إصلاح اجتماعي، فاغتيال "مسؤول يسعى إلى تغيير الوضع الديني، يعد واجباً وليس جريمة". وقد نشرت هذه الجمعية من الفوضى في أوروبا ما نشرت.. حتى حوربت.. وضيق الخناق عليها!

ثم جاء باكونين زعيم الفوضويين الاقتصاديين، الذي يؤمن بالقتل كفعل سياسي حاسم.. أو كما يسميه "الدعاية بواسطة العمل".. وكان القرن التاسع عشر، حيث وَجَدتْ أفكار باكونين أنصاراً ومؤيدين.. "الاغتيالات السياسية العديدة التي جرت في أوائل هذا القرن.. أي القرن العشرين.. ارتكبها فوضويون يؤمنون بأفكار باكونين.. وأبرزها: اغتيال الملك الإيطالي همبار الأول عام 1900م.. واغتيال رئيس الولايات المتحدة

الأمريكية وليام وكنلاي عام 1901م.. واغتيال الملك اليوناني عام 1913م.. وجاء اغتيال الأوسيدوغ النمساوي وزوجته عام 1914م ليشعل أول حرب عالمية في تاريخ البشرية.. على الرغم من أن الأسباب الموضوعية لهذه الحرب كانت قائمة في غير هذا الحادث".

الإرهاب، إذن، لم يكن قدرنا وحدنا في الشرق، فهو أيضاً قدر أوربا.ز بل إنه كذلك قدر العالم كله. فالإرهاب لا جنسية له ولا دين.. الإرهاب هو الإرهاب.

أما الوجه الآخر من العملة فيمكن قراءته كالآتي: الإرهاب في أوروبا موجه ضد السلطة.. لكنه عندنا أحد خصائص السلطة نفسها! تريدون أمثلة؟!

خذوا "حكم العسكر" ابتداءً من "فيدلا" في الأرجنتين، حتى منغستو في أثيوبيا.. مروراً بأسماء أفريقية أخرى كلهم يرفعون شعارات الحرية!.. ولكن سجونهم تشبه إلى حدٍ كبير زرائب قطعان الماشية.. يساق إليها الناس كالأبقار.. وإذا لوحظت نقط الدم على بذلاتهم العسكرية، قالوا: إنهم كانوا في رحلة صيد غانمة!!

تريدون أمثلة عربية حتى لا نتهم بالانحياز؟!

انظروا إلى أسفل خريطة الجزيرة العربية.. ففي جنوب اليمن كانت هناك "سلطة" تحكم.. وهي بكل بساطة قطعت أعناق خمسة وستين من شيوخ قبائل الشمال اليمني عام 1972م، بعد أن دعتهم إلى بلادها لتأصيل التقارب بين شعبي الجنوب والشمال!!.. وهذه "السلطة" نفسها أنجزت أبشع صور فوضوية "باكونين"، وهي تغتال الرئيس الغشمي، الذي لم يدر بخلده لحظة واحدة أن التعامل السياسي، حتى بين أعداء الحرب، قد يصل إلى هذا المستوى من الغدر والنذالة!

الرئيس السادات على الرغم من بحور الدماء الممتدة بين العرب وإسرائيل لم يفكر يوماً في "تفتيش" المبعوثين الإسرائيليين الذين استقبلهم في القاهرة، فكيف تريدون أن "يحذر" الغشمي مبعوث دولة عربية.. جارة.. وشريكة في الأرومة، وفي التاريخ، وفي المصير؟!

من الشرق إلى الغرب.. ومن الشمال إلى الجنوب.. كل ما ترى وتسمع يؤكد أن أهم ميزات المرحلة الكونية الراهنة هي الإرهاب.

في الدول المتقدمة.. في الدول المتخلفة.. تتعرض إنسانية الإنسان في كل لحظة إلى أبشع أنواع التحقير.. وإلى أقبح ألوان التصغير والتذليل.. ويظل البشر مُصرين على التشبث بوحشيتهم، مهما حققوا من انتصارات علمية واكتشافية! بل إن هذه الانتصارات إنما يسخرونها بإرادة قصوى لممارسة هذه الوحشية بكل صورها!..

ويساورنا اعتقاد عجيب أحياناً.. فنظن أن ملكة الاكتشاف فيهم، إنما هي مُوجهة فطرياً نحو تقصي وسائل التدمير.. حيث لم يبق وسيلة من وسائل الموت إلا وأوجدوها، بينما ظلت قدراتهم عاجزة عن إنهاء أمراض خطيرة كالسرطان مثلاً!

الخليفة..
وحاشيته وأتباعه

بين السائح السعودي و"الدليل" العربي في أوربا تتم أعجب حالة من عدم التفاهم، وعدم الاحترام، وعدم الإخلاص!. ومع هذا فالاثنان لا يفترقان.. فهما دائماً كالجسم وظله.. أو هما "الكامل" الذي لا يستغني عن جزئه!. كل منهما ضروري للآخر أو هكذا يبدو. فبغير السائح السعودي، هناك جيل من بعض الجاليات العربية في أوروبا لا يمكن أن يعيش، ولا يمكن أن يشرب، أو يأكل، أو يلبس، أو ينام. وهو لو بحث عن معوض آخر يكفل له تأمين هذه الضرورات اليومية، فليس سوى سرقة، والنشل، والنهب، والنصب، وربما القتل لو احتاج الأمر!.

وبغير هذا "الدليل" فإن السائح السعودي لا يشعر بالراحة.. ولا يشعر بـ"الأمن"، ولا تتوفر له كل متطلبات اللذة التي جاء يسعى وراءها!.

والغريب أنه في بعض الأحيان يتبادل الاثنان، وبصورة شبه مكشوفة ألواناً من "الاحتقار" والتسفيه، والتجهيل، ومع ذلك فهما يصران على التواصل والعيش معاً!.

"الدليل" يعد السائح السعودي غبياً، معاقاً، وساذجاً، فهو لا يعرف كيف يصرف أموره.. وأي شيء يربحه منه هذا الدليل فإنما ربحه بذكائه، وحنكته، وحسن تصرفه. والسائح السعودي يعدّ الدليل "خادماً" ذليلاً وتابعاً يأمره فينفذ، ويطلب إليه فيجيب، ويتغطرس عليه فيذعن.. وبالتالي ترتوي في داخله عقدة "السيادة" فيزهو.. وينتفش ريشه.. وتنتفخ أوداجه.. حتى إذا أعطى الدليل ما تيسر من المال تصور أن تحته عرشاً، وأن فوق رأسه تاجاً، وأنه أحد خلفاء البذخ في عصري الدولة العباسية الأول أو الثاني.. وما ذلك إل"ما تيسر" سوى إحدى هباته السخية، أو إحدى عطاياه

الندية، نالها أحد غلمان القصر أو أحد ندماء المجلس العامر!.

مجموعة من الشباب من جنسيات عربية مختلفة لا شغلة.. ولا عملة.. يجوبون شوارع العواصم الأوروبية، ومقاهيها، وملاهيها، ومراقصها، وفنادقها بحثاً عن "شيخ" عربي، ينادمونه، وينظمون له سهراته، ويشبعون له نزواته.

شباب ضائع "داشر"، همه العثور على "خليفة" عربي ينثر عليهم هباته.. ويغرقهم بعطاياه! وهو يحتقرهم لأنهم "دونه"، وهم يحتقرونه كذلك لأنه لا يفهم.. ولا يعرف كيف يتصرف !..

هؤلاء الشباب يعرفون أين يصطادون ضحاياهم!. في "البلاي بوي".. والدور شيستر في لندن مثلاً.. وفي فندق جورج الخامس، أو فوكيتس –مثلاً أيضاً- في باريس!..

سنقف قليلاً الآن في "فوكيتس" المقهى الباريسي الذي كان "معلماً تاريخياً" قبل أن يفسده المفسدون! ها هو يقع في الزاوية المطلة، من ناحية الشمال، على

جادة الشانزليزيه.. ومن ناحية الغرب، على جادة جورج سانك التي تحتوي على أشهر وأعرق هوتيلين في باريس، الأول يحمل اسم الجادة نفسها أو الـ"فور سيزون" حالياً، والثاني يدعونه "برانس دوغال". المقهى يتمتع بموقع جغرافي "استراتيجي" وتاريخ عريق، ثم إن زبائنه من رواد الشانزليزيه، ومن سكان فندق "جورج سانك" أو "برانس دوغال".. وسكان هذين الفندقين هم عموماً من الشيوخ، والأمراء، والخلفاء العرب، الذين لاتحلو جلساتهم بغير ندماء. ولا يطيب سمرهم من دون غلمان وجوارٍ وخدم وحشم! وقوادين بطبيعة الحال!

يتصدر "الشيخ" مركازاً في صدر المقهى وفي صحبته "البادي غارد" أو الحارس الشخصي، ومعه كذلك سائق الرولس رويس. فهو متواضع، وهو ضد مبدأ حظر جلوس السائق على طاولته نفسها. ويدخل في هذه اللحظات شاب طويل أنيق: بدلة "كروازيه"، وربطة عنق "تيدلابيدوس" وحزام "كروكوديل"، أما الإشارب فكشمير من النوع الفاخر! وها وهو يلمح الشيخ العربي متصدراً المقهى!.. فيسيل لعابه، ويتحرك في داخله الذئب الذي يتربص، فيأخذ طاولة بجوار طاولة الشيخ،

ويبدأ في تمثيل دوره الذي سبق أن ردده في حضرة ألف شيخ وشيخ!: يطلب من المشروبات الكحولية أغلاها ثمناً، وأندرها وجوداً، وأغربها اسماً، أي اسم لا يعرفه "الشيخ" ولم يسمع به قط.. يحضر له الجرسون طلبه.. فينفر في وجهه ساخطاً ومنذراً بالويل وبالثبور؛ فالكرسي غير نظيف، أو أن الطاولة لم تمسح قبل إحضار الطلب، أو أن نقطة ماء من الكأس قد سقطت على بنطلونه، أو أن النادل لم يحضر بعض المكسرات كما هو المعتاد، أو لأي سبب آخر..! ثم يعود فيطلب أجود أنواع السيجار، فيأتونه بصندوق السيجار كاملاً، فيبدأ عملية الانتقاء، حاجبه معقود، وفمه مزموم، وأنفاسه تطرد، حتى يعثر على ضالته، وذلك بعد أن يكون قد أعلمهم بسيجاره المفضل، والذي يجب طبعاً أن لا يكون بين أنواع السيجار التي حملوها إليه لكي "يشخط" فيتهم من جديد، وقد يعتبر ذلك خرقاً لناموس من نواميس الكون!..

وبكل هذه الحركات و"الجعصات"، يكون قد استرعى انتباه حضرة "الشيخ"، بل يكون الشيخ قد فتن به سلفاً، فيلتفت نحوه مزمجراً بالعربية. فيتهلل الشيخ

فرحاً، وتتدفق ملامحه بشراً، فهذا "الجبار!" الذي صال وجال قبل قليل هو من سلالة عربية، وهو بالتأكيد من عبس.. أو ذبيان.. وهو، دون شك، قد اشترك في حرب داحس والغبراء، وياااه! إنه، دون ريب، أحد أحفاد سيف بن ذي يزن، أو المهلهل بن ربيعة العامري! وفضلاً عن أعراقه وأنسابه وأمجاده، فهو يتكلم الفرنسية التي تثير غيظ شيخنا الذي لا يفهمها، ولا يستطيع أن يخاطب جواريه وحواريه بها!.. ثم إن هذا "الرفيق" المنتظر "لعين" متمدن، يعرف من المشروبات ما لا يفقهه الشيخ، فضلاً عن أنه يحسن انتقاء السيجار بطريقة أعادت كل من شهد المنظر في المقهى إلى تواضعه، وإلى حجمه الحقيقي!

يبتسم "الخليفة"، ويلقي على الشاب سؤالاً كان قد عرف جوابه مسبقاً، ولكنه يلقيه ليشعر المسؤول بفرط إعجابه، أو ليلقي في روعه بأنه هو ضالته التي كان يبحث عنها منذ أن حطت رحاله في هذه المدينة التي يدعونها عاصمة النور!.

- الأخ عربي!؟

- نعم عربي.

ولكن هذا لا يكفي للاستدلال على أصله وفصله وعشيرته أو قبيلته، فيستمر الشيخ في الحديث الذي غالباً ما يكون فارغاً!.

- أهلاً وسهلاً!.

فيرد الشاب:

- يطول لي عمرك.

فيهتز التاج.. ويتململ العرش:

تفضل معنا!.

- تأمر آمر.. يخلي لنا إياك!

ولا تفوت الفرصة.. فينتقل إلى الطاولة الصيدة.. فيقول له الخليفة ممازحاً:

- ليتك تعطيني فرنسيتك!. (يقصد لغته)

فيرد الشاب مبدياً أول مظاهر الطاعة والامتثال:

- لعيونك.

لم يعد أحد في حاجة إلى سؤال الشاب عن أصله وفصله.. فهو من خلال لهجته أحد أفراد القبائل الكندية

جماعة امريء القيس المهاجرة من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال.. أو المهاجرة من اليونان إلى هذا "الشمال"، لا فرق أبداً "كلنا أولاد عرب"!.. يتكلم الشاب عن حياته العامة، والخاصة.. وخاصة الخاصة.. فيذكر مما يذكر أنه أحد سماسرة "داسو" للطائرات، وأنه أحد المساهمين في كبريات شركات الألبان والجبن الفرنسي الشهير، وأنه نظم اتفاقية بناء مطار أبو ظبي الدولي، وأنه هو الذي مهد لمشروع البنك السعودي الفرنسي في الرياض، وهو الذي يصدر دفعات سيارات "بيجو" إلى الشرق، وهو الذي أقنع المسؤولين في الإدارة الفرنسية بضرورة المشاركة في "الهيئة العربية للتصنيع الحربي" طبعاً من أجل قضيتنا "الكبرى"! فلسطين.. ولكنه يفهم بعد قليل أن الشيخ لم يأتِ لعقد صفقات تجارية، ولا لإبرام اتفاقيات اقتصادية، ولا تهمه مبيعات الدجاج الفرنسي في الشرق الأوسط، ولا يعنيه ارتفاع أسعار البيض في جدة، فهو إنما جاء إلى باريس للراحة والاستجمام "ولإجراء بعض الفحوصات الطبية!" فيقلب الشاب الوسيم الأسطوانة.. بعد أن يكون قد عرف نوايا الشيخ الحسنة! وبعد أن سبر مقاصده النبيلة!..

فيذكر له مما يذكر أنه سبق أن رافق الشيخ "ضرغام بن أسد" في باريس.. وأنه قد ارتحل مع الخليفة "بعير بن ذلول" إلى لندن، وأنه قد سامر الوالي "كلاب بن جحش" في مدينة "كان" الفرنسية في جنوب فرنسا، وأنه قد لزم "أبا سفيان الخثعمي" طيلة إقامته في جزيرة موناكو! ثم يزيد أنه صديق شخصي للمتر "إلياس" في كباريه "يالديزلار" ويعطيه -بدون حجز- أحسن الطاولات.. وأنه رفيق المتر "جيرار" في ملهى "فرانسو بروميبه"، وهو يخصه بأفضل الواجهات على البيست.. وأنه من أقرب الأقربين إلى قلب مسيو "كان" صاحب مرقص "لوكيرسامبا"، وهو يضعه عندما يأتي وحيداً أو مع "أصدقائه" في أحسن الأماكن.. كما أنه في الوقت ذاته ابن عم "مكسيم" الذي يقدمه على زبائن مطعمه الشهير من أمثال سلفادر دالي واليهودي "انريكوماسياس".

ثم يستطرد مؤكداً:

إنه حبيب "ايف سان لوران" وهو يعرف - وهذا هو المهم!- كل عارضات أزيائه.. "يا سلام عليهن!

بيجننوا" ثم إن علاقته بـ"كرستيان ديور" أعمق من علاقة نيكسون بوزير خارجيته كيسنجر، وأصدق من علاقة كاسترو ببريجنيف، وهو بحكم هذه العلاقة يعرف سكرتيراته، ويأمر وينهي على البائعات في صالات العرض خاصته، "يا سلام عليهن، بياخدو العقل". فتنفرج أسارير "الخليفة" وتظهر البشرى على وجهه.. فقد وجد - أخيراً- أحد أطبائه الذين جاء للفحص والعلاج عندهم. ثم تنعقد "الصحبة"، ويتحول الشاب الوسيم الأنيق ورجل الأعمال الناجح إلى شيء آخر لا أستطيع كتابته هنا؟!

وطيلة مدة "الرفقة" فإن الخليفة العربي يحتقر تمام الاحتقار دليله ونديمه.. فهو دائماً ذليل، وهو دائماً ماسح أحذية، ومهمته تبدأ بفتح باب الرولس لسيده، وتنتهي بتغيير شراشيف سرير هذا السيد عند الصباح!.

وطيلة المدة فإن الدليل، بالمقابل، يحتقر الخليفة المنتفخ، فهو غبي وساذج لا يعرف تصريف أموره بنفسه، كما أنه لا يدرك أبعاد اللعبة التي يحيكها من أجله الدليل.. إن كل قرش يضعه هذا الدليل في جيبه إنما

جاء بفعل ذكائه وحنكته وضحكه على ذقن الشيخ أو الخليفة! وإن كل قرش يكسبه الأول، إنما كسبه بدهاء، وإن كل قرش ينفقه الثاني إنما أنفقه بحمق وبلاهة! وتستمر المناورة، وكل واحد من الاثنين يعتقد أنه الفائز، وهو المتفوق، وهو سيد الموقف!..

منتهى عدم التفاهم.. وعدم الاحترام..

للتنبيه.. فهذا الخليفة أو الشيخ العربي ليس بالضرورة من "الدقة القديمة"، أي من المتقدمين في السن.. بل إنه قد يكون شاباً يافعاً في مثل سن الدليل أو أقل أحياناً.. والذي يزيد الحزن عمقاً، أنه ربما كان من المثقفين، والمتعلمين، أو حتى من طلابنا في الجامعات الأوربية والأمريكية.. يمر بباريس قادماً من السعودية أو قافلاً عنها!. إنه يعرف تمام المعرفة الحياة الغربية، ويتكلم لغة أو لغتين أجنبيتين، ويستطيع "تخييش" عشرين نصاباً من نوع هذا "الدليل" المزعوم. وأتساءل دائماً: لماذا الأبهة، والمشيخة، و"البادي قارد"، والحاشية، والخدم والحشم إلى آخر القائمة!؟ لماذا ضرورة أن يبلغ هؤلاء "أشياءهم"

بواسطة!؟ لماذا لا يبلغونها بأنفسهم؟ وهم لا ينقصهم الذكاء، ولا الثقافة، ولا اللغة، ولا حتى الوسامة وقوة الشخصية..!

لقد رأيت نماذج من طلابنا في الغرب، لايبلغون أشياءهم إلا بواسطة، ولهذا فهم دائماً محاطون بعدد من "الزبانية" والمرتزقة والنصابين من شباب "فوكيتس" وغيره من مقاهي باريس المترعة بهذه النوعية من أشباه الرجال.

إذا كان القصد هو "الفخفخة"، فهذا هو موضوع تندر الناس بنا وبدنانيرنا.. وببترولنا أيضاً!

أجل..! البترول الذي من المفروض أن يكون "زهوا" وطنياً، تحول على ألسنة الشعوب الأخرى إلى "نكته".. أعني الشعوب التي لا نحسن تصرفاتنا عندها: فنبذخ، ونبذر، ونسهر مع جيش من المحتالين، ونتمشى مع جيش من النصابين، ونروح ونجيء مع فريق من المنافقين. نعم فهذا البترول أصبح موضوع سخرية، وأحياناً مذمّة!

إننا عندما نسير في الشوارع والأماكن العامة بسياراتنا الفخمة، وبحراسنا الشخصيين، وبتابعينا

العديدين، يتهامس الناس -ومنهم أتباعنا أنفسهم- قائلين: بترول.. بترول! وكأنهم يقولون: جهل.. تخلف.. سذاجة.. غباء إلخ..

لقد رأيت شباباً عاديين ليس لهم أهمية سياسية أو اقتصادية لا ينزلون إلى الشارع في باريس أو لندن إلا بحراس شخصيين _بادي غارد)، ولا يذهبون إلى المطعم إلا بحراس، ولا يسهرون إلا بحراس، وهذه الموضة، أعني موضة "البادي غارد"، خلفت موضة الرولس. وإذ كان تنابلة الشباب السعودي عندما يذهبون إلى الخارج يستأجرون سيارات رولس؛ ليلتفت الناس إليهم، فإنهم اليوم زادوها "البادي غارد"؛ ليحطيوا أنفسهم بنوع من الهيبة والأهمية..

لقد رأيت بالمقابل مسؤولين سعوديين لهم أهميتهم السياسية، وشاهدت رجال أعمال كبار لهم أهميتهم الاقتصادية، وقابلت بعض الأمراء، وهم أبناء ملوك، وإخوان ملوك، يمشون وحيدين بلا حراس شخصيين، وبلا "بادي غارد" وبلا تابعين.. وأحياناً يستأجرون مورسيدسات تلافياً لإحراجات الرولس!.

أحد الشباب التنابلة مثَّل لمدة أسبوع في باريس دور "الشيخ" الآمر الناهي. فضحك على الناس، وضحك

عليه الناس.. هذا التنبل كان عندما ينزل إلى صالة الحمامات في الملهى الذي يسهر فيه، يقف حارسه على باب الصالة يمنع الزبائن من الدخول إلى الحمامات الأخرى الخالية في الصالة!.. إذ لابد أن يشغل وحده الصالة كلها، ومن الإخلال بوقاره أن "يتبول" الناس في الوقت نفسه الذي "يتبول" فيه سعادته. فالناس الآخرون لابد أن يتبولوا بعده وليس معه؟! ولا بد أن يجدهم مصطفين على باب الصالة، ينتظرون عطفه بالإفراج عن مصيرهم.

عن مثل هذه النماذج الرديئة من شباب العرب كنا نتحدث.. وعن بعض سلبيات السياحة العربية في الخارج كنا نقدم الأمثلة! ابتداء من.. الدليل.. والتابعين.. إلى الجواري.. والغلمان.. والسائقين.. والحراس. والقوادين!

يا أيها الناس!

استعيدوا ما فقدتم من الحياء..!

أنتم في حاجة إلى خجل. فاخجلوا!.

المحتويات

المقدمة ——— 5
اسبحوا في فضاءات الأمكنة.. انعموا باستنطاق الملامح ـ 5
الحي اللاتيني.. يفكّر ——— 13
الكومندوز ——— 61
سامحيني يا لندن ——— 97
كريشنا والبقرة ——— 117
"أنيتا" في ستوكهولم ——— 179
مثلاً ——— 201
أصيلة ——— 205
أولاد الشيطان ——— 213
العمى الثقافي ——— 237
اتشحي بالسيف.. لا تهملي الحب! ——— 243

الغندرة.. وحوار العصافير! 251
في هجاء الميترو 265
موسيقى حتى الموت! 277
طفل المغرب الأول 291
الإجازة 317
الهوى والليل.. والكلام السكر 325
القبيح 371
الوردة الذابلة! 381
غنّوا لغير الحب 391
هاتوا السلاح 407
الخليفة.. وحاشيته وأتباعه 425
فهرست الأعلام 441
فهرس الأماكن 447

فهرست الأعلام

أ

أبوللينير 238 ، 240
اتيان دوليه 41
أحدب نتردام 16 ، 53
إحسان عباس 17
أحمد الصالح 64
أحمد عبدالمعطي حجازي 212
الإخوان جاك 405
ادجار كينيه 54
أدرين 36
آدم سميث 254
آدمو 103 ، 395
إديت بياف (فنانة) 23
ارتور لوند كفيست 197
أرنست همنجواي 239
إريك رولو 68
إريك شاردن 405
استون 405
آلان دولن 372
ألبير كامو 118،391،267
ألكسندر دوماس 59
الكسندر ميرسير 57
أمريء القيس 432
إميل زولا 17 ، 59
إنجليز 38، 106، 108، 235، 402
اندرياس بادرمايهوف 411
أندريه بروتون 55
أندريه مالرو 59،130،391
انريكوماسياس 433
أولديك ماينهوف 410
أوليفر غولدسميث 254
أيروس 111
ايف سان لوران 433
أيفند جونسون 197، 199

ب

بابا نويل 348
بابلو بيكاسو 239
باحنيني 301
بادر ماينهوف 411، 419
باكونين 421، 423
بالزاك 17، 35، 36
باولو بيكاسو 56
باوليني 92 ، 94
برابهوبادا 124، 125، 129، 130، 172، 173، 176، 177
بريجنيف 297، 434
بريجيت باردو 11 ،381 ،382، 384 ،388، 389
بريغمان 199
بندر بن سلطان (الأمير) 208
بهاغافاد – جيتا 122، 128، 130، 131، 138
بوردو 49
بول لانجفان 59
بومارشيه 34، 52
بولفور 55، 238
بولند الحيدري 212
بي بي سي 112
البيتلز 310
بيرنس 255
بيرون 33
بيكادللي 110
بينولا كلارك 403
بيير مسمير 94

ت

تشارلز الأول 110
توفيق الحكيم 17
توم جونس 29
تيدلابيدوس 428

ج

جاك بريل (فنان) 402
جاك جيرمان 59
جاكلين فرانسوا 402
جان جاك روسو 59، 421
جلبير بيكو (فنان) 397،103
جليبر مونتاني (فنان) 29
الجماعة اليسوعية 421
جو داسان (فنان) 310
جورج براسانس(فنان) 29
جورج بومبيدو 305،297،94
جورج موستاكي(فنان) 211،23، 394، 396، 402، 403، 404

جون بول ساتر 391،54،19،18
جون راسين 35
جون ماري لوبن (سياسي) 25
جونسون (الرئيس الأمريكي) 115، 197، 199
جوني هوليدي(فنان)402، 405
جيرار لونورمو(فنان) 310
جيسكار ديستان 315
جيمس براون 402
جيمس سيميسن 258
جين بيركين (فنانة) 372

ح

حافظ الأسد 84، 85
الحسن الثاني(الملك) 291،292، 293، 294، 295، 298، 301، 303

خ

خالد بن عبدالعزيز (الملك) 315
خوان كارلوس 297، 315

د

داسو 365، 432
داليدا (فنانة) 396، 403
دو لاسوربون (عائلة) 14
دوبير ديور 41
دوبيرن 35
ديدور 33
ديفيد هيوم 354

ر

رامساي 254، 255
راي تشارلز 402
رفاييل سباتيني 32
رنغو 405
روس بونير 53، 54
روكوكو 189

س

السادات (أنور) 297، 423
سانت بوف 54
سعد الدين إبراهيم 212
سعد الصويان 202، 203
سعد ناظر 62
سلفادور دالي 55، 269
السنسكريتية 170
سوزان البرشت 415

سوهو 11، 110
سيرج ريجياني (فنان) 37، 38، 103، 397
سيرج غانزبور(فنان وشاعر) 11، 372
سيزيف 118، 119
سيلفي فارتان (فنانة) 405
سيمون دو بوفوار 19، 182

ش

شاتو بريان 54
شارل أزنافور (فنان) 24
شارل دوغول 334
شالغران 52
شمان بارزان 110
شيلا (فنانة) 281، 282، 283، 286، 405

ص

صامويل كوستر 362
صوفيا (الملكة) 315

ط

طه حسين 17

ع

عبدالحليم حافظ 310
عبدالسلام بوحمو 92
عبدالله الطويل 64، 83
عبدالمحسن بن حليت 202
عبدالوهاب البياتي 211
المسيح عليه السلام(عيسى) 348

غ

غامبينا 34
غاندي 121، 130، 140
غودرين انسلين 411
غولد سميث 115
غي لوكس 214

ف

فرانسوا الأول 41
فرانك سناترا 398
فكتوريا 110
فلسطين 66، 203، 376،415، 432
فلوبير 17
فوجيتا 239
فولتير 33، 36

فوندل 362 ، 368
فيرلين 238
فيكتور هيخو 34
فيليب دولون 41
فهد بن عبدالعزيز(الملك) 315
فيصل (الملك) 248،297،307

ك

كارل ميلس 181، 183، 199
كاسترو 434
الكاميليون 56 ، 57
كرستيان ديور 434
كريشنا 117، 123، 124،
125، 126، 127، 128، 129،
130، 131، 132، 133، 134،
136، 137، 138، 139، 141،
142، 145، 146، 147، 151،
152، 154، 156، 157، 158،
160، 161، 162، 166، 167،
168، 170، 171، 172، 173،
175، 176، 177
كلود فرانسوا (فنان) 398
كليرون (المادموازيل) 36
كولوفر 36

ل

لاتزا ديل فاستو 130
لازار كارنو 59
لافونتين 33
لطفي الخولي 211
لستير اللورد 258
لوكهيد 365، 410، 419
لوموند 15، 17، 68
لوي أراغون 55
لوي باستنور 59
الليدي ماكبث 417
ليو فيريه 392، 394، 402
ليوبولد سنجور 211

م

مارتن لوم 41
مارسيلان بيرتيلو 59
ماري كوري 59
المتنبي 309
محمد(سيدي) 291،292،293
محمد الفاسي 301
محمد الفهد العيسى 238، 240
محمد الفيتوري 212
محمد المويلحي 207

محمد بن عيسى 207، 209، 210، 212
محمد عبدالقادر علاقي 62، 80
محمد علي رضا 61
المعتمد بن عباد 207
الملكة الحمراء 420
منغستو 422
المهدي المنجرة 212
موريس ألبير 42
موسو ياسو ما يرو 410
موسى داود 227، 232، 233، 234
موليير 34، 35
ميراي ماتيو (فنانة) 402

ن

نانا موسكوري (فنانة) 403
نعمة النعمة 71، 72
نيكسون 297، 434

هـ

هنري سلفادور 397
هنري ما كنزي 254
هيجل 130

و

وليام برودي 256
وليام وكنلاي 422
وليامز الأغريقي 261
وولتر سكوت 255

ي

يورغن بونتو 415

فهرست الأماكن

أ

أباي ونستمينستر 108
أثينا 338
أثيوبيا 422
أجياد 19
أدنبره 10، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 261، 262، 263، 332
الأرجنتين 422
أسبانيا 208، 244،297، 306، 315، 322، 342، 353
إسرائيل 30، 184، 199، 354، 372، 376، 403، 423
اسكتلندا 252
أصيلة 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212
أفنيو لويز 343
أمستردام 10، 11، 332، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 378
اندريه باسكال (شارع) 61، 68، 94
أوديون (ساحة) 34، 51، 52
أورلاند 180
أيزلندا 188
إيطاليا 235، 367، 413، 414، 418، 419

ب

باريس 10، 11، 13، 16، 19، 27، 28، 29، 30، 34، 35، 37، 39، 43، 46، 47، 49، 50، 51، 52، 56، 61، 62، 66، 67، 70، 72، 74، 78، 84، 85، 86، 87، 88، 91، 94، 99، 100، 101، 103، 106، 111، 121، 125، 127، 128، 131، 134، 135، 144، 171، 172، 178، 197، 214، 217، 222، 223، 224، 228،

234، 235، 238، 239، 240،
244، 268، 269، 270، 271،
274، 275، 289، 317، 319،
320، 321، 322، 349، 373،
376، 377، 381، 382، 385،
386، 387، 388، 389، 394،
397، 398، 401، 404، 406،
427، 428، 432، 433، 435،
436، 437
باكنغهام 109، 110
البانيتون (مقبرة) 23
برانس دوغال (فندق) 428
برلين 244، 388
بروكسل 10،235، 332، 333،
334، 335، 337، 338، 339،
340، 341، 342، 343، 344،
345
بروكوب (مطعم) 33 ، 34
بغداد 245
بق بن 113، 114
بلاس دولاموني (ساحة) 343
البلاي بوي 427
بلجيكا 326،332، 333، 342،
365
بوبينو 394
بوتيت رو دي بوشيه (شارع) 343
بورجيه (مطار) 86، 87، 91
بولي ماغو (مقهى) 27، 28، 31
بيرغر يارل 189، 190
بيغال (حيّ) 50
بيكادللي (حي) 111، 112
بينتلاند هيلز 261

ت

تاهيتي 263
تاور بريدج 114
تايمز 113، 114
ترافلغير(ساحة) 107،108،111
تكساس 252

ج

جامعة أدنبرة 257
الجزائر 68، 78، 88، 201،
202، 203، 204
الجنادرية 248
جنيف 235، 297، 434،442
جورج سانك (شارع) 428
جورج سانك (فندق) 428
جوردان (حي) 348، 349،
352

ح

الحجاز 20
الحي اللاتيني 11، 13،15، 16، 18، 20، 21، 22، 23، 24، 27، 31، 37، 39، 43، 47، 50، 52، 53، 58، 59، 99، 111، 121، 214، 238، 317

خ

الخيمة (فندق) 210،211، 212

د

دمشق 245
الدنمارك 178، 188، 365
الدور شيستر (فندق) 427
دوروغستور (مطعم) 50،51،52
الدوم (مقهى) 56

ر

راسباي (شارع) 57
راين (مدينة) 260
رايندرس 363
الرباط 291، 298، 314، 315
رو دي بوشيه (شارع) 343
رويان 49
الرياض 10، 88، 245، 246، 247، 248، 432
ريجنت ستريت 112

س

سان تروبيه 384
سان جرمان (شارع) 18، 19، 32، 33، 35، 37،
سان جرمان دي بريه (حي) 387
سان دوني (حيّ) 50
سان فرانسيسكو 244
سان ميشيل (شارع) 15، 35، 401
ستوكهولم 179، 180، 181، 182، 190، 191، 193، 198، 199
سوان 112
السوربون 13، 14، 15، 55، 99
سوريا 55، 56، 68، 197، 198
سوق الليل 19

السويد 179،180، 181،182، 183، 185، 186، 187، 188، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199
السين (نهر) 15، 16، 43، 47، 319

ش

الشانزليزيه 50، 52، 111، 317، 387، 428
شيفول (مطار) 346
شيكاغو 244

ص

صقلية 251
الصين 327

ط

طنجة 211
طوكيو 220، 244، 388

ع

العراق 68

غ

غرين بارك 110

ف

فرانكفورت 244
فرجينيا 146، 148، 151
فرنسا 30، 31، 34، 36، 49، 70، 78، 86، 123، 169، 197، 244، 260، 274، 305، 306، 320، 326، 353، 368، 373، 382، 384، 392، 393، 394، 397، 398، 402، 404، 405، 411، 433
الفريد لاوهادنك (شارع) 61
فكانكس (مقهى) 99
فنلندا 187
فور سيزون (فندق) 428
فوكيتس (مقهى) 427، 436
فيتنام 375
فيسكونتي 35، 36
فينسيا 367

ق

القاهرة 231، 244، 321، 423
قوس النصر (ساحة) 52

ك

كالفرسترات 355
كالكوتا 148
كاليفورنيا 214، 231، 234
كان (مدينة) 433
كلوسري دي ليلا 55، 238
كندا 311
الكوبول (مقهى) 56
كوجاس (شارع) 58، 60، 121
الكويت 68، 79، 96

ل

لا سيتي أدمينستراتيف 343
لاغراند بلاس(ساحة) 339،344
لامونتاني سانت جنفييف(شارع) 59
لامويت (ساحة) 61
دو روا دو لاميزون بلجيك(قصر) 342
لاميزون دو روا دي سباني(قصر) 342
اللد (مطار) 420
لندن 10، 29، 49، 97، 99، 100، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 125، 171، 228، 234، 235، 260، 263، 275، 280، 287، 289، 302، 332، 349، 378، 388، 427، 433، 437
لنغتون هاوس 112
لو فلور (مقهى) 18
لوس أنجلس 125، 170، 244
لوكسبمورغ 15، 59، 332
لي دوماغو (مقهى) 18
ليبيا 68
ليد سبلين (ساحة) 360، 363
ليل دو فرانس (حي) 384
ليما 321
ليندغرين 196
ليون كلادل (شارع) 215، 227، 274

م

مارسيليا 274
مدريد 244
المسرح الملكي دولاموني 343
مصر 17، 18، 19، 321
مكة المكرمة 19، 204
مكسيكو 274، 275
مكسيم (مطعم) 433

موبير (ساحة) 11، 39، 40، 41، 42، 43
موبيرمتواليتي (ساحة) 58
موفتار (ساحة) 23، 24
موفوتار (ساحة) 59
مون مارتر (حيّ) 50
موناكو (جزيرة) 433
مونبرناس (حيّ) 19، 53، 54، 55، 56، 57، 238، 317،401
ميلانو 35
ميونيخ 94، 244

ن

ناشيونال غاليري 107
نتردام 16
نتردام شان 53
النرويج 187، 188، 306، 307، 315
النمسا 100
نيويورك 29، 168،170، 220، 244، 271، 275، 321، 388

هـ

هايد بارك 108
الهند 121، 123، 124، 125، 128، 131، 138، 148، 154، 155، 165، 167، 170، 171، 172، 178، 302، 321، 327، 397
هنولولو 263
هولندا 326، 328، 332،333، 351، 352، 353، 365

و

واشنطن 244
وروما 235، 245، 349
الولايات المتحدة الأمريكية 146، 214، 234، 421
ويست برانسس ستريت 255
ويستمينستر 113

ي

اليابان 193، 244، 410، 411، 419، 420
اليونان 322، 338، 422، 432